

# الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي

ماليز روثقن

أكاديمية

## من مواضيع الأطلس:

العصور القديمة المتأخرة ما قبل الإسلام

\* رسالة النبي محمد ﷺ وغزواته \*

السنة، والشيعه، والخوارج \* الخلافة

العباسية \* انتشار الإسلام \* الشرع

الإسلامي واللغة العربية \* الدولة

الفاطمية \* طرق التجارة \* الممالك

الصليبية \* الطُرق الصوفية \* الأيوبيون

والمماليك \* الغزو المغولي \* المغرب

وإسبانيا \* الدول الجهادية \* السلطنة

العثمانية \* إيران \* آسيا الوسطى \*

التوسع الروسي \* انتشار الإسلام في

جنوب شرقي آسيا \* السيطرة الاستعمارية

\* البلقان \* تنامي الحج \* مدن متمدنة \*

تأثير النفط \* الموارد المائية \* تجارة

السلاح \* العراق \* أفغانستان \* إسرائيل -

فلسطين \* المسلمون في أوروبا الغربية \*

المسلمون في أميركا الشمالية \* الفنون

الإسلامية \* تورع المسلمين في العالم \*

السينما الإسلامية \* المواقع الأثرية

الإسلامية





الأطلس التاريخي  
للعالم الإسلامي



# الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي



تأليف  
ماليز روثفن

بمشاركة  
عظيم نانجي

نقله إلى العربية واعتنى بخرائطه  
سامي كعكي

أكاديميا

# الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي

© أكاديميا إنترناشيونال، 2007

ISBN: 9953-3-377-9

جميع الحقوق محفوظة

Historical Atlas of The Islamic World

© Oxford University Press 2004

was originally published in English in 2004.

This translation is published by arrangement with Oxford University Press.

تنشر الترجمة العربية بترخيص من دار النشر الانكليزية أكسفورد

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، بأي طريقة، سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقدماتاً.

أكاديميا إنترناشيونال Academia International

شارع فردان، بناية بنك بيبولس Verdun St., Byblos Bank Bldg.

ص.ب. P.O.Box 113-6669

بيروت، لبنان Beirut 1103 2140 Lebanon

هاتف Tel. (961 1) 800811 - 862905 - 800832

فاكس Fax (961 1) 805478

بريد إلكتروني E-mail academia@dm.net.lb

[www.academiainternational.com](http://www.academiainternational.com)

أكاديميا هي العلامة التجارية لأكاديميا إنترناشيونال

ACADEMIA is the Trade Mark of Academia International

# المكتويات

108	الأمبراطوريات البريطانية والفرنسية والهولندية والروسية .....	6	مقدمة .....
110	الحركات الإصلاحية في القرن التاسع عشر .....	14	العقائد والعبادات الأساسية في الإسلام .....
112	تحديث تركيا .....	16	الجغرافيا الطبيعية للعالم الإسلامي .....
116	العالم الإسلامي تحت السيطرة الاستعمارية حوالي العام 1920 .....	20	اللغات والمجموعات العرقية الإسلامية .....
118	البلقان وقبرص وكريت (1500-2000) .....	24	العصور القديمة المتأخرة ما قبل الإسلام .....
122	الأقليات المسلمة في الصين .....	26	رسالة محمد وغزواته الحربية .....
124	المشرق (1500-2000) .....	28	توسّع الإسلام حتى عام 750 .....
128	مشاهير الرحالة المسلمين .....	30	انتشار الإسلام (751-1700) .....
132	بريطانيا في مصر والسودان خلال القرن التاسع عشر .....	34	السُّنة والشيعَة والخوارج (660- نحو 1000) .....
136	فرنسا في شمال إفريقيا وغربها .....	36	الخلافة العباسية في ظل هارون الرشيد .....
138	نمو الحج وتطوُّر المشاعر المقدسة .....	38	انتشار الإسلام والشرع الإسلامي واللغة العربية .....
142	مدن متمددة .....	40	الدول الوريثة إلى العام 1100 .....
146	وقع النفط في القرن العشرين .....	44	العصر السلجوقي .....
148	الموارد المائية .....	46	التجنيد العسكري (900-1800) .....
150	تجارة السلاح .....	50	الدولة الفاطمية (909-1171) .....
152	إضاءة سريعة: جنوب شرقي آسيا (1950-2000) .....	52	طرق التجارة ( نحو 700-1500) .....
154	إضاءة سريعة: العراق (1917-2003) .....	56	الممالك الصليبية .....
156	إضاءة سريعة: أفغانستان (1840-2002) .....	58	الطرق الصوفية (1100-1900) .....
158	الجزيرة العربية والخليج (1839-1950) .....	62	الأيوبيون والمماليك .....
160	صعود الدولة السعودية .....	64	الغزو المغولي .....
162	إضاءة سريعة: إسرائيل - فلسطين .....	66	المغرب وإسبانيا (650-1485) .....
164	إضاءة سريعة: الخليج (1950-2003) .....	70	إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى - شرقاً .....
166	المسلمون في أوروبا الغربية .....	72	إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى - غرباً .....
168	المسلمون في أميركا الشمالية .....	74	الدول الجهادية .....
170	المساجد وأماكن العبادة في أميركا الشمالية .....	76	المحيط الهندي إلى العام 1499 .....
172	الفنون الإسلامية .....	80	المحيط الهندي (1500-1900) .....
176	أبرز المواقع المعمارية الإسلامية .....	84	صعود العثمانيين حتى 1650 .....
180	توزّع المسلمين في العالم ( عام 2000) .....	88	الأمبراطورية العثمانية (1650-1920) .....
184	السينما الإسلامية .....	92	إيران (1500-2000) .....
186	استخدام الإنترنت .....	94	آسيا الوسطى إلى العام 1700 .....
188	جدول زمني بأهم الأحداث الإسلامية .....	96	الهند (711-1971) .....
		102	التوسع الروسي في ما وراء القوقاز وآسيا الوسطى .....
		106	انتشار الإسلام في جنوب شرقي آسيا (نحو 1500-1800) .....

## مقدمة

من مدن العالم ومنتجاته السياحية، نذكر منها: نيروبي، دار السلام، مومباسا، الرياض، الدار البيضاء، بالي، تونس، جاكارتا، مومباي (بومباي) ومديرد. اللانحة تطول، وحجم الإيجابيات أخذ بالارتفاع، فيما يكتنف الغضب والحيرة ردود فعل الشعوب وحكوماتها. وأحسب أن التداعيات البعيدة المدى لردود الفعل هذه على السلم والأمن الدوليين كافية لإقناع كل فرد منا (وليس فقط محرري وسائل الإعلام الذين يُقولون وعي الجمهور بما يَلائم أولويات المعلنين لديهم)، أن المظاهر المتطرفة للإسلام هي من يضع أجندة النقاش وجدول الأعمال في القرن الحادي والعشرين.

إن المسلمين الذين يُقيمون في الغرب، أو في تلك المناطق الأخذة بالاتساع من العالم الإسلامي التي تغشاها المؤثرات الإلكترونية للغرب، ليشعرون بالامتناع من التعرّض السلبي لهم، هذا التعرّض المُصاحب عادة للقلق المتزايد من الغريب الطارئ. إن

قلماً يمر يوم، منذ الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001، إلا ويذكر فيه الإسلام، دين ما يُقارب خمس البشرية، في وسائل الإعلام، في ذلك اليوم، خطف إرهابيون أربع طائرات ركاب أميركية وضدوا بها برجنى مركز التجارة العالمي في نيويورك ومبنى البنتاغون بالقرب من واشنطن، مما أدّى إلى مقتل زهاء ثلاثة آلاف شخص، ودفع الولايات المتحدة وحلفاءها إلى إعلان ما يُسمى «الحرب على الإرهاب»، التي أسفرت حتى الآن عن القضاء على حكومتين إسلاميتين، واحدة في أفغانستان والأخرى في العراق. وهكذا برز الإسلام فجأة، في كل أنحاء العالم، موضوعاً للتحليل والنقاش، واتسمت السجلات على أعمدة الصحف كما في استديوهات الأخبار، في المقاهي كما في البيوت، بالحدة والسخونة. والأسئلة التي كانت تدور فيما سبق داخل أروقة المؤتمرات الأكاديمية وندوات التخرّج الجامعية، دخلت الآن في صميم الهموم السائدة للوعي العام: ما هي «شرعة الجهاد» وكيف حدث أن صار «دين مسالم»، ينتسب إليه ملايين المؤمنين العاديين والمحترمين، أيديولوجيا للحقد والكراهية لدى أقلية ساخطة؟ ولماذا أضى الإسلام بعد سقوط الشيوعية شحوناً هكذا بالحدة الانفعالية؟ أو، إذا ما شئنا استخدام عنوان

مقالة لاقت رواجاً واسعاً لعلمد المستشرقين، برنارد لويس: «ما وجه الخلل» الحاصل في التاريخ الإسلامي، في علاقته بنفسه كما في علاقته بالعالم الحديث؟ أسئلة من هذا الضرب لم تعد بعد الآن أكاديمية بحتة، بل أضحت على درجة كبرى من الأهمية، وموضع أخذ وردّ بالنسبة لمعظم الأمم والشعوب على سطح كوكبنا هذا. فالإسلام، أو قلّ بعض التئويغات منه - سواء أكانت مشوّهة، أم منحرفة، أم فاسدة أم رهيبة أناس متطرفين - بات اليوم قوةً يُعتدّ بها، أو على الأقل سبباً تُلصق بظاهرة خبلى بإمكانيات واحتمالات بالغة الخطورة.

قبل 11 أيلول/سبتمبر وبعده، وقعت العديد من الفظائع والأعمال الوحشية التي نُسبت إلى متشدّدين إسلاميين، أو التي اعترفوا هم أنفسهم بمسؤوليتهم عنها، فأوقعت الأذى الفادح والدمار الشديد بالعديد



الإسلام دينُ سلام: فلفظة «إسلام» التي تعني حرفياً التسليم (لأمر الله)، تتصل من الوجهة الاشتقاقية بعبارة «سلام» التي تفيد السلم والصلح. والتحية المتعارف عليها التي يستخدماها معظم المسلمين لدى انضمامهم إلى تجمّع ما، أو حتى لدى التقاتيم بغرباء عنهم، هي: «السلام عليكم». يمكن القول إن الغربيين مَنْ يتهمون الإسلام بأنه دين عنفٍ يجهلون حقيقته. والصاق النعت «مسلم» أو «إسلامي» بأعمال الإرهاب ينطوي على ظلم واقتئات شديدين. حين أقدم مهووس مسيحي ذو ميول يمينية كتيهومي ماكفاي على تفجير مبنى فيدرالي أميركي في مدينة أوكلاهوما، وكان أسوأ عمل فظيع يرتكب على التراب الأميركي قبل 11 أيلول/سبتمبر، لم يبادر أحد إلى وصفه بالإرهابي «المسيحي». إن العديد من المؤمنين المسلمين لينظرون إلى «الغربيين» ممن تخلّوا عن دينهم أو أعماه التحامل الديني، على أنهم أناس لا «يفهمون» الإسلام حق الفهم. وثمة وسائل إعلامية معادية لا تنور عن تشويه الآراء الغربية، فتصغيح المشاعر والمواقف بصيغة «الإسلاموفوبيا» (الهلع

المرضي من الإسلام)، أو المرادف لمعاداة السامية إنما مطبقة هذه المرة على المسلمين بدلاً من اليهود. بعض الدارسين ممن تدرّجوا في الأكاديميات الغربية، مُتهمون بأنهم يرون الإسلام من خلال العدسات المشوّهة للاستشراق، ذلك العلم الذي تطرق إليه الفساد نظراً لأرتباطه بالإمبريالية، حين كانت المعرفة المتخصصة مسخرة لخدمة القوة والنفوذ الاستعماريين.

هذا مجالٌ محفوف بالمخاطر ومُتنازع عليه، ومن يُغامر بدخوله من الكتاب إنما يُعرض نفسه للخطر. فأي تعميم بشأن الإسلام، مثله مثل أي دين آخر، يكون عرضةً للنقض والدمحض، لأنّ مقابل كل وصف معياري للإيمان أو الاعتقاد أو السلوك الإسلامي، توجد تنويعات مهمة وفروق ذات شأن. وتزداد معضلة التعريف صعوبة لعدم وجود مؤسسة «كنسية» جامعة أو «باباوية» إسلامية تتمتع بسلطة أمرية تفصل في ما هو إسلامي وما هو غير إسلامي (حتى الكنائس البروتستانتية تميّز مواقعها الدينية بالتغاير وأحياناً بالتضاد مع الكاثوليكية الرومانية).

العالم كما رآه الإبريسي  
(549 هـ / 451 م)



ثانيةً بصفته «المهدي المنتظر» في يومٍ ما من مقبَل الأيام.

أهل السُّنة، من جهةٍ أخرى، يرون أن النبي قد أعطى إشارات كافية على أنه يجبُ لخلافته أحد أصحابه، أبا بكر الصديق (حوالي 632-634)، الذي اتفق أبرز قادة الجماعة على القبول به خليفةً بُعيد وفاة الرسول. وهو بدوره اختار عمر بن الخطاب (ح 634-644)، الذي وقع اختياره، وهو على فراش الموت، وبعد التشاور مع زعماء المسلمين، على عثمان بن عفان (ح 644-656). وقد خلف عثمان علي (ح 656-661)، ومجدداً بموافقة وقبل قادة المسلمين في ذلك الحين. وفي نظر الغالبية السُّنية، يمثل هؤلاء الخلفاء الأربعة «الخلافة الراشدة».

وعلى مرّ الأيام، صارت لكل من الشيعة والسُّنة هوية اجتماعية مميزة لهم. وقد انقسمت هاتان الطائفتان وتفرعتا فروعاً شتى، وانتظمتا في حركاتٍ ونزعات مختلفة. ولئن اختلفت هذه وسواها من المجموعات فيما بينها، وكثيراً ما تصارعت حول تفاريقها، إلا أن الاتجاه العام للعلاقات التي سادت المجتمعات الحضرية ما قبل العصر الحديث أفسح في المجال لقدّر من التعايش المتبادل والحوار الفكري بينها.

إلا أنه برزت لدى الطوائف المتشددة والجماعات المتطرفة، في الآونة الأخيرة، نزعةٌ إلى لعن الخصوم في الدين وتكفيرهم، أو إلى اتهام من يحكمهم بالمروق من الإسلام. غير أن هذا المنظور الضيق الأفق يُقابل به وعي متنامٍ بين السواد الأعظم من المسلمين بتنوع وتعددية التأويلات داخل الأمة.

وجو الانسجام الهادي للعبان في بعض أنحاء العالم الإسلامي في الوقت الحاضر، ذو منشأ معقد وقد يكون عَرَضياً. شأن التطرف الطهراني الذي استغل في أوروبا القرن السابع عشر من جراء المفاعيل المشوشة للتحوّلات الاقتصادية والاجتماعية. وكما ستوضّح الخرائط والنصوص فيما يلي من صفحات، فقد جاءت الدائنة إلى العالم الإسلامي على أجنحة القوى الاستعمارية، عوضاً عن أن تكون حصيلة تحوّلات متولدة داخلياً. فـ «خير أمة» أخرجها الله للناس كي «تأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر» فقدت الهيمنة الأدبية والسياسية التي كانت لها ذات يوم في الجزء

والهوية الإسلامية، شأنها شأن الهوية اليهودية، تشمل السلف كما تشمل المعتقد. فمن يُسمون مسلمين إنما يُمارسون دينهم بطرقٍ مختلفة. فبوسع المرء أن يكون مسلماً من الوجهة الثقافية، تماماً مثلما يستطيع المرء أن يكون يهودياً بالمعنى الثقافي، من غير أن يتقيدَ بمجموعة معينة من الفرائض أو المعتقدات الدينية. وإننا لا نجاوب السؤال إذا ما وصفنا العديد من الأميركيين والأوروبيين غير المتدينين بـ«المسيحيين الثقافيين»، نظراً للأهمية التكوينية التي كانت للمسيحية في تطور الثقافة الغربية. وحقيقة أن هذه التسمية نادراً ما تُستخدم – هذا إذا ما استُخدمت أصلاً – لتكشف عن مدى الهيمنة الثقافية الغربية وطموحها إلى تبوء سدة العالمية.

إن الأساس المسيحي للثقافة الغربية هو من البداهة يمكن بحث لا يَحْتمُ أحدُ نفسه عناء إبرازه للعبان. وفي الوقت عينه، لطالما انتحلت لفظة «مسيحي» من قبل الأصوليين البروتستانت الذين يسعون جاهدين إلى تمييز أنفسهم عن الإنسويين العلمانين أو المؤمنين المتدينين على السواء، ممّن لا يشاطرونهم نظرتهم العامة إلى الأمور.

ثمة مشاكل مماثلة بصدد التعريف تسري على العالم الإسلامي كذلك. فكما أن هناك تباينات وفوارق لاهوتية ما بين الكنائس المسيحية المختلفة حول شتى المسائل الإيمانية والطقسية، كذلك تقوم داخل حظيرة الإسلام جماعات وطوائف وملا تختلف فيما بينها لجهة الطقوس المتبعة أو تقاليد كلٍّ منها في التأويل والممارسة.

ومن بين أكبر النحل في الإسلام، هناك تاريخياً طائفتان تُعدّان أهمّها على الإطلاق، هما: السُّنة والشيعة.

يعتقد الشيعة أن النبي محمد (نحو 570-632)، وقبل وفاته بوقت وجيز، اختار علي بن أبي طالب، ابن عمه وزوج ابنته فاطمة، خليفةً له. كما أنهم يؤمنون بأن هذه الخلافة تواصلت عبر سلسلة من الأئمة (أو القادة الروحيين)، المتحدّرين من صُلب علي وفاطمة، وقد اختار كلُّاً منهم الإمام الذي سبقه. والكتلة الشيعية الأكبر حجماً، وهم الشيعة «الأثنا عشرين» أو كما يُسمّون «الشيعة الإماميون»، يؤمنون بأن آخر هؤلاء الأئمة، الذي «انحجب» في العام 873، سوف يظهر

الأكثر تمدناً من العالم خارج الصين. حين كان الإسلام في طور الصعود والترقي، كذلك كان مناخ التسامح الناشئ عنه. فقد كان العلماء والفقهاء المسلمون يتساجلون ويتناظرون فيما بينهم، لكنهم كانوا يحاذرون تكفير كل من ينطق بالشهادة - بما هي الجهر العلني بالإيمان - أو من يقيمون الصلاة مبتهمين وجوههم شطر مكة. ومثلما لاحظ الباحث الأمريكي كارل إرنست، فإن «التعددية الدينية، حقيقة اجتماعية في أي مجتمع في عالمنا المعاصر. فإذا ما ادّعت جماعة لنفسها السلطة على سائر الجماعات الأخرى، مُطالبة إياها بالولاء والطاعة، فسوف يُعتبر ذلك تحايلاً للتسلط بواسطة اللغة الدينية المنمّقة» [كارل إرنست، «اتباع محمد: إعادة النظر في الإسلام في العالم المعاصر»، لندن، ص 602].

في المبدأ، وإن لم يكن دائماً في الممارسة، المسلم هو من يتّبع الإسلام، للفظلة العربية التي تعني الانقياد، أو بمعنى أدق، «التسليم» لإرادة الله كما أوحى بها للنبى محمد. وهذه الموصيات المتنوّلة شفاهاً على امتداد فترة نبوة محمد الناشطة، من حوالي العام 610 وحتى وفاته، موجودة كلها في القرآن، الكتاب الذي يُشكّل أسس الدين الإسلامي والنُظم الثقافية المتنوّعة النابعة منه. وقد تصدّى لغيّف من الباحثين من ذوي النزعة التصحيحية في الجامعات الغربية للرواية الإسلامية التقليدية عن أصل القرآن، زاعمين أن النص قد اقتطع من كتلة أكبر من المواد الشفهية بعد الفتح العربي للهلال الخصيب. غير أن الغالبية العظمى من الدارسين، مسلمين وغير مسلمين، تنظر إلى القرآن على أنه المدونة الكتابية للتنازل المتراكم على امتداد مسار الرسالة المحددة. وخلافاً للكتاب المقدس، ليس هناك ما يدل على وجود تصنيف متعدد للقرآن. وعلى النقيض من «العهد الجديد» (الإنجيل) بنوع خاص، الذي جُمع فيه أقوال السيد المسيح في أربع روايات متمايزة عن حياته وبما يفترض معها أنها قد وضعت من قبل مؤلفين مختلفين، فإن القرآن يحتوي على العديد من الإشارات الضمنية إلى حوادث وقعت في حياة الرسول، وإنما من غير أن يتناولها بالتفصيل. بل إن قصة المسيرة العملية لمحمد كنبى وكرجل دولة (إذا جاز لنا أن نستخدم هنا اصطلاحاً حديثاً لرّيع حركة وحُدّت

قبائل الجزيرة العربية)، قد بُنيت من مجموعة أخرى مختلفة من المادة الشفهية، تلك التي تُعرف بـ «الحديث»، أي المأثورات والمنقولات عن مسلكية النبي، وهي لم تدوّن في تصانيف إلا بعد وفاة الرسول. يتألف القرآن من 114 فصلاً تُعرف بالسور، وكل سورة تتألف من عدد متفاوت من الفقرات التي تُسمّى آيات (وتعني بالعربية: دلائل أو معجزات). وباستثناء السورة الأولى، سورة الفاتحة (أو الاستهلال)، المكوّنة من سبع آيات هي بمثابة ابتهاج يُطلى في مختلف الشعائر، بما فيها الصلوات اليومية، فإن سور القرآن الأخرى مرتّبة بحسب تناقصها في الطول، بحيث تأتي أقصرها في النهاية وأطولها في البداية. ومعظم المصاحف القياسية تُصنّف السور ما بين سور نزلات في مكّة (وهي تميل إلى القصير، ومن هنا موقعها القريب من نهاية الكتاب)، وسور تعود إلى الحقة التي أقام فيها محمد في المدينة التي هاجر إليها مع أتباعه الأوائل هرباً من الاضطهاد في مكّة عام 622، العام الأول من التقويم الإسلامي (الهجري). السور المكيّة، ولاسيما المبكرة منها، تحمل في طياتها رسائل حيّة عن المسؤوليّة الشخصية، وأحاديت عن النواجب والعقاب (الجَنّة وجهنم)، فيما هي تحققي من جهة أخرى ببهاء العالم الطبيعي وجماله كدليل على قدرة الخالق العظيمة وجلال شأنه. أما السور المدنية، فهي وإن كررت العديد من الموضوعات ذاتها، ألا أنها تسوق تعاليم إيجابية فيما يخص القضايا الاجتماعية والقانونية (بما فيها الأحكام الخاصة بالعلاقات الجنسية والميراث، والعقوبات الموصوفة لبعض أصناف الجرائم). وهذه السور، معطوفة على مواد مستقاة من مأثور الحديث، كانت المصدر الرئيسي لنشوء وتطور النظام القانوني المعروف بـ «الشريعة».

وقد أضاف أعلام الفكر الإسلامي على اختلاف مشاربهم مصادر أخرى من عباداتهم، وبذلك أوجدوا المنهجية اللازمة لتنظيم أحكام الشريعة وتطبيقها. بالنسبة للمؤمنين المسلمين، يُعزّل القرآن كلام الله المباشر، وقد أملاه كما هو من دون أي تحوير أو تنقيح بشري. ويصف بعض العلماء المسلمين المحدثين النبي محمد بالنال الأمين لكلام الله. ومن المعتقد أن النبي نفسه كان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وإن كان بعض الدارسين يُشكّكون في ذلك على خلفية أنه كان

وفتحوا شطراً من الأمبراطورية البيزنطية (بلاد الروم)، وكامل بلاد فارس أمام الاستيطان الإسلامي. في البدء، بقي الإسلام ديناً «عربياً» في المقام الأول. إذ عمد أمراء الحرب المسلمون إلى إيواء كتاباتهم المقاتلة القبلية في معسكرات كبيرة خارج المدن المستولى عليها، تاركين رعاياهم الجدد (من مسيحيين ويهود وزرادشتيين) يدبّرون أمورهم بأنفسهم ما داموا يدفعون الجزية (وهي نوع من الضريبة على الرأس) عوضاً عن تأدية الخدمة العسكرية. أما عملية الأسلمة، فقد حدثت بالتدريج من خلال الزواج، حيث إن أعيان الأسر من سكان البلاد المفتوحة لم تالَ جهداً في سبيل الالتحاق بالثُخْب الإسلامي. كما اتسع نطاق هذه

تاجراً نشيطاً. وناجحاً. بالنسبة لغالبية المسلمين، القرآن كما دُونَ في المصحف واستقرّ على ما هو عليه إبان حكم الخليفة الثالث، عثمان بن عفان (644-656)، «غير مخلوق»، وأزلي من أزلية الله نفسه. من هنا، فإن القرآن بنظر المؤمنين المسلمين يحتلّ المكانة التي يشغلها المسيح في نظر المسيحيين. فإله يتجلى ليس من خلال بشر ما، بل عبر اللغة الواردة في نص مقدّس. إن العقائد الدينية الأخرى، ومنها البوذية، والمسيحية، والهندوسية، واليهودية، والسُخِيّة، والزرادشتية، تضفي على نصوصها التأسيسية هالة مقدسة. وقد أخذ الحكّام المسلمون بهذا المبدأ المشترك بإدانتهم التسامح الديني حيال «أهل الكتاب».



صفحتان متقابلتان من المصحف مزخرفتان بذهب ومنسوختان بالخط البيهاري. أنجزت هذه النسخة عام 1399، العام التالي لاستيلاء تيمورلنك على دلهي. الآية من سورة التوبة، وهي تتحدث عن خلفاء النبي من البدو الذين لا يُغفر لهم تقاعسهم عن الالتحاق بإحدى غزواته.

العملية لماً وجد الرعايا المعوزون ومقطوعو الجذور سنداً لهم في دين حكامهم الجدد، أو لماً عثر المتحزرون من سحر حكامهم القدامى على ملائز روجي يلائنهم في دين يحترم تقاليدهم، في الوقت الذي يُقدّمون فيه تعاليمهم الدينية في إطار توليف جديد وخلّاق. كما كان دور المبشرين المسلمين الأوائل حاسماً هو الآخر في هذه العملية.

في طوره المبكر، شهد الإسلام توسّعاً خائفاً خارج حدود جزيرة العرب عن طريق الفتح العربي لبلاد الهلال الخصيب وما يليها من ديار في غضون قرن أو نحو ذلك بعد وفاة الرسول في العام 632. وقد تضافر الإيمان بالإسلام وبرسالة النبي السماوية - فضلاً عن الرغبة في المغنم - لتصهر القبائل العربية في آلة حربية مهولة. فهزموا الجيشين البيزنطي والساساني،

وكما يتضح من الخرائط التي يضمها هذا الأطلس، كان الحزام الأوسط من الأراضي الإسلامية الممتدة من المحيط الأطلسي إلى وادي السند وبشكل دائم تقريباً تحت رحمة الغزاة من البدو الرُحَّل وأشباه الرُحَّل. وفي الأزمنة ما قبل العصر الحديث، أي قبل أن تعمل الأسلحة النارية والسلاح الجوي وأنظمة الاتصال الحديثة على إخضاع مناطق الأطراف لسيطرة الحكومات المركزية (برعاية استعمارية طبعاً)، كانت المدن عُرضَةً للهجمات المتكررة من جانب النهابين البدو. وعبقورية النظام الإسلامي تكمن في أنه زُوِدَ القبائل المتأسلمة بمنظومات قانونية ومسلكية وتعليمية من ضمن مبادئ الإيمان، وقد تتأققت معها على مر الزمن.

في «مقدمته» لتاريخ العالم، وضع فيلسوف التاريخ العربي ابن خلدون (1332-1406) نظرية حول التجدد الدوري ونشوء الدول، حلل فيها هذه السيرة على ضوء ما جرى في شمال إفريقيا، المنطقة التي ينتمي إليها. وطبقاً لنظريته هذه، فإن المناطق الجافة أو القاحلة، التي يندر سقوط المطر فيها، تبقى الحالة الرعوية هي النمط الرئيسي للإنتاج الزراعي فيها. والرعاة، على عكس الفلاحين، ينقلمون ضمن خطوط نسب قبلية (أو في مجموعات تربطها علاقات قرابة أبوية). إنهم أحرار نسبياً من سطوة الحكومات، وكونهم يتميزون بدرجة حراكية أعلى من أهل الأمصار (الحضر)، فلا يمكن فرض الضرائب عليهم بصفة منتظمة. كما يتعدّر إخضاعهم لسيطرة السادة الإقطاعيين الذين يستولون على جزء من محاصيلهم لقاء شملهم بالحماية. أجل، في المناطق القاحلة، هم رجال القبائل من يكونون مدججين بالسلاح في العادة، وهم من يستطيعون في

غير أن اللاهوت الإسلامي (علم العقائد أو علم الكلام)، كان له بُعد ثقافي اتسم بالدينامية. ولعل هذا بالذات ما يفسّر لنا كيف تطوّر دين «العرب» إلى ديانة عالمية. فقد حمل الإسلام معه، بوصفه «دين الكتاب» النموذجي، الذي يمثّل كلمة الله مجسّدة في نصّ مكتوب، هبة واحترام التعلم والمعرفة إلى الثقافات الجاهلة. وعلى شاكلة تعريف لاروشفوكو للنفاق، نقول إن عبادة الكتاب لم تكن ولاء الرذيلة للفضيلة، بقدر ما كانت إجلال الجهل للعلم. وأياً كان إدراكنا للوحي - تنزيل من عند الله، أم حالة ذهنية متبدلة أشبه ما تكون بعمليات دماغية لنابغة بشري - فإن «معجزة» محمد جاءت على صورة لغة. ومرة بعد أخرى، راحت أقوام البدو الرُحَّل اللقطة عند أطراف الأمبراطورية الإسلامية بالاستيلاء على مراكز القوى، عاملةً بذلك على تمدن نفسها، ولتغزو من ثم حاملةً بدورها لواء النفوذ الثقافي الإسلامي. وائر فتسّخ الدولة العباسية العظمى، لم يعد الحلم بخلافة عالمية تضم مجمل أرجاء العالم الإسلامي (لا بل وسائر البشرية في الواقع) مشروعاً قابلاً للحياة. فخطوط المواصلات كانت أطول من أن يتمكن المركز من لجم طموحات الأمراء المحليين. لكن هبة المعرفة، كما كان يرمز إليها القرآن وآياته المنقوشة على جدران المساجد والمباني العامة في لوحات بدعية، ناهيك عن المصاحف المنسوخة بمنتهى الإتقان، كانت شديدة فعلاً. حتى الغزاة المغول، أصحاب الشُّعْعة السيئة لما كانوا يتصفون به من قسوة وهمجية، لم يجدوا مناصاً من التسليم بقوة الإسلام الروحية والجمالية في الأجزاء الغربية من البلاد الخاضعة لسلطانهم.

ليست الغاية من الخرائط التي يحتويها هذا الكتاب تقديم رواية جامعة وشاملة عن النماذج المتحوّلة للدولة والسلطة الدينية التي سادت إبان الاندفاع الجارف للتاريخ الإسلامي من زمن الرسول إلى يومنا الحاضر. بل غاية ما تتطلع إليه أن تنير جوانب مهمة من ذلك التاريخ عبر فتح نوافذ صغيرة على نواح بالغة الشأن من التاريخ البعيد والقريب، وبما يساعد على تبيان إرث المشاكل، وكذلك السوانح، الذي ورثه الحاضر عن الماضي. فالجغرافيا عنصر حيوي لفهم التاريخ الإسلامي وصلته بالمنطوية على إشكالية بالحدائق.

خريطة العالم رسمتها أسرة الشرفي  
الصفائسي في العام 1571/1572 م  
في مدينة صفائس بتونس.



جزئياً، إلى مفاعيل الشريعة الإسلامية: إذ بخلاف الأعراف القانونية الرومانية، لا تتضمن الشريعة أية أحكام للاعتراف بالجمعية النقابية بوصفها «شخصية» اعتبارية.

في صياغتها الكلاسيكية، تنطبق نظرية ابن خلدون أكثر ما تنطبق على البيئة في شمال إفريقيا: البيئة التي يعرفها ويفهمها أفضل من غيرها. بيد أنها تصلح مع ذلك نموذجاً تفسيرياً للتاريخ الأوسع لغرب آسيا وشمال إفريقيا منذ ظهور الإسلام إلى الزمن الحاضر. تقوم النظرية على أساس من التفاعل الجدلي بين الدين والعصبية. ومفهوم ابن خلدون هذا للعصبية، الذي يُشكّل العمود الفقري لنظرية العامة إلى التاريخ الاجتماعي والسياسي للإسلام، يُمكن تطويعه كي يتماشى والنظريات الإثنية الحديثة. سواء أخذ المرء بالنموذج «البدائي» أو «التفعايلي»، وبالوسع إيجاد المبدأ الأساس لنظرية ابن خلدون في أطروحتين له أبرزهما الفيلسوف والعالم الأنثروبولوجي إرنست غيلنر بنوع خاص، وهما: 1- «لا تقوم الرئاسة إلا بالغلبة، ولا تقوم الغلبة إلا بالعصبية»؛ 2- «وحدها القبائل التي تحكمها العصبية قادرة على تحمل شظف الحياة الصحراوية».

والقوة الغالبة للقبائل قياساً بقوة المدن هي ما وفّر الشروط التي مكّنت الحكم العسكري السلالي أو بديله، الحكم الملكي المدعوم من المؤسسة الملوكية أو العصبية المعاصرة، من أن يغدو النمط السائد في التاريخ الإسلامي قبل التدخل الاستعماري الأوروبي. وغياب الاعتراف القانوني بالجماعة النقابية في الشرع الإسلامي حال دون قيام التماسك الاصطناعي المعهود في النقابات؛ وهذا الأخير شرط مسبق لتطور الرأسمالية المدنية ولتجاوز اللحمة «الطبيعية» للقرابة. وقد دأبت التقاليد الثقافية الرفيعة للإسلام، في عهده ما قبل الاستعمار الحديث، تتفاعل مع أشكال التضامن البدائي هذه أو العصبيات العرقية، إنما لا لم تستطع الحلول محلها.

رسمياً، الأخلاق الإسلامية تمنع قيام أي شكل من أشكال التضامن المحلي خصوصاً إذا كان يُمايز ما بين المؤمنين. نظرياً، ثمة جماعة إسلامية واحدة هي

بعض الأحيان أخذ المدينة رهينة لهم طلباً لغذية أو حتى فتحها عنوة. إن نظرات ابن خلدون الناقية تُخبرنا لماذا يُجاني المرء الحقيقة عندما يتحدث عن «إقطاع» إسلامي إلا في السياق المحدود والمحدّد جداً للنظم السائدة في أحواض الأنهار الكبرى كمصر والعراق، حيث تعمل كتلة فلاحية مستقرة في زراعة الأرض. أما في المناطق القاحلة، فينتقل الرعاة بمواشيهم وقطعانهم موسمياً من مكان إلى آخر، وفقاً لرتيبات معقّدة يتخذونها مع سواهم من المتنقلين بالأرض. وحقّ الانتفاع ليس بملكية. فالممتلكات والأراضي هنا لا تحدّها حدود مشتركة مثلما أصبحت عليه الحال في المناطق الأوروبية التي تتساقط عليها الأمطار بمعدلات عالية. لقد ضرب الإقطاع، وكذلك فرعه النائب: الرأسمالية، جذوراً عميقة له في أوروبا، وخلق في نهاية المطاف الدولة البرجوازية التي سوف تبسط سيطرتها على الأرياف، وتصنع الزراعة بصيغة تجارية، وتخضع المجتمع الريفي للقيم الحضرية وبقضة المدينة. على العكس من ذلك، بقيت شعوب الأطراف في معظم أنحاء غرب آسيا وشمال إفريقيا قادرة على التملّص من ريق الدولة إلى حين مقدم السلاح الجوي. وحتى في أيامنا الحاضرة، لم يتحقّق ذلك كلياً في بعض الأماكن من أفغانستان، حيث البنى القبلية قاومت ولا تزال سلطة الحكومة المركزية. وثمة لفظ مُعبر يستخدمه أهل الحضار المغاربة للدلالة على مناطق البلاد القبلية: إنهم يسمونها «بلاد السببة» - أي أرض العجرفة والسفاهة - في مقابل «بلاد المخزن»، أي المركز المتمدن، الذي يقع ويصفه دورية فريسة لها. تبعاً لنظرية ابن خلدون، فإن تفوق القبائل رهنٌ بـ«العصبية»، تلك العجرفة التي تحيل، في العادة، على قوة الشعور بوحدّة الجماعة أو التضامن الاجتماعي. وهذه العصبية مستمّدة، في النهاية، من البيئة القاسية للأرض الصحراوية، أو الأرض اليباب، حيث لا وجود إلا لعدد طفيف من تقسيم العمل، وحيث البشر يعتمدون في بقائهم على غريّ النسب وشائج القرى. على النقيض من ذلك، تفقّر الحياة المدنية لأية عصبية أو روح تشاركية. وغياب التضامن البرجوازي، الذي تسمو بموجبه مصلحة الجماعة النقابية فوق رابطة الدم والقرى، يُمكن عزوه، ولو

تتخلّف عنها في آخر الأمر لتجد نفسها تحت الهيمنة السياسية والثقافية لشعوب كانت تعدّها - وما زال بعض أفرادها يدّونها - في مصاف الكُفّار.

كان النظام الإسلامي في الأزمنة ما قبل الحقبة الاستعمارية، والمتجذّر إلى اليوم في ذاكرة ووجدان المسلمين المعاصرين، على أكمل تهايرٍ مع البينة السياسية لعصره. فحتى استراتيجية «الجهاد في سبيل الله»، كانت تعتمد لأغراضٍ ذرائعية، نفعية أو عسكرية، فيما كان المستفيد من ذلك هو الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية. وهكذا صار الغزاة البُدو، والممالك المُستقدمون من مناطق الأطراف لصدّهم، في مقدمة رجال الإسلام، الزائدين عن حياض الإيمان والجماعة، وأبرز حُماة ثقافته ونظمته التعليمية.

والذاكرة الاجتماعية لهذا النظام ما برحت تُمارس جاذبية شديدة على مخيال العديد من الشباب المسلم في الوقت الحاضر. ويصعّ هذا القول بنوع خاص حين نذكر أن الذاكرة الأحدث عهداً عن التحديث من خلال الاستعمار يُمكن تمثيلها كقصة ملوّهاً المهانة والكبوس، وخيانة رسالة الإسلام لا شيء إلا لإلحاح الحقيقة والعدالة الشاملتين في عالم تمرّقه الفُرقة والنزاعات. إن العنف الذي ضرب أميركا في 11 أيلول/سبتمبر 2001 قد يكون متجذّراً في اليأس المستحكم بأناس يحملون رؤيةً رومانسية ومثالية عن الماضي فيما هم يتألمون أشدّ الألم تحت وطأة الإذلال اليومي في الحاضر. ولئن كان الذين خطّطوا لهذه العملية، من دون أدنى شك، أناساً متعلمين ومحتكين، وعلى دراية تامّة بأحوال المجتمعات العصرية وسير العمل فيها، إلا أنّه ليس بالأمر العرشي البتة أن يكون معظم مختطفي الطائرات الخمسة عشر من التابعة السعودية، وبعضهم من محافظة عسير بالذات؛ هذه المنطقة الجبلية الفقيرة المحاذية للحدود اليمنية الحالية، استولت عليها أسرة آل سعود في عشرينيات القرن العشرين، وهي لا تزال تحتفظ بالكثير من علاقاتها وارتباطاتها بالقبائل اليمنية. كان من شأن المذبحة العشوائية في 11 أيلول/سبتمبر أن تُروّع ابن خلدون مثل كل كرام الناس قطعاً، لكنّي أشك في أنها كانت ستُفاجئُه.

«الأمة» تخضع لمشيئة الله. أما عملياً، فكثيراً ما يُصار إلى تعديل أو تحوير هذا المثل الأعلى الإسلامي من خلال التسليم بالحاجة إلى استنفار العصبية أو النعرة القبلية «في سبيل الله». تُشدّد الممارسة الإسلامية، مُتملّكة بالمعابدات وغيرها، على قيمة الجماعة وذلك عبر إقامة الصلاة وأداء فريضة الحج بانتظام؛ ومع مرور الزمن، تولّدت عن ذلك تقوى كتابية ذات صبغة مدنيّة، وتقاليّد ثقافية رفيعة أو «كبرى». غير أن هذه عاجزة بذاتها عن أن تبني جماعة مترامسة، مستديمة وقوية بما فيه الكفاية لتتجاوز الدينامية المقلّبة، دينامية النعرة المحليّة. وسواء أكانت هذه النعرة دينويّة، قائمة على الفوارق بين القبائل والقرى أو حتى بين الحرف والمهن؛ أو طائفية، قائمة على الاختلاف ما بين شتى المذاهب الدينيّة أو الطُرق الصوفيّة التي تحكمها في أغلب الأحيان أسر بعينها؛ أو كان منشؤها الفوارق بين السُنة والشيعّة، فإن مثل هذه الانقسامات تعمل ضد وحدة الأمة.

على نسق الحركة المعدنانية في الولايات المتحدة، يُشكّل الإسلام، ولاسيما التيار السُنيّ الغالب الذي يضم حوالي 90 بالمئة من مسلمي العالم، قوة شعبية محافظة، تعارض التزمّت العقائدي أو الضوابط الكهنوتية المتشدّدة. وإذا كانت كتابية الإسلام وروحه العملية الراشدة قد أمّدتْه بلغة مشتركة عابرة للحدود الإثنية والعرقية والقومية، خالقةً بذلك أضخم «مجتمع عالمي» عرفه العالم ما قبل العصر الحديث، إلا أنّها لم تنجح قط في تأمين الدعامة الأيديولوجية الأساس لنظام اجتماعي موحد، يُمكن أن يُترجم إلى هوية قومية مشتركة. في الغرب، أوجدت مؤسسات المسيحية القروسطية، المتحالفة مع البنى القانونية الرومانية، الشروط المسبقة لنشوء الدولة القومية الحديثة. أما في «دار الإسلام»، فإن الأساس الخلقي للدولة ظلّ باستمرار عُرضةً للإضعاف والتخريف من جانب واقع العصبية القبليّة. كان يُمكن التسليم بذلك أمراً واقعاً، إنما يستحيل منحه اعترافاً شرعياً. وربما كان ذلك أحد الأسباب التي جعلت حضارة متقدمة بأشواط على منافستها المسيحية في القرنين العاشر والحادي عشر،

## المقائد والعبادات الأساسية في الإسلام

تَخْدُ أشْكَالاً عِدَّةً، كالصلاة والذكر والدعاء والابتهاال. والمسلمون في تأديتهم الصلاة يسجدون في اتجاه الكعبة، ذلك الهيكل المكعب الشكل الذي تخطيطه «كسوة» سوداء مطرّزة من الحرير الأسود، وينهض وسطاً ما يُعرف بـ«الحرم القدسي» في مكّة. وتُقام الصلاة يومياً عند الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب والعشاء، وفي المقدور الجمع بينها بحسب الظروف. كذلك بالوسع أداء الصلاة فردياً، في البيت، أو في مكان عام كالمنزلة أو حتى الشارع، وطبعاً في المساجد والجامع وسواها من الأماكن المخصّصة لذلك. ونداء الصلاة (يُسمّى الأذان)، يُطلق من المُنذِّرة التي تعلو المسجد، ويتضمن التكبُّير («الله أكبر»)، والشهادة («أشهد أن لا إله إلا الله... الخ.»)، واللازمة: «حيّ على الصلاة». في الماضي، وقبل اختراع مكبّرات الصوت الإلكترونية، كانت أصوات الأذان المرنّمة ترتبماً بديعاً تصدح من أعلى المآذن خمس مرات يومياً. وصلاة الظهر في يوم الجمعة هي الصلاة الجامعة التي تصاحبها «خطبة» يتلوها الإمام، أو من يؤمّ المصلين، أو أية شخصية دينية بارزة أخرى. وفي القرون الأولى من الإسلام، كان اسم الخليفة أو الأمير يردّ حصّاً في أثناء الخطبة. وحين كانت المناطق تنتقل ملكيتها من حاكم إلى آخر (على غرار ما كان يحدث مراراً وتكراراً)، كان المؤنّش الرسمي على انتقال الحكم: المناداة باسم الحاكم الجديد علناً في المساجد الكبرى بالبلاد. وثمة ركن آخر من الأركان الأساسية في الإسلام، ذلك هو الزكاة، أو المشاركة في الثروة (ويجب عدم الخلط هنا بين الزكاة والإحسان الطوعي أو الصدقة). في الماضي، كانت الغاية من إيتاء الزكاة تقوية الشعور الجمعي من خلال التشديد على واجب الغني بمساعدة الفقير، وكانت تُدفع للزعامة الدينية أو للحكومة. فإن كلّ اليوم، فإن كلّ إسلامية تؤتي زكاتها وفقاً لتقاليد خاصة بها.

في الغالبية العظمى من المذاهب الإسلامية، يلتزم المسلمون جميعاً قواعد أساسية محددة، تُسمى «أركان الإسلام». وأهم هذه الأركان، إشهار الإيمان «أو النطق بالعبارة التالية: «أشهد أن لا إله إلا الله؛ وأشهد أن محمداً رسول الله». وهذه الجملة التي تُقال أمام شهود، وتُسمى «الشهادة»، شرط كافٍ للدخول في الإسلام والانساب إلى «الأمة».

كذلك يشهد المسلمون بالتوحيد (وحدانية ووحداية الله). إنهم يؤمنون بأن الله كان دائما وأبداً على اتصال بال البشرية من خلال الرؤس والأنبياء، مثل إبراهيم وموسى وعيسى، وأن محمداً هو خاتم الأنبياء الذي أنزل عليه القرآن. والمسلمون مطالبون بالترام نظم سلوك مناصبي وأخلاقي في حياتهم الشخصية والاجتماعية، وهم مسؤولون عنه أمام الله.

وبالإضافة إلى التوحيد، تشمل مبادئ الإيمان التي يلتزمها المسلمون على الاعتقاد بأن الملائكة -سواها من الكائنات الخارقة للطبيعة كالجان مثلاً- إنما تعمل في تجليخ رسالات الله؛ وأن إبليس أو الشيطان، الملك الساقط، أخرج من الجنة لأنه أبى النزول عند أمر الله بالسجود لآدم؛ وأن محمداً هو «خاتم» النبيين، أي أنه الأخير في سلسلة من الرُّسل البشريين أرسلهم الله لهداية البشر وتحذيرهم. ويؤكد القرآن أن من الذين أوحى إليهم فيما سلف - وبالذات النصارى واليهود - قد حوروا في الكتب التي أنزلت عليهم. ويُنذر القرآن الناس بيوم الدين (اليومونة/ القيامة)، يوم يقف الجميع، الأحياء والأموات على حد سواء، أمام الرب النزيان ليحاسبوا على ما فعلت أيديهم؛ فمن فعل خيراً، يُثاب ويدخل جَنَّات النعيم؛ ومن أخل بواجباته، يُعاقب بأن يُصلَّى نار جهنم.

كذلك يُبيّن القرآن بالتفصيل جملة من الممارسات التي صارت مع الوقت معيارية بالنسبة للمسلمين. ومن هذه الممارسات: العبادات، التي

حتى غروب الشمس طوال شهر رمضان؛ وفيه يمتنع المؤمنون عن الطعام والشراب والتدخين وكذلك عن الجماع، وقد عدَّ أبو حامد الغزالي، المتصوِّف والفقيه المشهور في القرون الوسطى، منافع جمَّة للصيام، نذكر منها: نقاء القلب وشحذ المدارك والملازم للجوع، وإماتة الجسد والسيطرة على النفس وكبح الشهوات، فضلاً عن التضامن مع الجوعى؛ فالإنسان الشبعان «عرضة لأن ينسى الجانعين وحتى الجوع نفسه». تقليدياً، شهر رمضان مناسبة لجمع شمل أفراد العائلة والعكوف على الصلاة والتأمل الديني. لكن في العديد من الأقطار الإسلامية اليوم، ينقلب الصيام إلى مأذب عامرة عند المغرب، فتكون مناسبات يغلب عليها جو المرح والإسراف في الطعام والشراب وتدوم حتى ساعة متأخرة من الليل. رمضان هو الشهر التاسع في التقويم الهجري (القمرى)، الذي ينقص عن التقويم الشمسي بأحد عشر يوماً. لذلك، يحلّ رمضان، شأن بقية الأعياد الإسلامية، في فصول مختلفة خلال دورة كاملة من خمس وثلاثين سنة.

وهناك فريضة شعائرية جليلة الشأن في الإسلام، هي الحجّ إلى مكّة، حيث يتوجّب على المسلم المؤمن أن يحجّ في حياته مرة «واحدة» على الأقلّ إن استطاع إلى ذلك سبيلاً. تاريخياً، الحجّ كان وما زال إحدى الوسائل الرئيسية لإبقاء العالم الإسلامي بشئى أربجائه على اتصال وتواصل مادي. في

الأزمة ما قبل الحديثة، أي قبل أن تجعل وسائل النقل الجماعية من سفن ومطارات الحجّ في متناول معتدلي ومتوسطي الحال، كان الحجّ العائدين يكتسبون اللقب المشرف: «الحاجّ» / «الحاجة»، ويحظون بمكانة اجتماعية أرفع من أولئك الذين لم يحجّوا بعد داخل أوساطهم. والحجّ علاوة على إتاحتها الفرصة لتحقيق كمال الذات روحياً، يوفر في بعض الأحيان فرصة لمزاولة الأعمال من خلال تمكينه الحجّاج من مختلف أصقاع الأرض من الالتقاء والعمل معاً. كما أنه يسهّل الأمر للحركات الهادفة إلى الإصلاح الديني – السياسي. فكم من حركة سياسية نشأت عن لقاءات جرت أثناء موسم الحجّ – ابتداءً من الثورة الشيعية التي أفضت إلى قيام الخلافة الفاطمية في شمال إفريقيا (909)، وصولاً إلى حركات النهضة والإصلاح الإسلامية الحديثة. والمعلّم الدال على انتهاء شهر الصوم هو «عيد الفطر»؛ في حين يبلغ الحجّ ذروته مع «عيد الأضحى»، حيث يشارك المسلمون في تقديم الأضاحي من المواشي. وهذان العידان هما أكبر احتفالين متعارف عليهما يحبيهما المسلمون في كل مكان. وعلاوة على ما تقدم، هناك العديد من العبادات والممارسات الروحية الأخرى لدى المسلمين التي نشأت وتطورت عبر العصور، وهي مبنية على تأويلات خاصة لمزاولة الإيمان وتفاعله مع التقاليد المحلية.

## الجغرافيا الطبيعية للعالم الإسلامي

المحيط الهندي؛ وعلى منطقة جونغلي جنوبي بحر قزوين عند المنحدرات الشمالية لجبال البروز، التي تستجمع الهواء المشبّع بالرطوبة المنساب جنوباً من روسيا.

في الأزمنة القديمة، وقبل أن تصبح المياه المتحجرة الجوفية، المخزونة لملايين السنين داخل الطبقات الصخرية، متوافرة للإنسان بغضل طرق الحفر العصرية، كانت الزراعة غير مستقرة إلى حد بعيد، خصوصاً حين ظهرت الحنطة مثلاً، وغيرها من المزروعات التي يلزمها كميات هائلة من المياه، على شكل وادرات غذائية. فالحنط الذي ظلّ يغلّ الحنطة طوال آلاف السنين لن يلبث أن يعرف مواسم عجافاً حين يكون تساقط المطر بوصة واحدة بدلاً من البوصات العشرين المعتادة. وهذا ما أدركته الشعوب القديمة جيداً، فأثنت لنفسها إلهاءات الحبوب. غير أن الزراعة ازدهرت بالفعل في أودية الأنهار الكبرى، في مصر وبلاد الرافدين (العراق حالياً). فالفيضان السنوي فيهما، الناجم عن الأمطار المدارية في إفريقيا وذيون الثلوج في هضاب الأناضول وإيران، دأب يغلّ محاصيل منتظمة، وسهّل عملية نشوء الثقافات المدنية المعقدة في سومر وأشور ومصر. والحاجة إلى إدارة شبكات الري ذات المعايير بالغة الدقة في استخدام مياه دجلة والفرات والنيل الغنية بالعناصر المغذية، اقتضت استنباط أنظمة معقدة للتسجيل والضبط، الأمر الذي أتاح للكتبة المتعلمين، الجديدين بأن يكونوا كهنة، أن يحكموا جنباً إلى جنب مع القابضين على زمام القوة العسكرية. وهكذا يجوز القول إن النهر الأصفر في الصين، وادي الإندوس (السند) في الهند، والمنظومات النهرية الكبرى في الهلال الخصيب، كانت في أصل نشوء الحضارة الإنسانية. وأولى الدول، بمعنى أنظمة الحكم الموضوعة للنظام والقائمة على مبادئ قانونية عامة، إنما ظهرت في تلك المناطق تحديداً منذ ما يزيد عن خمسة آلاف سنة.

والقدر المحدود من ماء التربة اللازم للإنتاج الزراعي، كان له الوقع الحاسم على نمو المجتمعات البشرية في المناطق الجافة. صحيح أن الظروف تختلف من منطقة إلى أخرى، إلا أن ثمة مزايا معينة

لئن كان العالم الإسلامي يُغفَى حالياً حزاماً عريضاً من المناطق الممتدة من سواحل إفريقيا على المحيط الأطلسي إلى الأريخييل الإندونيسي في المحيط الهادي، إلا أن الرقعة الوسطى من غرب آسيا، حيث ظهر الإسلام، كان لها الأثر الحاسم في تطوره. وبالمقارنة مع غرب أوروبا وشمال أميركا، تتّصف تلك الرقعة بقلّة هطول الأمطار على وجه العموم. في فصل الشتاء، تسقط الأمطار والثلوج التي تحملها الرياح الغربية



مسجد أغاديس في النيجر، شُيّد أول مرّة في القرن الرابع عشر ميلادي، وهو مبني من الطين. يملكه الإنسانني يطلب تجديداً وترميمًا بصورة منتظمة، ويقوم بذلك عمال يحملون طيناً جديداً ويتسلفونه على القدد الخشبية النائنة التي تقوم مقام السقالات.

القادمة من المحيط الأطلسي ويكميات لا بأس بها على جبال الأطلس وجبل الريف، وعلى هضبة برقة وجبل لبنان، فيما تسقط بقاياها على نحو منقطع على الجبل الأخضر في عُمان، وجبال زاغروس والبروز ومرتفعات أفغانستان. غير أن الأمطار الوحيدة التي تهطل بانتظام أكيد، هي تلك المتساقطة على نجد اليمن وظفار، التي تستقبل الرياح الموسمية الهابّة من

محاصيلهم الزراعية من جانب الكهنة على شكل تقديرات وأعطيات، أو من قبل الحكام على صورة ضرائب إلزامية، كان الرعاة الرحّل في كثير من الأحيان ينحون في التملّص من قيود سلطة الدولة وضوابطها، فالتاس هنا منتظمون في عشارن أو في تشكيلات أبوية من ذوي الأرحام متحدرين من سلف ذكر مشترك، وتلقى البسالة في الحرب تشجيعاً خاصاً، لأنه حيث تندر الموارد الغذائية، ربما تضطر القبائل، أو البطون والأفخاذ القبلية، إلى التنافس فيما بينها، أو حتى إلى الإغارة على القرى المستقرّة كي تبقى على

تميز أنماط الحياة فيها عن مثيلاتها في المناطق المعتدلة شمالاً أو المناطق الاستوائية جنوباً. فحيثما تقلّ الأمطار أو يكون هطولها غير مؤكد على وجه اليقين، تشكل تربية الحيوانات – الإبل، والغنم، والماعز، والبقر، والخيول إذا كان الأمر ملاتماً – أضمن وسيلة للعيش بالنسبة لعدد لا يستهان به من البشر. إن «البدو الخالصة»، أو بدو الرمال من الكتبان المتبدّلة والمتنقّلة بفعل الرياح، والتي تغطي قرابة ثلث مساحة الجزيرة العربية وشمال إفريقيا، لا تناسب حياة البشر أو الحيوان إطلاقاً، لذلك تماشاها

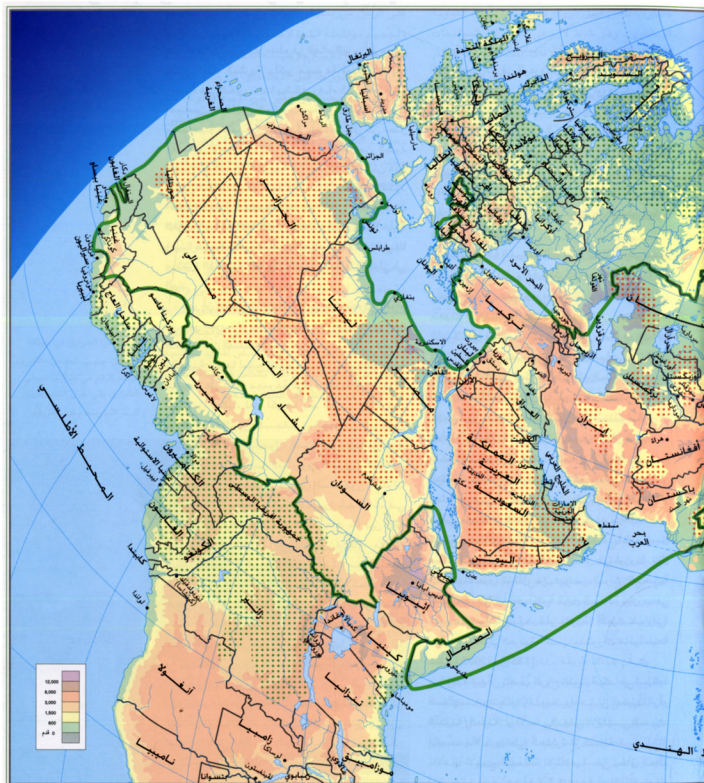
مع إرساء الإسلام دعائمه على امتداد «طريق الحرير»، أقيمت المساجد للمسافرين المسلمين والمهتدين المحليين إلى الإسلام على حد سواء، هذا المسجد في مقاطعة شينجيانغ الصينية يعكس في تصميمه مؤثرات العمارة في آسيا الوسطى.



قيد الحياة. الملكية لدى الرعاة مشاعية، وهي تتخذ بصورة تقليدية شكل قطعان من الماشية عوضاً عن أراضٍ مغلّبة للمحاصيل الزراعية. إن الممتلكات والأراضي هنا ليس لها حدود مشتركة (كما هي الحال في المناطق ذات التساقطات المطرية العالية)، لأن الأرض قد يشغلها مستخدمون مختلفون تبعاً لاختلاف فصول السنة. وغالباً ما تعتبر الموارد الحيوية، كالينابيع وآبار المياه، التي للجميع مصلحة فيها، ملكاً لله، إنما عهد بها إلى أسر محصومة تكون قيمة عليها وتعدّ نوعاً مقدساً.

الرعاة والتجار والجيوش. لكن أشكالاً معقّدة من الحياة الرعوية البدوية وشبه البدوية نشأت في المناطق شبه الصحراوية الأوسع مساحة، فكانت قطعان المواشي تساق شتاءً مسافات بعيدة إلى الأودية أو الأراضي شبه المتصحّرة لترعى هناك على الكأّ والنباتات التي يمكن أن تنبت بعد أدنى زخّة من المطر. وفي حرّ الصيف، تنتقل القطعان، حيثما أمكن ذلك، إلى المراعي في المرتفعات والهضاب، أو تتجمّع على مقربة من الأنهار ويزرع المياه. ويعكس الغلاحيين العاملين في زراعة الأرض الذين قد تُنزع منهم





## اللغات والمجموعات العرقية الإسلامية

وإلى جانب المسلمين الذين يعيشون في بلدانهم ذات الأصل العرقي المعروف، هناك في الوقت الحاضر ملايين المسلمين المقيمين في أوروبا وأمريكا الشمالية. وحيث إن اللغة الإنجليزية هي اليوم اللغة العالمية للأعمال والتجارة والثقافة والعلوم، وبالنظر إلى أن المسلمين من الجيل الثاني في أوروبا وأمريكا وكندا يتحدثون الإنجليزية (ناهيك عن الفرنسية والألمانية والهولندية وسواها من اللغات الأوروبية)، بات انتشار هذه اللغة بين المسلمين يُشكل تطوراً بارزاً في الآونة الأخيرة.

تُعد الدولة القومية الحديثة، القائمة على حدود معترف بها دولياً، ولغة مشتركة (في معظم الحالات)، ونظام قانوني عام، ومؤسسات تمثيلية (سواء أكانت مُعيّنة أم منتخبة)، ظاهرة جديدة في معظم العالم الإسلامي. فالحدود الحديثة المفروضة فرضاً في أحوال كثيرة، نتيجة ترتيبات وقفاصمات بين الدول الأوروبية، ترسم خطوطاً على الخرائط تنتهك وحدة الانتماءات اللغوية/العرقية، مما ترك شعوباً كالأكراد والبشتون، مثلاً، مُقسّمة بين دول مختلفة. قبل أن تُباهر التدخلات الاستعمارية بحبس البلدان الإسلامية داخل المنظومة العالمية للدول الأعضاء في الأمم المتحدة، كانت تلك البلدان تنزع إلى تنظيم نفسها على أساس مذهبي أو عرقي وليس على أساس إقليمي أو ترابي. فلم تكن للبلدان الإسلامية حدود مرسومة على خرائط ولم تكن الحكومات فيها تعمل بانتظام ضمن مساحة معترف بها، كما هي الحال في أوروبا. «بل كانت بالأحرى تنطلق من عدد من المراكز الحضرية بقوة تميل إلى الضعف كلما طالت المسافة وبرزت في وجهها موانع طبيعية أو بشرية» [ألبرت حوراني، «تاريخ الشعوب العربية»، لندن، منشورات فاير، طبعة منقّحة 2002، ص 138].

وبدلاً من أن تنصبّ الروح القومية، كما في إيطاليا النهضة وإنجلترا وهولندا، على المدينة، أو المدينة/الدولة، أو الأمة بالمعنى الإقليمي الحديث، انصبّت بالأحرى على العشيرة أو القبيلة ضمن إطار «الأمة» الأوسع: الجماعة الإسلامية على نطاق العام أجمع. وقد تعرّزت أشكال التضامن المحلي هذه

هناك ما يناهز مليار مسلم في العالم اليوم، أي حوالي خمس تعداد البشرية. وأكبر مجموعة فيهم ذات لغة واحدة هي العرب، بما يُشكل زهاء 15 بالمئة من المسلمين. إنما ليس كل العرب مسلمين. فهناك أقليات مسيحية عربية لا يُستهان بها في كل من مصر وفلسطين وسورية والعراق، وأعداد قليلة من اليهود الذين يتكلمون العربية في المغرب، وإن كان عدد هاتين الجاليتين قد شهد هبوطاً سريعاً في العقود الأخيرة بفعل الهجرة بالدرجة الأولى. لقد هيمنت العربية، بما هي لغة القرآن والعلم والفكر الإسلاميين، زمناً طويلاً على ثقافات العالم الإسلامي: تليها مباشرة الفارسية، لغة بلاد العجم والبلاد المغولية في الهند.

غير أن انتشار الدين الإسلامي بين شعوب وأقوام من غير العرب، قد جعل العربية لغة أقلّوية، وإن كان العديد من المسلمين من غير العرب يتلون القرآن بالعربية. وتبعاً لسمح إثنوغرافي نُشر عام 1983، ثمة ما يربو على 400 مجموعة عرقية/لغوية في صفوف المسلمين حالياً، لعلّ أكبرها بعد العرب، وبالنسبة نزولاً: البنغاليون، البنجابيون، الجاويون، الناطقون بالأردية، أتراك الأناضول، السوندايون (سكان شرق جاوه)، الفرس، الهوسا، الملاويون، الآذريون، الغولاني، الأوزبكيون، البشتون، البربر، السنديون، الأكراد، المادوريون (سكان جزيرة مادورا، شمال شرقي جاوه). ويتراوح تعداد هذه المجموعات ما بين 100 مليون نسمة تقريباً (البنغاليون)، و10 ملايين (السنديون، الأكراد، المادوريون). ومن مثبات المجموعات الصغرى التي تضمّها اللائحة، تأتي أصغرها طراً، وهي: الواتوب، الذين يعملون في الصيد وجمع الثمار في إثيوبيا، ولا يزيد عددهم عن 2,000 نسمة لكن ثلاث لغات يتكلم كلّا منها تزيد من 10 ملايين نسمة - وهي الجاوية والسوندانية والمادورية - تتعرّض حالياً للخنق من جانب الـ «بهاسا إندونيسيا»، وهي اللغة الرسمية المعتمدة اليوم في المدارس الإندونيسية. وحيث إن الإندونيسيين يشكلون أضخم بلاد في العالم ذات أغلبية إسلامية، فمن الممكن أن تتجاوز الـ «بهاسا إندونيسيا» اللغة العربية من حيث كونها اللغة الإسلامية المحكية الأوسع انتشاراً.

على الرُّحل من ممتنهي السلب والنهب أو عن ضبطهم ولجئهم بواسطة القوة العسكرية، تعرّض نوعاً ما القوة الأدبية للإسلام وهيجته الثقافية. وقد حدث مراراً، في عصور ما قبل الاستعمار، أن صار الثُّهَاب أنفسهم مدافعين مؤثوقين عن الإسلام؛ أو إذا ما استعرونا هنا جملة للعالم الأنثروبولوجي إرنست غيلنر، «صارت الذئاب كلاباً للرعيان». ومثلما روى النبي محمد قبائل الجزيرة العربية بما ضربه لها من أمثلة شخصية، فضلاً عن الإعجاز القرآني ونظام الحكم المنبثق عنه، كذلك عملت الشريعة (الإلهية) وأنظمة الفقه (البشرية) معاً على تسوية الخلافات والنزاعات التي كانت تترى بين قطاع الطرق الرعويين والزّراع وأهل الأمصار. وهذا النظام المتأصل في الذاكرة الاجتماعية لمسلمي الحاضر، كان يقوم على واجب الحاكم في إقامة العدل وذلك بالحكم وفق الشرع الإسلامي. والمهمة الجسيمة التي تواجه الدول الإسلامية المعاصرة، هي كيف تسخّر تقاليد سياسية واجتماعية يعرف الجميع أنها تشكّلت في بيئة تختلف كل الاختلاف عن الظروف السائدة حالياً.

شرطي من الطوارق في منطقة الساحل جنوبي الصحراء الكبرى، من مركزهم في تيمكتو، سيطر الطوارق على طرق التجارة بين البحر المتوسط وغرب إفريقيا.



بممارسات من قبيل الزواج اللّحمي بين أبناء العمومة المباشرين، وهو شرط لازم في العديد من المجتمعات الإسلامية. كما تدعّت الولاءات العشائرية أكثر فأكثر بالعمل الديني، مع لجوء زعماء القبائل في كثير من الأحيان إلى توسيع ثورتهم أو غزواتهم بالدعوة إلى الذود عن حياض الإسلام الحق في وجه أعدائه الكفار. إذا ما نظرنا إليها من منظور تاريخ الغرب الحديث، نجد أن أنظمة الحكم التي عرفتها المناطق الجافة أو القاحلة كانت بوجه عام غير مستقرة وباعثة للخلاف والشقاق. في أوروبا، وهي منطقة تتميز بمعدلات تساقط أمطار عالية، خرجت الدولة من رحم الصراعات الدستورية ما بين الحكّام والمحكومين، تغذّيها الصراعات بين الطبقات الاجتماعية إنما داخل سكان متجانسين يتشاطرون نفس الهويات القومية والسياسية والثقافية (وإن شابها نزاع في بعض الأحيان كما في إيرلندا مثلاً). أما في المناطق الجافة، فقد فرضت العشائر المتقلّبة، أو السلالات ذات الركائز القبلية، هيمنتها على المجموعات المروّسة، أو سعت إلى ضمان هيمنتها تلك عن طريق استقدام المماليك (وهم من العسكر المسترق من أطراف البلاد اللاتنية، ممن لا يربطهم بسكان البلاد الأصليين سوى الحد الأدنى من العلاقات الاجتماعية. فيبقى الزّراع أهل الفلاحة وكذلك أهل المدن والأمصار، عرضة لأعمال السلب والنهب من جانب البدو الرُّحل، ممّن كان يضرب بهم المثل بالصيحة: «البرابرة على الأبواب»! كانت العvisية التي تشدّ أفراد العشيرة إلى بعضهم بعضاً أقوى من أي شكل من أشكال التضامن الديني. وإذا افتقرت الطبقات المدنية المسلمة إلى روح التلاحم النقابي التي ميّزت نظيرتها في الغرب، فقد أخفقت في تحقيق الثورة البرجوازية أو الرأسمالية التي أفضت إلى قيام أنظمة الدولة الحديثة في أوروبا وأميركا الشمالية.

بيد أن هناك طريقة مغايرة لمعاينة المشهد ذاته. فعلى ضوء غلبة البداوة الرعوية على الحزام الشاسع من الأراضي التي ضرب فيها الإسلام جذوره، والممتد من سهوب كازاخستان إلى سواحل الأطلسي (وكذلك الأمر في المناطق المشابهة في شمال الهند وإلى الجنوب من الصحراء الإفريقية الكبرى)، كان عجز الدول الزراعية الضعيفة نسبياً عن فرض الضرائب





## المصور القديمة المتأخرة ما قبل الإسلام

اللاحقة الذين كانوا يتمتعون بحماية البيزنطيين، وللخميين الذين كانوا يدينون للولاء للأمبراطورية الساسانية.

والتأثير الأكبر على الحياة الثقافية التي قُبِضَ لها أن تظهر في العالم الإسلامي، جاء من الأكاديميات ومعاهد التعليم التي صانت المؤثرات الفارسية والإغريقية والهندية. ولعل الإرث الهلنستي والفارسي في حقول الطب والعلوم والفلسفة بنوع خاص، هو ما سيخلق ذلك التقليد القوي المتمثل في حُب البحث والفضول الفكري في المجتمعات الإسلامية العتيقة.

هذا وقد تأثرت ثقافات المنطقة، وإن بدرجات متفاوتة، بالطابع الكونموبوليتاني للعالم المتوسطي هذا، فحفظت بذلك تراث العصور القديمة الكلاسيكية

والتراث الهلنستي

بأشكالهما المختلفة،

العمارية والفلسفية والغنية

والمدنية والزراعية. ومن

بين أبرز الديانات التي

عرفتها المنطقة، الديانة

المسيحية في صيغتها

الأرثوذكسية التي دانت لها

الأجزاء الجنوبية من الجزيرة

العربية، فيما سيطرت

الزرادشتية على إيران وبلاد

ما بين النهرين. ولليهودية

تاريخاً مديد في الشرق

الأدنى، كما استقرت جاليات

يهودية صغيرة في اليمن

وواحات الجزيرة العربية مثل

يثرب (المدينة). وقد تعايشت القيم والأداب والتقاليد

الموروثة من كل هذه الحضارات في تلك البيئة

الشاسعة، المتعددة الديانات والمتعددة الأعراق، التي

لن يمضي قرنٌ من الزمن على وفاة النبي محمد إلا

وتكون قد بوغت بالفتوحات الإسلامية لها. وسوف

تُشكّل مع مرور الزمن جزءاً من منظومة حضارية أكبر

مقترنة بالدين الإسلامي، إنما محافظة في الوقت عينه

على تواصلٍ مع شتى تراثات العصور القديمة.

خرجت جماعة المسلمين إلى الوجود في الجزيرة العربية إبّان القرن السابع الميلادي، وكانت المنطقة التي شهدت مولدها محل سيطرة حضارات وأمبراطوريات وثقافات ومجموعات عرقية عريقة. فما زالت آثار من حضارة بلاد الرافدين حيّة إلى اليوم في واديّ دجلة والفرات؛ ولطالما شعرت المناطق المحاذية للبحر المتوسط والخليج بوقع القوى المجاورة التي كانت تزرع خطوط التجارة البحرية في تلك المياه زهاباً وإياباً. كانت بيزنطة، الدولة الرومانية الأرثوذكسية الشرقية، التي تتخذ من القسطنطينية قاعدة لها، المملكة المسيحية الأولى في المنطقة، وكانت على خصام مع الأمبراطورية الساسانية الزرادشتية الجبّارة في بلاد فارس (إيران حالياً).

نقشٌ بارزٌ على الصخر من ماغشي - رومسان، يصور أردشير الأول، مؤسس السلالة الساسانية، وهو يواجه محارباً معادياً من بارثيا.



والمدّ والجزر في النزاع بين مختلف القوى الكبرى آنذاك كان له أكبر الأثر على التجارة، وكذلك على العلاقات مع المنطقة المزدهرة الواقعة إلى الجنوب منها في الجزيرة العربية. ولا يزال تاريخ بعض الممالك العربية الغابرة محفوظاً إلى الآن في الأوابد والمحلّات الأثرية كذلك القائمة في البتراء النبطية (القرن الأول ق.م - القرن الأول م)، وتدمر (القرن الثاني - القرن الثالث)، وفي آثار الغساسنة في القرون



## رسالة محمد وغزواته الحربية

التنزيل الأخير من الله إلى البشر، جُمع القرآن في عهد ثالث الخلفاء الراشدين، الخليفة عثمان بن عفان (ح 644-656)، وهو يتألف من 114 فصلاً أو سورة، ويُقال إنها تنزلت على محمد في مسقط رأسه مكة، حيث كان يعمل في التجارة؛ كما أن هناك سوراً تعود إلى فترة إقامته في المدينة (622-632).

في مكة، تسببت إدانة القرآن للأثام والشور، مثل الكبرياء والغرور والجشع وإهمال الواجبات الاجتماعية، وكذلك تحذيراته من يوم الحساب وتهجمات على عبادة الأوثان، بنشوب نزاع حاد بين محمد وأتباعه من جهة، وزعماء قبيلته قُريش من جهة أخرى. فتعرّض أبناء عشيرته للمقاطعة، والمهددون إلى الإسلام للاضطهاد، مما حمل بعضهم على اللجوء إلى أقشوم (في الحبشة). إلا أن شهرة محمد كنبى ورسول الله الصادق الأمين، تجاوزت حدود مكة، فكان يُدعى إلى القضاء والتحكيم بين فئات القبائل المتخاصمة في يثرب، التي سُميت لاحقاً بـ «مدينة النبي»، وتُختصر عادة بـ «المدينة»، وهي واحة مأهولة تقع على مسافة 250 ميلاً إلى الشمال الشرقي من مكة. وهجرة المسلمين إليها في العام 622 تُؤرّخ لبداية العصر الإسلامي. وتحتوي آيات القرآن التي تعود زمنياً إلى حقبة المدينة، حين كان محمد بمثابة الحاكم الفعلي فيها، على شطر من المادة التشريعية، كاحكام الزواج والميراث، التي سوف تُشكّل لاحقاً ما يُعرف بالقانون أو الشرع الإسلامي.

وبعد سلسلة من الحملات والغزوات ضد المكّيين، خرج المسلمون ظافرين. وفي السنة الأخيرة من حياته، رجع محمد مظفراً إلى مكة، حيث أعلنت القبائل عن خضوعها له وامتثالها لأمره على امتداد طريق العودة. وقد قام بإصلاح شاعران الحج القديمة، فذرع عنها جوانبها اللوثنية وأعاد توجيهها نحو ما آمن بأنه التوحيد الإبراهيمي الأصلي. وبعد تنظيم بضعة حملات إضافية، عاد محمد إلى المدينة، حيث وافته هناك بعد مرضٍ قصير ألم به في العام 632.



الإسلام اسم مشتق من الفعل العربي «أسلم»، أي سَلِمَ المرء نفسه واستسلم. واسم الفاعل «مسلم»، يعني، أولاً وأساساً، تسليم الإنسان أمره لله كما تجلّى في تعاليم الرسول محمد (ن 570-632). هذا ويؤمن المسلمون بأن محمداً قد تبليغ الوحي الإلهي بحذافيره منجّماً في القرآن، هذا الكتاب الذي ينظر إليه المسلمون على أنه

يُعدّ تصوير النبي محمد في رسوم من المحرّمات. لكن جرى تداول صور المآثر البطولية لعلمه حمزة وآخرين إظهاراً لأولى المعارك الملحمية التي خاضها المسلمون. هذا الرسم من الهند (حوالي 1561-1576)، وأحد من سلسلة تصاوير كبيرة الحجم كانت تعرض على الجمهور أثناء سرد وقائع تلك القصص الملحمية.







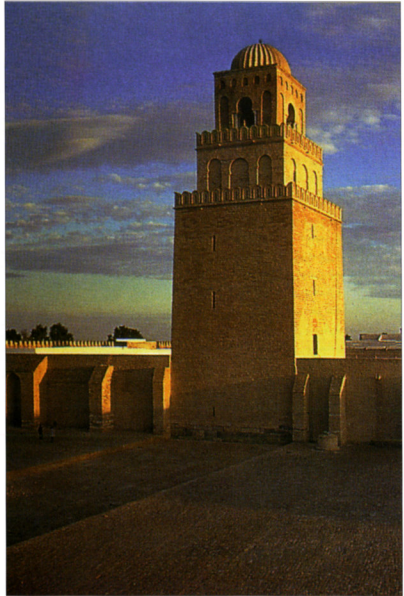
## انتشار الإسلام 751 - 1700

بموجبها لليهود والنصارى بالبقاء على دينهم إذا ما أتوا الجزية. كفل الخلفاء لجميع الشعوب من أهل الكتاب (بمن فيهم الزرادشتيون) الحق في ممارسة شعائهم الدينية شريطة أن يدفعوا الجزية، وهي كناية عن ضريبة تُسَدَّد لقاء الإعفاء من الخدمة العسكرية في البدء، بقي الإسلام ديناً للعرب، ورمزاً للوحدة وشارة للغبلة. وحين اعتنق الناس الإسلام، طُلب من المهتدين الجُدد أن يكونوا موالى (أي وكلاء) للقبائل العربية، وبما يُفترض معه احتفاظ العرب بالدور المهيمن.

بيد أن عوامل كثيرة شجعت الناس على الدخول في الإسلام بعيد الفتوحات الأولى. فبالنسبة لأولئك المسيحيين الذين أزهقهم قرون طويلة من المشاحنات اللاهوتية المتحذقة حول التوازن الدقيق بين طبيعتي المسيح الإلهية والبشرية، جاء الإسلام حاملاً إليهم رحابة صدر دين يتبوأ فيه المسيح مكانة مشرفة بوصفه بشيراً بمحمد. كذلك الأمر بالنسبة لليهود، فقد بدا الإسلام لهم كإيمان مقوم بديانة إبراهيم وموسى. وحتى الزرادشتيون الذين جرّدوا من أي دعم رسمي لديانتهم عقب الفتح العربي للأمبراطورية الساسانية، وجدوا في الإسلام ديناً مثل دينهم، يقيم وزناً لمسؤولية الفرد الأخلاقية؛ ولاحقاً في فكرة المهدي الشيعية، مفهوماً شبيهاً بعقيدة «الساوشانت» في الأخويات الزرادشتية. تتميز الأفكار المسيحية (المخلصية) بجانزية عامة، وهي منبئة في جميع التعاليم الدينية تقريباً. في أعقاب الفتوحات الإسلامية للهند، صار «الإمام المنتظر» بحسب الأخويات الشيعية يتماهي في بعض الأحيان مع التجسد المرتقب للإله فيشنو. وفي الحواضر، ساهم المهتدون إلى الإسلام من الديانات الأقدم عهداً في نزع الصيغة القبلية عن دين العرب من خلال تأكيد حقهم كمسلمين، والتشديد على عالمية رسالته، وكذلك من خلال التنويه بوظيفته كمشرعن في إرساء النظام الاجتماعي الجديد وأشكال السلطة السياسية الجديدة. ولعل البساطة التي تسم عملية اعتناق الإسلام (النطق

لقد توسّع الإسلام بالفتح والهداية معاً. وإذا قيل أحياناً إن الدين الإسلامي انتشر بحد السيف، فليس معنى ذلك أن الاثنين متطابقان. يقول القرآن ويصوره لا ليس فيها: ﴿لا إكراه في الدين﴾ [البقرة، 652]. واقتداءً بالسابقة التي أرساها الرسول، والتي سمح

بُرج الجامع الكبير في القيروان بتونس. يعود بناء هذا المسجد إلى القرن التاسع الميلادي، وقد بُني في نفس موقع مدينة قرطاجة القديمة. وتصميمه الهندسي المتميّز بثلاثة أبراج يعلو واحدتها الآخر، مقتبس من وظيفة المنائر وأبراج المراقبة في العصور الكلاسيكية.



جهراً بالشهادتين أمام شهود عدول ليس (إلا) كانت تتغير مغايرة صارخة لصالحها مع الإجراءات الشديدة التعقيد لاعتناق الديانات الغامضة. ففي إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، أمكن «أسلمة» الأرواح المحلية بسهولة عن طريق دمجها في المحشر القرآني من الملائكة والجان والشياطين. كما أمكن لعبادة الأسلاف، هي الأخرى، أن تكيف نفسها بواسطة تطعيم مجموعات القرابة المحلية بأنساب روحية، عربية أو صوفية.

لكن كان هناك أيضاً المزيد من الاعتبارات الدنيوية وراء العديد من عمليات الدخول في الإسلام. فأحكام الزواج الإسلامية ترجح الكفة لصالح دين الإسلام قطعاً، ذلك أن امرأة من أهل الذمة غير مكزمة حين تتزوج من مسلم أن تغير دينها، والعكس غير صحيح. إذ من المفترض أن ينشأ الأولاد على دين الإسلام، وفي ذلك ما يضمن أسلمة الأجيال القادمة. وقد كان لهذه الميزة الديمغرافية شأن كبير في مجتمعات جرت العادة فيها أن يتزوج المنتصرون من نساء القبائل المهزومة. ويصوره أكثر عمومية، كان هنالك ذلك الميل الطبيعي لدى أناس يتصفون بالنباهة والطموح إلى الالتحاق بصغوف النخب الحاكمة. ففي المجتمع الإسلامي المتطور في الحواضر، كمدن إيران والعراق مثلاً، صارت معرفة الشريعة والأحاديث النبوية، إلى جانب تحصيل العلوم غير الدينية كالآداب والفلك والفلسفة والطب والرياضيات، بمثابة علامة فارقة على الطبقات الشريفة (الأرستقراطية). لكن التأسلم بدافع من الطموح الاجتماعي ينبغي ألا يوصم بوصمة الانتهازية البحتة. فالعالم الإسلامي في أوج ازدهاره في العصور الكلاسيكية، كان المجتمع الأرقى تطوراً والأرفع ثقافة خارج الصين. لذلك كان أمراً طبيعياً أن تكون للحضال المدنية، من رصانة ونظام وترتيب وغيرها، جاذبيتها الخاصة بمعزل عن النشاط التبشيري الواعي. فالقائمون عند أطراف المناطق التي تشكل قلب الإسلام، سوف يطالعهم الدين الإسلامي بأشكال ومظاهر شتى: تجار متعلمون مثقفون؛ معلمون

ودارسون متجولون؛ دراويش صمدانيون؛ أمراء أروميون محاطون بهطانات تطلب الألباب؛ مثقفون ودعاة مذاهب سرية متفذكرون يعرفون كيف يكيفون عقائدهم وطقوسهم بحيث تناسب جمهوراً تتباين خلفياته الثقافية أشد التباين. وربما لافتقاره إلى برنامج تبشيري موجه توجيهاً مركزياً، أثبت الإسلام أنه أكثر ما يكون قدرة على الانتشار بصورة عضوية.

هذه النسخة من القرآن المرقونة بالخط المحقق، أنجزت في بغداد عام 1308. ويتم قياسها الكبير عن كونها نسخة موهوبة كي يستخدمها عموم المصلين في المسجد.







## السنة، والشيعية، والخوارج 660 - ن 1000

صيغة معتدلة تُعرف بـ «الإباضية». وقد ثار أحد زعماء الخوارج، ويدعى ابن ملجم، لرفاقه بأن اغتال علياً عام 661. فتوصل الحسن، أكبر أبنائه سنّاً، إلى تسوية مع معاوية المنتصر، الذي أضحي بذلك أول خليفة أموي. وعند وفاة معاوية في العام 680، ووراثته ابنه يزيد الحكم، قام الحسين، الابن الأصغر لعلي، بمحاولة لاسترجاع الخلافة وإعادة ثيابه إلى ذرية النبي الأقرين. لكن المذبحة التي أودت بحياة الحسين ونفر من أتباعه في كربلاء في العام 680 على أيدي جنود يزيد، ولدت موجة من الندم والتوبة بين أتباع علي في العراق [حركة التوابين] وصاروا هؤلاء يُعرفون منذئذ بـ «الشيعية»، أي شيعه علي.

الانقسامات الرئيسية في الإسلام، المتمحورة أساساً على مسألة الزعامة، ترجع زمنياً إلى وفاة الرسول محمد، إلا أنها اشتدت وتفاقت مع أولى الحروب الأهلية (656-661)، وتدايعياتها في الجيل التالي (680-681). كان الخليفة الأول، أبو بكر، واحداً من أقدم صحابة الرسول ووالد أصغر زوجاته سنّاً، عائشة. وقد اختير عند وفاة الرسول بدعم قوي من عمر، وكان من أوائل المهتدين إلى الإسلام ويتحلّى بكل مزايا القائد بالقطرة. وحين حضرت الوفاة أبا بكر، لقيت خلافة عمر قبولاً عاماً. وخلال فترة حكمه التي دامت عشر سنوات، أخذت الدولة الإسلامية بالتشكل. كذلك بدأت تظهر في عهده التوترات والمنازعات الناجمة عن الفتوحات، وذلك حول تقاسم الغنائم ومكانة زعماء القبائل في النظام الإسلامي الجديد. وقد بقي هذا التوتر تحت السيطرة بفضل حكم عمر الذي اتسم بالصرامة والطهرانية، إلا أنه لن يلبث أن يتفجر على نحو فاجع إبّان عهد خلفه، عثمان، الذي اغتيل في المدينة على أيدي مقاتلين ساحطين عاندين من مصر والعراق. فبالرغم مما عُرف عن عثمان من التزام شديد بالدين الجديد، وهو الذي كان من أوائل الداخلين فيه، لطالما ارتبط اسمه بعشيرة بني أمية في مكة، التي عارضت في الأصل رسالة محمد. فقد اتهم بمحاباة أبناء عشيرته على حساب مسلمين أكثر تقوى وصلاًحاً منهم. وقد تكوّن هؤلاء حول علي بن أبي طالب، ابن عم الرسول وأقرب أنسابه الذكور من الأحياء، الذي رأى بعض أتباعه أنه الشخص المختار أصلاً لخلافة الرسول، والذي تبوأ الآن سدة الخلافة فعلاً. غير أن إخفاق علي في معاقبة قتلة عثمان حمل اثنين من أقرب صحابة النبي محمد، وهما طلحة والزبير، على شق عصا الطاعة بدعم من عائشة. ولئن هزم علي هذين الرجلين، إلا أنه لم يتمكن من التغلب على نسيب عثمان، معاوية بن أبي سفيان، والي بلاد الشام، في معركة صفين. وقراره الأخير بالسعي إلى إجراء تسوية مع معاوية، أثار تمرداً في صفوف أشد أنصاره تشدداً وكفاحية، أولئك الذين عرفوا فيما بعد باسم «الخوارج». صحيح أن علياً أنزل هزيمة نكراء بالخوارج في تموز/يوليو 658، إلا أنه كتب البقاء لعدد كافٍ منهم لمواصلة الحركة إلى يومنا هذا، وإن في

لطالما أبدى أباطرة المغول وزيّتهم غناية ثابتة بتاريخ دينهم وحكمتهم، وقد تجلّى ذلك في مذكراتهم ورسومهم على السواء. بحلول منتصف القرن السابع عشر، كان الفنانون التابعون للأميراطور جهمانغير قد طوّروا تصميمات تصويرية يظهر فيها حكيماً أو وليّاً على الأقل وقد اقتعدوا بساطاً يتناقشون فيما بينهم. لم يتورع فنّانو الحقبة المغولية عن تصوير أولياء خرافيين من الماضي كما لو أنهم بعد أحياء. الشخصيات البادية في هذا الرسم تمثل الاتجاه السلفي. وجهه الدرويش حاسر الرأس إلى يسار الصورة يمثّل الخروج عن «الخط المألوف».



## الخلافة العباسية في ظل هارون الرشيد

على البيزنطيين (الروم)، أجبرتهم على البقاء في وضع دفاعي حرج. لدى توبته سُدَّ الخلافة في العام 786، أقام هارون علاقات دبلوماسية مع شارلمان (ح 742-814) ومع أمباطور الروم. كما أنشأ صلات دبلوماسية وتجارية مع الصين.

كثيراً ما يُشار إلى حكم هارون الرشيد على أنه «العصر الذهبي»: أي حقبة من النشاط الثقافي والأدبي الفائقة الأهمية، ازدهرت خلالها الفنون،

والنحو العربي، والآداب

والموسيقى بفضل رعايته

لها. هذا ويبرز الرشيد

كأجلى ما يكون البروز في

العمل الأدبي الشهير: «ألف

ليلة وليلة». ومن بين

جلسائه وسُفَّاره، نذكر

الشاعر أبا نواس (ت 815)،

الذي عُرف بخمرياته

وغزلياته، والموسيقي

إبراهيم الموصلي (ت 804).

وكان أبو الحسن الكسائي

(ت 805)، معلم الرشيد

ومؤدب أولاده، وجهاً

مرموقاً بين النُحاة العرب

ومقرئي القرآن في عهده،

وفي عهده أيضاً، نقلت بعض

النصوص الكلاسيكية من

اليونانية والسريانية

وغيرهما إلى العربية.

واشتهر هارون بهباته

السخية: فكانت قصيدة

مُحكمة النظم قيمة بأن

تُكسب صاحبها فرساً، أو

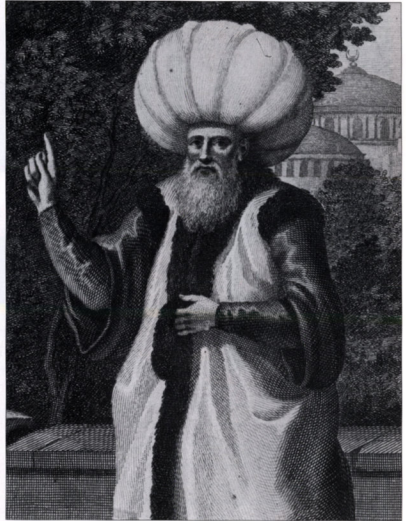
صُرة ذهبية أو حتى عزة

بها. كذلك عُرفت زوجته

زبيدة بعمل البر وصنيع

الخير، ولاسيما وقفها وراء

حفر عدد كبير من آبار



ثمة إجماع على أن فترة حكم الخليفة هارون الرشيد (ن 764-809) تُمثل ذروة الفتوحات العسكرية والتوسعات الإقليمية في ظل الدولة العباسية، حيث امتدت الخلافة من حدود الهند وآسيا الوسطى إلى مصر وشمال إفريقيا.

برز هارون الرشيد من خلال ارتقائه الصفوف كقائد عسكري قبل تسلمه مقاليد الخلافة من أخيه المغدور، الهادي (ح 785-786): كما عمل والياً على عدد من الأمصار، منها إفريقية (تونس حالياً)، ومصر، وسورية، وأرمينيا، وأذربيجان. وحمالاته العسكرية

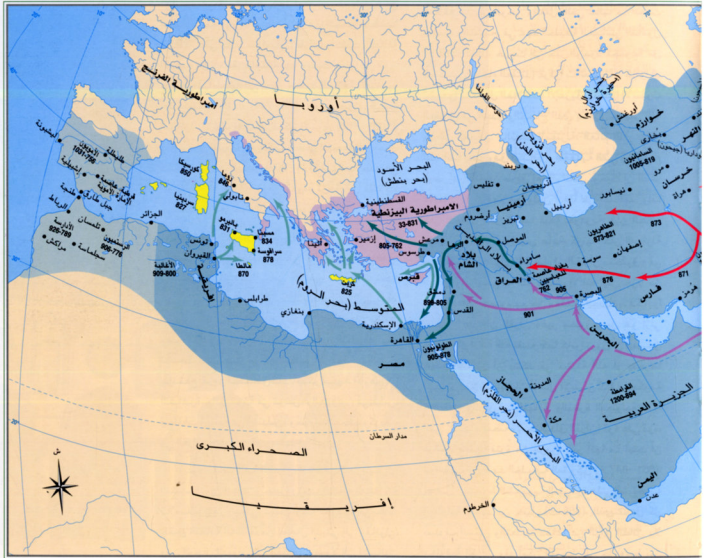
صورة تُمثلُ هارون الرشيد يغلب عليها الطابع الرومانسي للقرن التاسع عشر، ويظهر في خلفية الرسم مسجد على الطراز العثماني. كان إحياء الخلافة الإسلامية من جانب سلاطين بني عثمان خطوة بُرّاد منها تخويلهم حق رعاية المسلمين في البلدان الأوروبية، وذلك لموازنة الحقوق المُدعاة من طرف هذه الأخيرة على رعايا السلطان من المسيحيين.



الدولة العباسية	
حوالي 850	
امتداد الدولة العباسية 809-786	
سلالات إسلامية أخرى	
انتشار الإسلام 800-750	
الإمبراطورية البيزنطية	
حملات حربية عباسية	
هجمات بحرية إسلامية	
تغزّيات الصفرين	
توسّع الخلافة	

قضاؤه على آل البرمكي المتنفذين، أفضى إلى فترة سادها التدهور السياسي والإقليمي. إلا أن قرار الرشيد بتقسيم الإمبراطورية بين ولديه الأمين والمأمون واختياره أكبرهما سناً، الأمين، ليخلفه على العرش (ح 809-813)، أسهم في نشوب حرب أهلية دامت سنتين، تلتها فترات من الاضطراب المتواصل والعصيان المسلح. هذا ولئن عرف عهد المأمون (ح 813-833) تألقاً فكرياً مثيراً للإعجاب، إلا أنه شهد مع ذلك تدهوراً على صعيد الامتداد الإقليمي، فضلاً عن انحسار دائرة النفوذ العباسي.

المياه على طريق الحج من العراق إلى المدينة. كذلك شهدت حركة التصوف الإسلامي ازدهاراً كبيراً في عهد الخليفة هارون الرشيد. فكان الزاهد والمتصوف الشهير، معروف الكرخي (ت ن 815)، من بين أبرز الشارحين للصوفية في بغداد. على النقيض من ذلك، انتهج هارون الرشيد سياسة التضييق على الشيعة، الذين دأبوا يتحذون سلطانه على أرجح الظن. اتسم النصف الأخير من حكم الرشيد بالقلق وعدم الاستقرار السياسي. ففتح والي إفريقية، إبراهيم بن الأغلب، حكماً شبه ذاتي في العام 800، وكذلك



## انتشار الإسلام، والشرع الإسلامي، واللغة العربية

الأدبية نفسها. وفي حين سيطرت العربية على اللهجات المحلية في الولايات الغربية، ظلت الفارسية قيد التداول في الولايات الشرقية، وقد شهدت هذه الأخيرة نهضة أدبية كبرى في القرن العاشر الميلادي بظهور لغة جديدة هي مزيج من العربية والفارسية، ما لبثت أن سادت إيران بأسرها، فضلاً عن بلاد ما وراء النهر وشمال الهند.

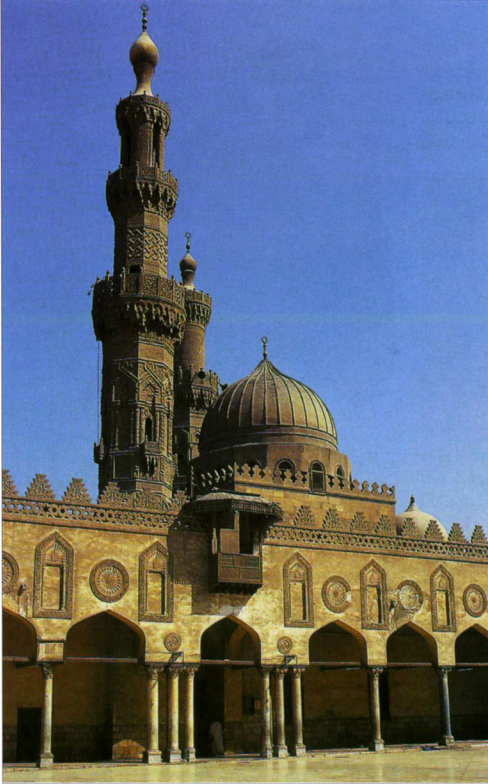
وتم موضوع ظل يطرح نفسه المرة تلو الأخرى في تلك الحقبة التكوينية من الفكر الإسلامي، وأعني به العلاقة ما بين الوحي والعقل، التي غالباً ما اتسمت بالحدة والتشنج. في عهد الخليفة العباسي المأمون (ح 813-833)، خرجت إلى حيز الوجود مجموعة من المتكلمين (علماء العقائد) عُرفوا بـ«المعتزلة». كانوا قد تشبعوا بأعمال الفلاسفة الإغريق وتبنوا الأسلوب العقلاني في الجدل والحجاج الذي يساري ما بين الله والعقل المحض. بالنسبة للمعتزلة، العالم الذي خلقه الله إنما يسير وفق المبادئ العقلية التي يستطيع البشر إدراكها عن طريق أعمال العقل. وحيث إن البشر كانتن حرة، فهم مسؤولون أدبياً عن أعمالهم. ولما كان للخير والشر كليهما قيمة جوهرية، فإن العدالة الإلهية محكمة بنواميس عامة. كونه. كان المعتزلة

من أصحاب الرأي القائل إن القرآن «مخلوق» في الزمن، وقد أوحى به الله لمحمد، لأنه لا شيء جزءاً من جوهره. أما خصومهم من «علماء الحديث»، فكانوا يصيرون على أن القرآن «غير مخلوق»، بل هو أزلي تماماً مثل أزلية الله نفسه. كما كانوا يرون أن ليس من شيمة الإنسان أن يشك في مشيئة الله أو يتحررها بصورة عقلانية، بل إن أعمال الإنسان كافة محكمة بالقضاء والقدر في النهاية. والنظرة المعتزلية هذه، التي زادت بها «الحنة» (محنة خلق القرآن) قوة على قوة، فرضت نفسها فترة من الزمن. غير أنها ما لبثت أن تراجعت في عهد الخليفة المتوكل (ح 847-861)، بفضل الضغوط الشعبية المتركة على الشخصية البطولية لأحمد بن حنبل (ت 855)، الذي تحمل كل صنوف السجن والتعذيب دفاعاً عن الرأي القائل بلا مخلوقية القرآن. وقد أمكن التوصل إلى حل وسط بين

عمل الانتشار السريع للإسلام بمثابة قوة تغييرية هائلة في العالم القديم. فما إن انتهى عهد عمر بن الخطاب (ت 644)، حتى كانت الجزيرة العربية بأكملها قد تم فتحها، ومعها معظم أراضي الأمبراطورية الساسانية، علاوة على الأقاليم السورية والمصرية من الأمبراطورية البيزنطية. وفي أعقاب موقعة كربلاء المأساوية، التي انتهت بمقتل الإمام الحسين (680)، بدأت مرحلة جديدة بقيام الأمبراطورية الأموية (661-750)، التي امتد سلطانها في نهاية الأمر من نهر إبرو في إسبانيا إلى نهر أوكسوس (جيحون) في آسيا الوسطى. وإذا بسطت على هذا النحو سلطتها الشاملة على بلاد مترامية الأطراف، اتخذت السلالة الأموية من دمشق عاصمة لها، وبقيت عملياً من دون أي تحدٍ لسلطانها إلى حين صعود الخلافة العباسية وعاصمتها بغداد (749-1258). وفي حين بسقت إسبانيا (الأندلس) تحت الحكم الأموي (756-1031)، قامت قوى إقليمية جديدة بالتصدي للهيمنة العباسية، كالفاطميين في مصر (909-1171)، والسلاجقة في إيران والعراق (1038-1194). وقد ترافق كل ذلك مع موجات من الغزاة الصليبيين ضربت الشرق.

لقد ازدهرت مدارس وتيارات عديدة في الفكر، مثل مذاهب الاجتهاد السنية (الحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي)، والمذهب الشيعي «الإثني عشري» المتحدر من إمامة علي (ت 661). كذلك طبع فوراً النشاط الفكري ظهور تياراتي المعتزلة والأشعرية في مناهج «علم الكلام»، ونضج الفلسفة والعلم والتصوف. وقد تأسست العديد من مراكز التعليم المرموقة، واقتربت بإنتاج غزير للمخطوطات، نذكر منها: الأزهر في القاهرة، والزيتونة في تونس، والقرويين في فاس، وحلقات قرطبة في الأندلس، وحوزات النجف وكربلاء في العراق، وحوزات قم ومشهد في إيران.

وبوصفها لغة القرآن، انتقلت العربية إلى المتأسلمين الجدد، وبصيرورتها اللغة المشتركة للإسلام القروسطي، تجلت أوجه تفوقها في سائر حقول الثقافة العالية، من المجال الديني إلى القانوني، ومن المجال الديواني إلى الفكري، وصولاً إلى الأساليب



الوحي والعقل في أعمال أبي الحسن الأشعري (ت 935)، الذي كان يلجأ إلى استخدام طرائق عقلية دفاعاً عن فكرة عدم خلق القرآن، ويقبل بقدر معين من مسؤولية البشر عن أفعالهم. بيد أن هزيمة المعتزلة كانت لها ذيول بعيدة المدى: فقد بطل بعد الآن أن يكون الخلفاء أصحاب الكلمة الفصل في أمور العقيدة. واعتنق التيار السائد في علم الكلام السني نظرية الأمر على صعيد الأخلاق: أي أن عملاً ما يكون صائباً لأن الله أمر به: والله لا يأمر به فقط لأنه صائب. والمعتزلية اصطلاح دال على الفساد والاعتساف في نظر الكثر من الإسلاميين المحافظين، ولاسيما في المملكة العربية السعودية، ممن يأخذون بالمذهب الحنبلي في الشرع.

صحن الجامع الأزهر في القاهرة. أسسه الفاطميون الشيعة عام 970م، لكنه صار فيما بعد أهم مركز للدراسات الفقهية السنية وبنوعاً غزيراً للمخطوطات.

## الدول الوريثة إلى العالم 1100

إدريس الثاني مدينة فاس في العام 808. وفي إفريقية (تونس حالياً)، قام أحفاد إبراهيم بن الأغلب، عامل هارون الرشيد الذي مُنح حُكماً ذاتياً على البلاد التي يتولّاها لقاء دفع أتاوة سنوية، بتأسيس سلالة حاكمة [الأغالبة] دام عهدها حتى عام 909. والخوارج



هذا التمثال من الصلصال يُبين بجلاء القسَمات الجسمانية التي لفتت أنظار المعلقين العرب والفرس بوصفها الملامح النموذجية للجنود الأتراك الذين يجنّدهم الخلفاء في جيوشهم.

لم يتسَنّ للدولة العباسية، حتى وهي في أقصى امتدادها، أن تضم العالم الإسلامي برمّته. ففي إسبانيا، تأسست سلالة حاكمة مستقلة على يد ناج من بني أمية هو عبد الرحمن الأول (ح 756-788). كان عبد الرحمن هذا حفيداً للخليفة هشام بن عبد الملك، وقد أفلت من مذبحة أودت بذويه وأقاربه، وتمكّن بعد مغامرات شتّى من أن يجد طريقه إلى شبه الجزيرة الإيبيرية. هنا أقنع العرب والبربر المتخاصمين بأن يقبلوا به زعيماً بدلاً من الوالي المعين عليهم من قبل العباسيين. وإلى ما يُعرف بالمغرب حالياً، وصل أحد المتحدّرين من نسل علي وفاطمة، ويُدعى إدريس بن عبد الله، بعد فراره من الجزيرة العربية إثر فشل ثورة شيعية في العام 786. وحلّ في العاصمة الرومانية القديمة: فلوليبيس. هنا شكّل إدريس ائتلاًفاً قبلياً سرعان ما استولى على جنوب المغرب. أنشأ ولده



على بناء طبقة من مَلَكَ الأراضي على حساب الحكومة المركزية. وفي إيران والولايات الشرقية، أقام طاهر [بن الحسين بن مصعب]، أكفأ قُود المأمون العسكريين على الإطلاق، حكماً وراثياً. وبغية التصدي لقوة الطامعين، عوّل خَلْف المأمون، الخليفة المعتصم، وبشكل متزايد على المرتزقة المجندين من القبائل الناطقة بالتوركية في آسيا الوسطى - هذه الممارسة التي عجلت بتفكك الدولة العباسية وظهور سلالات قبلية حاكمة بحكم الأمر الواقع. ولعلّ بناء عاصمة جديدة للدولة في سامراء زاد في عزلة الخليفة عن رعاياه. ولم تحل نهاية القرن العاشر إلّا وكان الخلفاء العباسيون ملوكاً بالاسم فقط، يتحدّى شرعيتهم مُطالبون بالحكم لذرية عليّ. وأشدّ هؤلاء تطرّفًا وجذريةً، وهم القرامطة، لم يألوا جهداً في إكثاء نار الثورات الفلاحية والبدوية في العراق وبلاد الشام

نفسها. ولئن كسب المأمون الحرب، إلّا أن محاولته فرض عقيدة المعتزلة القائلة بـ «خلق» القرآن، واجهت مقاومة عنيفة من جانب العلماء الشعبيين المتخلّفين حول أحمد بن حنبل. في عَرَف هذا الأخير، الذي كان يؤمن بأن النصّ الإلهي «غير مخلوق»، لا بل ويتّصف بـ «القديم»، من شأن العقيدة القائلة بعكس ذلك أن تنتقص من فكرة أن القرآن كلام الله. لذلك كان ابن حنبل وأتباعه ينظرون إلى القرآن والحديث على أنهما المصدر الوحيد للسلطة الدينية، وهم دون سواهم المؤهلون لتأويلهما. أما الخليفة، فهو في نظره مجرد منفذ لإرادة الجماعة وليس مصدرًا لإيمانها.

ومثلما ضعفت سلطة الخليفة الدينية، كذلك تراخت قبضته السياسية والاقتصادية. ففي المناطق الزراعية كالعراق، عمل نظام الإقطاع (أو الزراعة الخراجية)



ممتلكاتهم مع قبيلة الكراكلة التركية بزعماء السُلالة القرخانية، وقد بذل محمود قصاراه لحصرها في حوض نهر جيحون في الشمال، كذلك عبر محمود نهر السند حيث أرسى لنفسه حكماً دائماً في البنجاب، وراح يشن غارات على شمال غربي الهند، ناهباً المدن ومُحطماً العديد من الآثار الفنية بحجة أنها «وثنية». وهذا ما أكسبه سمعة مخيفة كغازٍ للكفار. وعلى جبهته الغربية، في أراضي «الإسلام القديم»، دحر محمود البويهيين حتى تخوم العراق تقريباً.



محمود الغزنوي [يمين الدولة] يعبر نهر الغانج. حظي الغزنويون، وكانوا ولاية عسكريين أتراكاً، بشهرة طائلة في الأزمنة المتأخرة باعتبارهم أول من أدخل سلطان المسلمين إلى الهند. الرسم مأخوذ من «جامع التواريخ» للوزير رشيد الدين، المصنف في مطلع القرن الرابع عشر ميلادي.

والجزيرة العربية باسم «مخلص». يتحدّر من نسل عليّ عبر سليلة إسماعيل بن جعفر. وفي عشرينيات القرن العاشر الميلادي، أصاب القرامطة الذين خلقوا دولة مستقلة لهم في البحرين، العالم الإسلامي كله بالصدمة والذهول عندما نهبوا مكة ونقلوا معهم «الحجر الأسود». وفي عام 969، انتزعت مصر، وكانت شبه مستقلة تحت حكم ابن طولون وخلفائه الأخشوديين، من جانب الفاطميين الإسماعيليين الذين أقاموا خلافة يتولّاها «إمام حي» من نسل علي وإسماعيل. وفي شمال سورية وأعالي نهر دجلة، حكمت أسرة بني حمدان العربية البدوية – وكانت هي الأخرى من الشيعة – دولة شبه مستقلة، وفي بعض الأحيان مستقلة بالتّمام. وفي خراسان وبلاد ما وراء النهر، حلّ السامانيون محلّ الطاهريين كمدافعين عن الثقافة العالية العربية – الفارسية في وجه القبائل البدوية المتكالبية. وحتى في قلب الأمبراطورية نفسه، أي في العراق وغرب إيران، كان الخلفاء العبّاسيون سجناء فعليين للبويهيين الشيعة، وهم عشيرة مُحاربة من الدويلم كانت تستوطن جنوبي بحر قزوين.

وفي آسيا الداخلية، حيث أسّس السامانيون عاصمة مزدهرة في بخارى، أفسد اعتناق القبائل الناطقة بالتوركية الإسلام على السامانيين دورهم كغزاة. كان هؤلاء محاربين أشداء عهد إليهم بالدفاع عن حدود الإسلام من تعديّات البدو الزُحُل. لكن تجنيد المحاربين بالاسترقاق، المعروفين بالمماليك أو الغلمان، من سكان المناطق الجبلية أو القاحلة، عجزل في تفكك أوصال الأمبراطورية.

وحينما تداعت السلطة في المركز، تنطّح المماليك إلى إنشاء «سلالاتهم الرقّية» الخاصة بهم. وهكذا شرع

الغزنويون – الذين حلّوا محلّ سادتهم السامانيين السابقين في خراسان – بالعمل جنوداً مسترقّين في منطقة غزنة الحدودية إلى الجنوب من كابول. وحين انهار حكم السامانيين عام 999، قام محمود الغزنوي (ح 998–1030)، وهو ابن والرمز الأرقاء، بتقاسم

## المصر السلجوقي

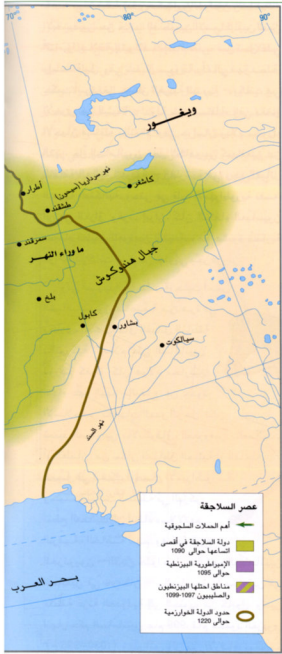
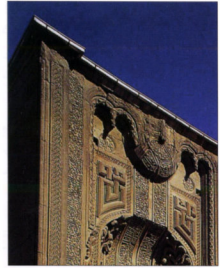
البويهيين عام 1055، آلت بغداد إليهم، حيث قام الخليفة العباسي بتتويج زعيمهم طغرلوك سلطاناً، اعترافاً منه بسلطته العليا. وفي مقابل هذا الاعتراف

بالرغم من كل التحدّيات التي واجهت سلطة الخلفاء العباسيين وفقدانهم المنعة العسكرية والسلطان السياسي الفعّال، إلا أنهم احتفظوا بهيبة كبيرة واعتبار لا يستهان به في أعين معظم أهل الأمصار والعديد من القبائل باعترابهم الورثة الشرعيين للنبي محمد ورأس جماعة المسلمين. لقد ساعد تقسيم العالم إلى «دار الإسلام» و«دار الحرب» على انتشار الإسلام وتوسّعه في اتجاهين، اتجاه طارد بعيداً عن المركز، وآخر جاذب نحو المركز: حين كانت القبائل تتقبّل الإسلام من خلال احتكاكها بالتجار والعلماء المسلمين أو بالتصوّف الجوالين، كان الخلفاء يميلون إلى إضفاء الشرعية على حكمها، فيُعَيّنون زعماءها ولاة على مناطقهم، والدخول في الإسلام عمل على تمدين الأقوام البدوية والرعيّة بإخضاعها شكلياً – وإن ليس دائماً في الممارسة – للشرعية، مما قلّص الفجوة الثقافية بين

سكّان الجوادي والسهوب من جهة، وسكّان المدن والأمصار من جهة أخرى. وكم من مرّة صارت القبائل الداخلة حديثاً في الإسلام من كبار بناء ورعاة الثقافة العالية الإسلامية، ممثلة بالفن والعمارة والأدب. لكن الدخول في الإسلام صعب، في الوقت عينه، على الحكام أن يدافعوا حتى عن قلب العالم الإسلامي في وجه غزوات وتعدّيات البدو الرّحّل، طالماً أن هؤلاء لم يعودوا بعد الآن في عداد الكفار، وبالتالي فقدّ الجهاد (أو «الحرب المقدسة») ضدهم كل أسبابه الموجبة.

وثمة مجموعتان من الشعوب الناطقة بالتوركية، وهما الأتراك الكراكلة والأتراك الغزّة (الغز)، أسستا دولتين كان لهما إسهامهما الكبير في هذه السيرة. غزى بلاد ما وراء النهر، قبلت السّلالة القرخانية بالسلطة الصورية للخلفاء العباسيين، وأضحت راعية لثقافة تركية جديدة مستمدة جزئياً من النماذج العربية والفارسية. وبعد إنزال الأتراك الغزّة، بقيادة الأسرة السلجوقية، الهزيمة بالغزنويين، بسطوا سيطرتهم على خراسان، واضعين بذلك الحجر الأساس للإمبراطورية السلجوقية. وفي أعقاب دحرهم

في أعقاب التقدّم السريع الذي أحرزه السلالة داخل بلاد الأناضول، اتخذ هؤلاء من قونيا (إيكونوم سابقاً) عاصمة لهم. هذه البوابة ذات الزخرفة البديعة لمدرسة «إينجه مينار» دليلٌ واضح على الثراء الاستثنائي للطرز السلجوقي في العمارة. والمئذنة الهيباء، التي اشتقت منها المدرسة اسمها، دُمّرت جزئياً حين ضربتها إحدى الصواعق عام 1900.



العام 1096. صحيح أن السلاجقة استولوا على نصف بلاد الأناضول، مما أسس لقيام الحكم التركي العثماني فيما بعد، إلا أن نظامهم السلطوي كان أكثر تشدداً من أن يحفظ وحدة الدولة، أو يحمي تخوم الإسلام من المزيد من غارات وانتهاكات البدو الرحّل.

الرسمي، وافق السلاطين السلاجقة على التقيد بأحكام الشرع الإسلامي والدود عن حياض الإسلام في وجه أعدائه الخارجيين. والهزيمة الفادحة التي أنزلها السلاجقة بجيش الروم في ملازكرد عام 1071، شكّلت أحد العوامل المفضية إلى أولى الحملات الصليبية في



## التجديد العسكري 900 - 1800

كانت أم قفاية أم لغوية أم تاريخية، بالشعوب التي يحكمونها، فقد رأينا المجتمع ينزع إلى التطور خارج نطاق سلطة الدولة ومسؤوليتها، ووجدنا العلماء (رجال الدين وقضاة الشرع) يندمجون بالتجار واليهودات المملوكة ليشكلوا معاً نخبة من الوجهاء والأعيان تتوقف الهيبة التي تتمتع بها على مدى تضلعها في المعارف الدينية. ولئن سمحت الظاهرة المملوكية بنشوء شكل من أشكال المجتمع المدني المنفصل عن الدولة العسكرية، إلا أنها عملت ضد بلورة نمط من الولاء المجتمعي، أو الروح الوطنية، كالذي سيبرز لاحقاً في بلدان غرب أوروبا. وكُنْتُ تجد هذه الممارسة، أي تطويع المغيرين البدو لحماية المجتمع

صار تجنيد الجيوش من مناطق الأطراف، ولاسيما من أراضي السهوب في آسيا الداخلية والقوقاز والبلقان، من أبرز العلامات الفارقة لأنظمة الحكم الإسلامية حتى العصر الحديث. كان هؤلاء المُقاتلة، المعروفون بـ«المماليك»، يُشْتَرُون كعبيد أرقاء في النجود والسهوب، أو يُؤسرون من بين أفراد القبائل المهزومة. ولما كان يُؤتى بهم خصيصاً للانخراط في جيش السلطان الخاص أو للعمل في حراسة قصوره، فقد كانوا يُلقنون مبادئ الدين الإسلامي وشيئاً من الثقافة الإسلامية، ويتلقون تدريباً على فنون القتال. إلا أن إلصاق الصفة «أرقاء» بالمماليك (مثلاً نقول: «مقاتلة أرقاء» أو «سلالات رقية»)، أمر مضلل إلى حد ما. فلئن كان المماليك والغلمان (الرقيق المنزلي) يُشْتَرُون ويباعون كمتاع شخصي، فإن مكانتهم الاجتماعية كانت تعكس مكانة أسيادهم نفسها وليس وضعهم هم العبودي. ولدى إعتاقهم من نير العبودية في نهاية المطاف، كان هؤلاء يُصحبون أحراراً، بل وكلاء لأسيادهم السابقين، يتمتعون بكامل حقوقهم في التملك والزواج والأمن الشخصي، لا بل ويرتقي بعضهم إلى مصاف الأمراء.

بدأت هذه الظاهرة، أعني ظاهرة المماليك، مع الخلفاء العباسيين الذين أخذوا يجنّدون أبناء القبائل في بلاد ما وراء النهر وأرمينيا وشمال إفريقيا، كي يوازنوا بهم قوة الطاهريين. كما عمدوا إلى موازنة تلك القبائل بدورها بواسطة الغلمان الأتراك الذين كانوا يُشْتَرُون في أسواق النخاسة فرداً فرداً، قبل أن يُصار إلى تدريبهم وتطويعهم في كتائب ذات إمرة فردية. ولما كان هؤلاء الغلمان يقيمون داخل معسكرات منفصلة، لها مساجدها وأسواقها الخاصة، فقد كان ولاؤهم لقادتهم أكثر منه للخليفة. وبعد سقوط الدولة العباسية في العام 945، تبسّى هذه السياسة حكام الأمر الواقع من ورثوا السلطة السياسية عن العباسيين. فجميع الدول التي ظهرت في الشرق غداة العصر العباسي، أي البويهية والغزنوية والقراخانية والسلاجقية، إنما نشأت على أكتاف أقليات عرقية، من بينهم مرتزقة جازوا من منطقة بحر قزوين، وقبائل تركية وبدوية أخرى أتت من آسيا الداخلية. ولما كان الأمراء العسكريون الجدد لا تربطهم أية رابطة، عرقية



يقاوموا كل محاولات امتصاصهم داخل صفوف النخب الأصلية. وظلوا في الأغلب الأعم يشكّلون شريحة أرستقراطية من جيل واحد، لا تجمعها أواصر القرى ببقية المجتمع المصري.

وقد تطوّر نظام الاسترقاق العسكري في اتجاه مختلف نوعاً ما في ظل العثمانيين. فاعتباراً من أواخر القرن الرابع عشر، بدأ السلاطين يوازنون قوة الخيالة السباهية في جيوشهم الخاصة، المجندين أساساً من إقطاعات النبلاء والأشراف أو المتطوعين كمرتزقة من عشائر البدو العربية والكردية والناطقة بالفارسية، بتشكيلات عسكرية من المشاة عُرِف أفرادها من العساكر الجدد بـ«الإنكشارية»، المجندين غالباً من الولايات العثمانية المسيحية في البلقان. فكان

من بدو آخرين - ويعني آخر: «تحويل الذئاب إلى كلاب رعيان» - قائمة في كل أرجاء العالم الإسلامي، من المغرب إلى وادي السند.

ونظام الاسترقاق العسكري هذا بلغ ذروة اكتماله في مصر، البلد الكثيف السكان من الفلاحين والمفتقر إلى أية طبقة عسكرية أصلية من صلبه. وقد تأسس هذا النظام في مصر بنجاح مطلق، حتى إن حكم المماليك دام ما يربو على قرنين ونصف القرن (1250-1517)، وعاد وظهر ثانية، وإن في شكل معدّل، في ظل العثمانيين (1517-1811). وحيث إن المماليك المصريين كانوا يسوّن النقص الحاصل في صفوفهم باستمرار من الخارج (بدايةً من الأتراك الكيبتشاك ثم لاحقاً من الشركس في القوقاز)، فقد استطاعوا أن



التجنيد، المعروف بـ«الدفشمة» (ضريبة الدم بالتركية)، يجري في القرى والداكر كل أربع سنوات مرة تقريباً. في حين كانت المدن والبلدات مغطاة من ذلك، لا اعتبارهم أبناء المدن والواضر متعلمين أكثر مما ينبغي أو غير أشداء جسدياً بما فيه الكفاية. فكان يقع الاختيار على الفتيان ممن تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والثامنة عشرة (وإن أفادت بعض التقارير عن تجنيد صببة دون الثامنة من عمرهم). ولما كان الرجال المتزوجون مستثنين من التجنيد، فقد كان الفلاحون الأرثوذكس يلجؤون في كثير من الأحيان إلى تزويج أولادهم وهم بعد صغار السنّ للتهرب من أخذهم إلى العسكرية. والفتيان الذين يتم انتقاؤهم من بين البقية (وتصل نسبتهم إلى 20 بالمئة)، كانوا يعطون هوية إسلامية ويدربون على فنون القتال، مع اختيار أبرعهم وألمعهم لخدمة السلطان شخصياً. ومن موقعهم هذا، كثيراً ما كانوا يرتقون الصفوف ليغدوا حكاماً للأمبراطورية نفسها. وإذا كان التجنيد الاسترقاقي قد توقف منذ أربعينيات القرن السابع عشر، إلا أن ظاهرة الإنكشارية لم تعرف الانحسار بفضل التحاق المزيد من الصبية المولودين مسلمين هذه المرة بصفوفهم. وبالنظر إلى ما كانوا يتمتعون به من مصالح تجارية لا يُستهان بها، وما يتقاضونه من رواتب ومعاشات تقاعدية من خزينة الدولة، فقد تحول الإنكشارية إلى نخبة ذات امتيازات، مستبذة وممانعة لكل تغيير. في عام 1826، استخدم السلطان محمود الثاني قوته العسكرية المكونة حديثاً للإجهاد على معظم هؤلاء الإنكشارية أثناء تجمّعهم للتفتيش في استنبول.

عرض لسرايا الإنكشارية بكامل بهارجهم وثيابهم الموشاة بالذهب أثناء أحد الاستقبالات في بلاط السلطان، والإنكشارية المجنّدون أصلاً من نصارى البلقان، صاروا قوة بحسب لها حساب داخل الدولة. وقد خطر السلطان محمود الثاني تشكيلات الإنكشارية هذه عام 6281 هـ كجزء من برنامجه التحديثي.





## الدولة الفاطمية 909 - 1171

تأسست الخلافة الإسماعيلية الشيعية للفاطمين في إفريقية بالمغرب، عندما قبلت عشيرة بوكاتمة البربرية إعلاء أبي عبدالله المهدي بأنه السليل الشيعي لعلي وفاطمة، وتارت على الأغالبة في العام 909. وبحلول عام 921، كان المهدي قد استقر في عاصمته الجديدة، مدينة المهديّة، الواقعة على ساحل إفريقية. وبوصفهم ورثة الأغالبة، ورث الفاطميون كذلك أسطولهم البحري وجزيرة صقلية. وفي أواخر عهد المهدي (ح 909-934)، امتدت الدولة الفاطمية من الجزائر وتونس الحاليّين إلى ساحل طرابلس في ليبيا. بنى الخليفة الفاطمي الثالث المنصور (ح 946-956) عاصمة جديدة سُميت على اسمه: «المنصورية». وظلت المنصورية الواقعة بالقرب من صبرة إلى الجنوب من القيروان، عاصمة للفاطمين من عام 948 إلى عام 973.

إلا أن الحكم الفاطمي لم يتوطد على وجه الرسوخ في شمال إفريقيا إلا إبان سلطة العضو الرابع من السلالة الحاكمة، المعز لدين الله (ح 953-975)، الذي حول الخلافة الفاطمية من مجرد قوة إقليمية محلية إلى إمبراطورية كبرى. فقد نجح في إخضاع المغرب بأسره، فيما عدا صبرة، قبل أن ينصب اهتمامه على فتح مصر، وهذا ما تحقّق له في العام 969. فأقيمت عاصمة فاطمية جديدة خارج القسطنطينية، وقد دُعيت في البدء «المنصورية»، إنما أعيدت تسميتها بـ«القاهرة المعزية»، أي مدينة المعز الظافرة، عندما تسلّم الخليفة عاصمته الجديدة في العام 973. وأضحى توسيع رقعة السلطة الفاطمية لتشمل بلاد الشام الشغل الشاغل لولد المعز وخلفه، العزيز بالله (ح 975-996). وفي نهاية عهده، تمكّنت الدولة الفاطمية من بلوغ اتساعها الأقصى، أقلّه من الوجهة الاسمية، مع الإقرار بسيادة الفاطميين من المحيط الأطلسي وغرب المتوسط غرباً، إلى البحر الأحمر والحجاز وسورية وفلسطين شرقاً. وفي عام 1038، مدّ الفاطميون نطاق سلطانهم إلى إمارة حلب شمالاً.

في عهد الخليفة المستنصر بالله المديد (ح 1036-1094)، دخلت الخلافة الفاطمية طور الانحطاط. فقد خسرت شمال بلاد الشام إلى الأبد في العام 1060. آنذاك كان الفاطميون يجابهون الخطر المتعاظم



للأتراك السلاجقة، الذين كانوا في صدد إرساء الدعائم لدولتهم الجديدة. في العام 1071، صارت دمشق عاصمة لأتابكية سورية وفلسطين الجديدة التابعة للسلاجقة. ولم ينتهِ عهد

قصعة خزفية من الفسطاط (القاهرة). تعود إلى القرن العاشر - الحادي عشر ميلادي. هذا الإناء الخزفي المطلي بطلاء لامع، مزوَّق بموتيفات فاطمية نموذجية، كالأرباب الطاهر والقصة والنباتات



المستنصر بالله إلا ولم يبق في أيدي الفاطميين من ممتلكاتهم في سورية وفلسطين سوى عسقلان وبضع مدن ساحلية من بينها عكا وصور وبحلول عام 1048، قام الزيريين، الذين استخلفهم الفاطميون في حكم إفريقية، بالانفصال عنهم وأعلنوا الخطبة للعباسيين. وفي العام 1070، حين خسروا صقلية لصالح النورماندين، صارت برقة الحد الغربي للدولة الفاطمية، التي ما لبثت أن انحصرت فعلياً داخل حدود مصر وحدها. أما عسقلان، وهي آخر موطئ قدم فاطمي في سورية وفلسطين، فقد انتزَعها منهم الفرنجة عام 1153. وانتهى حكم الفاطميين في العام 1171، يوم أعلن صلاح الدين الأيوبي، وكان آخر وزير فاطمي يُعبد بسط سيطرته على مصر، الخطبة للخليفة العباسي فيما كان الخليفة الفاطمي الأخير، العاضد لدين الله (ح 1160-1171) يُعاني سكرات الموت في قصره.



## طُرُق التجارة ن 700 - 1500

الأمبراطورية حمل معه تدهوراً اقتصادياً في بعض المناطق، مع قيام السلالات الحاكمة المتنافسة برفع ميزانياتها عن طريق فرض المزيد من الضرائب والرسوم، إلا أن الوثيرة التي شجبت بها مثل هذه الخطوات بوصفها تدابير غير مشروعة، وجائرة وغير عادلة، إنما تدل على المزاج العام، الذي ظل محابياً للنشاط التجاري حتى وإن كانت الظروف السياسية غير مواتية له.

كان من نتيجة الفتح العربي في بادئ الأمر جمع طريقين للتجارة البحرية - واحد عبر الخليج والثاني عبر البحر الأحمر - ضمن سوق واحدة قائمة على شرعة ولغة وعملة مشتركة. في العصر العباسي، كان الطريق المفضل للبضائع الآتية من شرق آسيا وجنوبها إلى المتوسط هو مجرى نهر دجلة صعوداً حتى بغداد، أو مجرى الفرات وصولاً إلى أيسر وسيلة نقل إلى حلب، ومنها إلى مرفأ سوري كإنطاكية. وكانت المدن الواقعة على امتداد هذه الطرق تعتمد في معيشتها على تبادل البضائع.

كانت مدن بلاد ما بين النهرين تمتص السلع الكمالية الآتية من الهند والصين؛ فكانت هذه تباع في الأسواق إلى جانب السلع الضرورية، مثل الحبوب والوقود والأخشاب وزيت الطهي. كما كانت بلاد ما بين النهرين المحطة الأولى على الخط التجاري الرئيسي المتجه نحو الصين والهند، وكذلك شمالاً نحو حوض الفولغا وأراضي أوروبا الشرقية المروية جيداً، منبع الفراء والكهرمان والسلع المعدنية والمديوعات الجلدية. في الفترة المبكرة، كانت السفن الإسلامية المنطلقة من موانئ كالبرصة أو هُرمز، تقطع الطريق بطوله إلى الصين، وتعود من هناك بعد سنتين أو ثلاث محملة بالبضائع كالحرير والخزف الصيني واليشب وسواها من الأشياء النفيسة. لكن مع ازدياد التجارة تعقيداً وتكلفاً، لم يعد التجار يتعاملون مباشرة مع غوانغزو (كانتون) وهانغزو في الصين، بل صاروا يقتنون البضائع الصينية من موانئ في جواه وسومطرة أو على ساحل مالبار.

أما التجار المسلمون من المغرب فكانوا ينشطون في تجارة الذهب، التي أخذتهم عبر فيافي الصحراء الكبرى إلى مدن الساحل، مثل تمبوكتو وغاو وما بعدها إلى مناجم الذهب في غرب إفريقيا. وسلسلة المراكز

يقال إن النبي محمد كان يسافر إلى خارج الجزيرة العربية طلباً للتجارة؛ وبقيلته فريش، التي قادت الفتوحات العربية، كانت من بين أوائل التجار في الجزيرة العربية. وقد ظلّ التجار موضع تقدير واحترام، وكثيراً ما كانوا يُصاهرون عائلات العلماء الذين يحظون بدعمهم على هيئة وقفيات توقف على مؤسساتهم التعليمية. إن الأعراف الإسلامية تحبذ النشاط التجاري. فالمساجد غالباً ما تكون في جوار الأسواق. ولئن كان يوم الجمعة مكرساً للصلاة الجامعة، فهو لم يتركس عطلة رسمية إلا في أزمدة متأخرة فحسب. كانت الأسواق تفتح قبل صلاة الظهر وبعدها. وحيث إن معظم السكّان الذكور متجمعون في المدينة، فقد كانت أيام الجمع ملائمة جداً لتعاطي التجارة. وكذلك الأمر بالنسبة للحج أو العُمره في مكة، حيث يأتيها المسلمون من أقاليم الدنيا ليلتقوا بعضهم بعضاً، فكانت هذه المناسبات هي الأخرى عامل تسهيل لأموال التجارة. كان الحجاج يؤمّتون نفقات رحلتهم الطويلة والشاقة (التي ربما كانت تستغرق من المراه نصف عمره في الأزمنة القديمة). عن طريق تبادل السلع فيما بينهم، أو من خلال صنع بعض المشغولات الحرفية. كما كان التجار يلتحقون بقوافل الحجيج كي يبيعوا بضائعهم في الحجاز.

إن إخضاع الفاتحين العرب مساحات شاسعة من الأراضي الساحلية لسلطة حاكمية واحدة، أتاح لهم خلق منطقة هائلة للتجارة الحرة، وسهل عليهم مدّ النشاط التجاري إلى ما وراء حدود الأمبراطورية بعيد. وقد كشفت التنقيبات الأثرية عن مدى اتساع نطاق هذه التجارة، فعثر على عدد وفير من النقود المعدنية العائدة إلى العصر العباسي في البلاد الاسكندنافية، وعلى أقمشة حريرية وأنية خزفية صينية مطبوعة في مقابر في غرب آسيا. لم يكن التجار المسلمون مجبرين على دفع المكوس أو الرسوم الجمركية داخل حدود الأمبراطورية. أما التجار الأجانب الذين يدخلون ديار الإسلام، فكانوا يخضعون للنسب نفسها من الرسوم المفروضة على التجار المسلمين في ديارهم هم. ولعلّ النخب الجديدة التي عرفتها قصور الخلفاء، وما كانت تتطلبه من سلع مترفه وكماليات، كانت وراء تشجيع التجارة ومضاعفة حجمها. صحيح أن تفكك أوصال

كانت الطرق البرية التي تربط غرب آسيا والبحر المتوسط بشرق آسيا وجنوبها لا تقل أهمية، بأي حال، عن الطُرُق البحرية. فوجود العديد من المدن مُحاطة باليابسة أو بعيدة عن الأنهار والمحيطات، تعيّن لزمام نقل البضائع، بما فيها السلع ذات الأحجام الضخمة، بواسطة الدواب. لذلك، كان الأمر يتطلب تخطيطاً دقيقاً وحذراً قبل انطلاق القوافل في رحلاتها الطويلة. كما كان من الضروري تأمين الحلف للدواب والغذاء للمسافرين، ناهيك عن استئجار أفراد من البدو لحراسة

التجارية التي أقامها التجّار المسلمون على الساحل الشرقي لإفريقيا، مثل لامو وماليندي وجزيرة زنجبار، وصلت جنوباً حتى إلى صوفالا في موزامبيق الحالية. لقد اخترق رحالون مسلمون يتصفون بجسارة فائقة الداخل الإفريقي بحثاً عن الذهب والعبيد والعاج والأخشاب النادرة والأحجار الكريمة قروناً عديدة قبل أن يقتني أثروهم الأوروبيون.

وحين جعل انحطاط الدولة العباسية وغزوات القبائل التركية الطُرُق التجارية عبر بلاد الشام أقل



لم يحلُ القرن السادس عشر إلا وكانت الأمروا طورية العثمانية، وعاصمتها القسطنطينية (إستنبول)، قد صارت واحداً من أهم المراكز التجارية في العالم الإسلامي. فكان السلطان، فضلاً عن بطانته ومستشاريه، أشد ما يكونون حرصاً على الوقوف على حالة التجارة سنة بسنة.

القوافل. وفي المناطق النائية، كانت هناك شبكة من الخانات (للاستراحة والمبيت حتى صباح اليوم التالي)، والخانقانات (مهاجع للمتصوفة) توفر الطعام وحسن الوفادة. وقد شيد بعضها على هيئة حصون لتصمد في وجه عصابات النهب البدوية. ونظراً لطول المسافات وسط تضاريس بالغة الوعورة، زد على ذلك انهيار السلطة الإقليمية، صار بناء الطُرُق أمراً غير عملي بالمرّة. حتى في أواخر أيام الرومان، كان النقل المدولب قد اختفى أو يكاد. وبالإمكان تلمس نتيجة ذلك في كثير من مدن غرب آسيا وشمال إفريقيا. فقبل العصر الحديث، لم تكن سوى قلة قليلة منها تلك جادات عريضة بما يكفي لمرور الكاركات والمركبات.

أمناً، برز إلى الوجود طريق بحري يمزج عبر البحر الأحمر ونهر النيل. كانت صعوبات جمّة تكثف هذا الطريق، حيث إن المسافة من خليج السويس إلى نهر النيل كانت أشد وعورة من المسلك المارّ عبر سورية، باستثناء فترة وجيزة أحيها فيها سلاطين المماليك ترعة قديمة كان حفرها الفراعنة أصلاً. وقد جنت موانيء البحر الأحمر، مثل عدن وجدة وعيذاب والقلمزم (السويس حالياً)، فوائد جمّة من هذه التجارة، وكذلك فعلت القاهرة والإسكندرية. وهكذا احتكر المسلمون التجارة في المحيط الهندي إلى حين مجيء البرتغاليين ومن بعدهم الإنجليز والهولنديين اعتباراً من القرن السادس عشر فصاعداً.



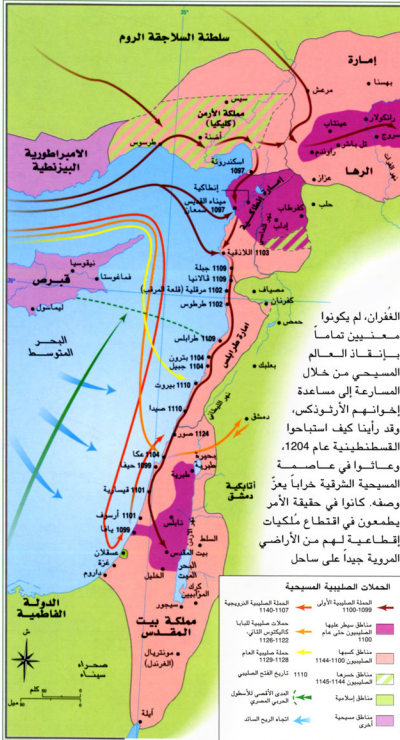


## الممالك الصليبية

جاءت الحملات الصليبية في زمن الانحلال والتراجع الإسلامي: ففي الأندلس، تقلت النجاحات المسيحية، فسقطت طليطلة عام 1085، ثم استولى النورمانديون على صقلية في العام 1091-1092. من الناحية الاقتصادية، أسفر تدهور أحوال الخلافة العباسية

وغزوات السلاجقة عن تحويل خط سير التجارة مع شرق آسيا بعيداً عن بغداد والقسطنطينية. ومن خلال مرور البضائع في الأراضي المصرية لتتلقفها من ثم السفن التجارية الإيطالية، انتعشت مدن إيطاليا أيام انتعاش. ومن جراء المضايقات التي كان يُسببها القراصنة المسلمون، أقدمت بيزا وجنوى على تدمير المهديّة، عام 1087. فيما أتاح تذبذب خط الحدود بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الفاطمية قدراً لا يُستهان به من الاستقلالية للمدن السورية والفلسطينية، وهذا ما جعل من المتعذر عليها أن تتحد معاً لصد الغزاة. لقد فتحت هزيمة الروم في معركة ملاذكرد عام 1071 مراعي الأناضول أمام هجرة أرهاط من الأتراك الغزّة لا تأنمركلها بإمارة السلاجقة. انتاب الباب أوربان الثاني الذعر إزاء الخطر الذي يهدّد العالم المسيحي من جانب الأتراك، وكذلك من جانب النورمانديين الذين دأبوا على مهاجمة الممتلكات البيزنطية في إيطاليا، فأمر بشن "حرب مقدسة" دفاعاً عن وحدة العالم المسيحي. وقد لغيت هذه الحركة حافزاً قوياً بفضل وعظ كاريزميين وشعبيين من أمثال بطرس الناسك، وكذلك بفعل الشعبية المتزايدة للحج إلى القدس كوسيلة لاكتساب الجدارة الروحية أو الفوز بالقوة والغفران على خطايا مرتكبة كالقتل مثلاً.

لكن الغرسان من الغرب اللاتيني، بما فيه ذلك إنجلترا واسكتلندنافيا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا، توافقه جيوش من الغوغاء والرعاغ، وهم في معظمهم من أهل المدن والفلاحين الذين أغرتهم الوعود ببذل





## الطُرُق الصوفية 1100 - 1900

للطُرُق الصوفية، يمتلكون للإرشاد الروحي الصادر عن مشايخ تلك الطُرُق، ويستمدون من «بركتهم» منافع جمّة. وخارج ديار الإسلام، أثبتت الطُرُق الصوفية فائدتها العملية في نشر الإيمان في مناطق طرفية، مثل أرخبيل الملايو وآسيا الوسطى وجنوبي الصحراء الكبرى الإفريقية. كان الوصول إلى الإسلام النصّي المعيارى المأثور عن العلماء والقائم على القرآن والحديث والفقه والتفسير، يتطلب معرفة باللغة العربية، وهذا ما كان يحذّ كثيراً من تأثيره وجاذبيته. في حين أن مشايخ الصوفية (ويُسمّون بالفارسية «السير») كانوا مهرة في الارتجال الروحية، فاستطاعوا إيصال تعاليم الإسلام شفاهاً بواسطة اللغات المحلية. كما أتاحت لهم الطقوس الصوفية السريّة المعروفة بمجالس «الذكر» (أو الحضرة) أن يطوروا فنوناً روحية تتماشى والممارسات المستمدة من التقاليد غير الإسلامية، كالرقص الطقسي أو التحكم بالتنفس على منوال اليوغا في الهند. أما في إفريقيا، فقد تمكّن الصوفيون والمرابطون (الذين كانوا في أول أمرهم زهاداً مسلمين) من نشر الإسلام من خلال تشبيههم الآلهة أو الأرواح المعبودة محلياً بالقوى الخارقة للطبيعة كالجان والملائكة الوارد ذكرها في القرآن. كما أمكن تكيف عبادة الأسلاف عبر إضافة بُنى قرابية محلية على أنساب عربية أو على سلاسل صوفية، في ما يشبهه غريز روحية تربط المشايخ والأولياء بالنبي محمد وصحبه. وقد وفّرت مثل هذه السلاسل، في مناطق طرفية كجبال الأطلس الأعلى، إطاراً شبه دستوري حققت من خلاله الأنفذاً والبطون القبلية حدّاً أدنى من التعاون فيما بينها، مع قيام زعماء الأسر المحاطة بهالة من القداسة بدور الوسطاء المحكّمين في حل النزاعات الناشئة بين القبائل المختلفة. وفي كل أرجاء العالم الإسلامي، صار الأولياء من المتصوّفة (وكان ثمة نساء من بينهم من وقت لآخر) موضع تبجيل شعبي يبلغ حد التقديس. لكن هذه البدعة ما لبثت أن صارت بعد حين هدفاً للمصلحين الذين اعتبروا الغلو في تبجيل الوسطاء

كانت الطُرُق الصوفية ولا تزال أهم تعبير منظّم للتعلّق بالقيم الروحية في الإسلام. إن كلمة «صوفية» (أو تصوّف) مشتقة من اللفظة العربية: صوفى، أي لابس الصوف؛ ويُعتقد أنها عائدة إلى الملابس الخشنة المصنوعة من الصوف التي كان يرتديها أوائل الزهاد المسلمين، ممّن سعوا إلى إنماء ما لديهم من طاقة روحية جوّانية. وهذا ما يُعبّر عنه في بعض الأوقات بنشدان الاتحاد مع الخالق (الخلول)، ويُميزهم عن سائر المؤمنين الذين يقنعون بالتقيّد الشكلي بالشرعية والشعائر الدينية. وثمة بعض المريدين الأوائل، وكانوا يُدعون أحياناً بالمتصوّفة «السكران»، قد صقلوا لديهم حالات ذهنية تقودهم إلى تجربة الغناء في الحضرة الربّانية، والتوق إلى الاتحاد وجدانياً مع الله، والألم المتأبّي عن الافتراق عنه، وهي الموضوعات التي يطرقها الكثير من الشعر الصوفي.

هذا وتتخذ الصوفية «السكرى» أحياناً شكل عروض مسرفة في التهور ترمي إلى ابداء الازدراء بالجسد، من غرز أسباع الحديد في اللحم إلى الإمساك بحيوانات ضارية... أما الصوفية «الصاحبة»، كما تجسّدها تعاليم أبي حامد الغزالي (ت 1111)، فتصرّ على أن السبيل إلى تحقيق الكمال الروحي إنما يقع قطعاً ضمن حدود العبادات الشرعية والطقوس الشعائرية المتعارف عليها.

وكونها حاضرة منذ بدايات الإسلام الأولى، فقد كان في مستطاع جميع الحركات الصوفية أن تدّعي أنها تعود في منشأها إلى التجربة الدينية للنبي محمد واثنين من أقرب صحابته إليه، هما: أبو بكر وعلي. غير أن التصوف المنظّم لم يستتب على أسس راسخة إلا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، محرّزاً تقدماً سريعاً في آسيا إثر الغزوات المغولية حين اختلّت الركائز المؤسّساتية للحياة الإسلامية على نحو خطير. داخلياً، عملت الطُرُق الصوفية على تمتين النظام الاجتماعي – السياسي بأن وفّرت للأمراء المصادر الشعبية للشرعية الدينية، وأكملت حيثيات السلطة الرسمية التي يطلّها العلماء. فكان العديد من الأمراء بمناقب رعاة وخمّاة

لغيف من المتصوّفة المولويين أو الدراويش، أثناء تأديتهم مقلّوسهم المبدّعة التقليديّة. الرقص، ويُدعى «الذكر» (أي ذكر الخالق) يحمل المريد على الاقتراب من الحضرة الربّانية، في ما يُشبه التوازن الدقيق بين النشوة الروحية والسيطرة المنهجية على الذات. تأسّست الطريقة الصوفية المولوية على يد الشاعر والمتصوّف الشهير: جلال الدين الرومي (1207-1273).



اكتسحت العالم الإسلامي في القرنين التاسع عشر والعشرين. فعبارة «الصوفية الجديدة» تنطبق أحياناً على حركات تجهد لإقامة توازن ما بين النشاط السياسي «البراني» والتجربة الروحية «الجوانية»، فيما يوفر البناء الهيكلي للطريقة الآلية الضرورية لنقل الأفكار ووضعها موضع التنفيذ. ولعل أشهر مثال على ذلك، حركة «نور خلق» التي أسسها سعيد نورسي (1876-1960) في تركيا. كان سعيد نورسي هذا داعية و كاتباً ذا خلفية نقشبندية، وقد سعى إلى إحياء الفكر الإسلامي عن طريق دمج العلم والإيمان واللاهوت والتصوف في صيغة جديدة من الشعار النقشبدي: «اليد تنكب على العمل، والقلب يهفو إلى الله». وعلى عكس جماعة الإخوان المسلمين في مصر، التي تأثرت هي الأخرى بالأفكار الصوفية، فإن حركة «نور خلق» تعمل على وفاق قام مع الدولة العلمانية في تركيا.

استشهدت الأفكار الصوفية والممارسات التقديرية، في العقود الأخيرة، بالهجوم من جهتين: من جانب الداتويين الذين يعتبرون الصوفية اتجاهًا رجعيًا، ومن جانب الإسلاميين الوهابيين الذين يضعون أيديهم على العديد من المؤسسات الإسلامية بفضل الدعم المالي من المملكة العربية السعودية وغيرها من البلدان الغنية بالنفط. وإذا كانت هاتان الأجنستان مختلفتين إلى حد ما، إلا أن نتائجهما واحدة في المحصلة. لقد بدأ الداتويين، المعتنقون أفكار التنوير الأوروبي، بالمطالبة بدين «عقلاني»، لكنهم انتهوا برفض الدين جملة وتفصيلاً. وفي ردّهم على الداتويين، وقع الإسلاميون أسرى الموقف ذاته: «إما كل شيء أو لا شيء».

تحتل الصوفية مكاناً وسطاً بين الحداثة والأصولية، وهذا ما يتيح للدين أن يتكيف مع الظروف الاجتماعية المتبدلة. ومن غير هذه القوة التوسيطية والتكيفية التي تتمتع بها الصوفية، من غير المرجح أن يتمكن أنصار الإسلام السياسي من النجاح في استيعاب أطراف الإسلام المنوّعة ضمن النظام الإسلامي «المستعاد» الذي يهفون إليه.

وإضفاء هالة من القداسة عليهم انتهاكاً لحريم الإسلام الوثنية.

وخلافاً للعلماء الذين يعكسون، في العادة، إجماع الرأي لدى المتعلمين، طوّرت الطرق الصوفية منظمات ذات تراتبية هرمية تتمتع بالسلطة الروحية المتركَزة في يد الرئيس الذي يكنى بأسماء شتى، مثل: الشيخ، أو المرشد، أو البير. أما المريدون أو المنتسبون إلى الطريقة، فهم مقيّدون بالبيعة أو يمين الولاء للرئيس أو المرشد الذي يترقب على رأس مراتب متسلسلة من الصفوف داخل الطريقة، وفقاً لدرجة تسامي الحالة الروحية للمرء. ومع أن الأنظمة السارية المفعول تختلف وتتفاوت إلى حد بعيد فيما بينها، مع انصاف بعض الطرق الصوفية بدرجة أكبر من الحصرية والانضباطية من بعضها الآخر، فإن الجمع بين التعلق بالرئيس وتكريس الذات للصفوف ضمن الجماعة الصوفية تتيح لأتباع الطريقة أن يجعلوا من أنفسهم قوة مقاتلة جبّارة. ففي القوقاز مثلاً، خاض الإمام شامل ثورة ضد الروس دامت من عام 1834 إلى عام 1839، وذلك تحت جناح مرشده وحيمه السيد جمال الدين الغازي الغموقي، شيخ مشايخ الطريقة الخالدية المتفرّعة عن النقشبندية. وفي شمال إفريقيا، تقدّم عبد القادر، أحد مشايخ الطريقة القادرية، الصغوف في النضال ضد الفرنسيين، وكذلك فعلت الطريقة السنوسية في المقاومة ضد المحتلّين الإيطاليين (في ليبيا). لكن في مناطق أخرى، سارت بعض الطرق الصوفية في ركاب قوى الاستعمار. ففي مراكش مثلاً، وما بين أواخر القرن التاسع عشر وبدايات العشرين، قبلت الطريقة التيجانية الواسعة النفوذ إعانات مالية طائلة من الفرنسيين الذين سخروا تلك الطريقة لتعزيز مصالحهم الاستعمارية. وفي السنغال، انضرفت الطريقة المريدية التي أسسها أمادو بابا (ن 1850-1927) عن المقاومة لتتبع عوضاً عنها ضرباً من أخلاق العمل قائماً على زراعة الفول السوداني، مما أعاد الاستقرار إلى البلاد في ظل نظام حاضخ للسيطرة الفرنسية.

وفي حالات كثيرة، أمنت الطرق الصوفية القيادة اللازمة للحركات الإصلاحية والنهضوية التي

### الطرق الصوفية 1145-1389

- مقام ولي مؤسس لواحدة من أدم الطرق الصوفية
- تقاليد صوفية مصرية وإفريقية شامية منشئة من تقاليد عراقية
- تقاليد صوفية إيرانية وأسيوية من وسط القارة مستمدة من البليد والبساطامي
- تقاليد صوفية عراقية مستمدة من البليد

الطريقة الرئيسية في تطور مؤسسة الصوفية ويعود أصل جميع الطرق اللاحقة إلى إحدى هذه الطرق الرئيسية. وقد سادت في مكان نشأتها الأولى، ولم لها انتشار بعد عام 1900 خارج هذه المناطق ما عدا الطريقة الدروانية والقادرية والكنسية

الواقعية طرق صوفية أخرى ذات أهمية في العام 1900، مشار إلى موقعها حيث تكون هي أبرز

الطريقة	الولي المؤسس	موقع التأسيس
السهوردية	شهاب الدين أبو حنبل عمر (1145-1234)	بغداد
الرفاعية	أحمد بن علي الرفاعي (1106-1182)	أم عبيدة
القادرية	عبدالقادر الجيلاني (1077-1106)	بغداد
الشاذلية	أبو مدين شبيب (1126-1197)	تلمسان
الدروية	أبو الحسن علي الشاذلي (1196-1258)	عنفا
الكبرائية	مريد العمري أبي مدين، وعلى اسمه سميت هذه الطريقة للصفوية	خربة
الهاوسية	أحمد الدين (1199-1276)	تركستان
الاولادية	نجم الدين الكرمي (1145-1221)	قونية
النقشبندية	أحمد بن إبراهيم بن علي الهاسي (1166-1207)	بغداد
الششتية	جلال الدين الرومي (1207-1273)	أجيجر
	محمد بهاء الدين النقشبندي (1318-1389)	
	ويعتبر عبد الخالق الجويدواني المنظم الأول للطريقة النقشبندية	
	معين الدين حسن الششتي (1142-1236)	



## الأيوبيون والمماليك

مصر بسماعه للعلماء والدارسين من مختلف المذاهب الفقهية بالعمل سوية. مع ترك التعلق الشعبي بالبابليين (آل علي بن أبي طالب) يأخذ مجراه في مسجد الحسين، حيث يُعتقد أن رأس السبط الشهيد قد دُفِن هناك. ومن مصر، انطلق صلاح الدين لإخضاع بلاد الشام وأغالي بلاد الرافدين، فأعاد بذلك الحياة للدولة الموحدة في الشرق للمرة الأولى منذ العصر العباسي الأول. وفي عام 1187، توج صلاح الدين إنجازاته بانتزاع مدينة القدس من أيدي الفرنجة.

غير أن سلالة صلاح الدين، السلالة الأيوبية، لم يُكتب لها البقاء. ففي عام 1250، قُتل آخر سلطان أيوبي على أيدي جنده من المماليك الأتراك، الذين نادوا بقائدهم هم سلطاناً عليهم، مفتتحين بذلك حقبة جديدة من الحكم المملوكي دامت أكثر من قرنين ونصف القرن. بعدها بعشر سنوات، أنزل القائد المملوكي اللاحق، بيبرس، الهزيمة بالغزاة المغول في موقعة عين جالوت في فلسطين. وبحلول عام 1291، كان خلفاؤه قد وحدوا بلاد الشام، وطردوا الصليبيين، ووسعوا حدود دولتهم إلى وادي الفرات الأعلى وأرمينيا. احتفظ المماليك بأسماؤهم التركية وبحقهم الحصري في ركوب الخيل واتخاذ ممالك آخرين عبيداً لهم. لكنهم كانوا على وجه العموم، لا يتزوجون إلا بمن يجلبون من نساء مسترقعات. لأنهم إذا ما اقترنوا بنساء محليات أو تسموا بأسماء عربية - إسلامية، فقد يفقدون اعتبارهم واحترام أبناء جلدتهم لهم. وحين بدأ إمداد العبيد من الأتراك الكيبتشاك (وكانوا يُعرفون بالمماليك البحرية) بالنضوب، حل محل المماليك الكيبتشاك الشركس (الذين عُرفوا بالمماليك البرجية). هذا ولتسبب حاول معظم السلاطين المماليك إقامة سلالات حاكمة لهم، إلا أن مساعيهم نادراً ما كان يُكتب لها النجاح، نظراً إلى أن القاصرين منهم أو الضعفاء كانوا يُعزلون على الدوام من قبل منافسين أقوى شكيمة منهم. مهما يكن من أمر، فقد أبدى المماليك إخلاصهم للإسلام بأن رعوا العلم والطرق الصوفية، وكذلك من خلال تلك الصروح المعمارية المهيبة، من مساجد ومدارس وخانات، التي أغدقوها على القاهرة بطرازها الهندسي المميز والمنطق الذي يحمل اسمهم.

أما وقد فرضت نفسها على ذلك الشطر المتشرذم من العالم الإسلامي، لم تغفل الممالك الصليبية سوى أنها خلقت استجابة متضامنة ضدها. وباليوسع تتبع آثار هذا النهوض إلى استيلاء أتابك (والي) الموصل السلجوقي، عماد الدين زنكي، على مدينة حلب في العام 1128. وإبنه نور الدين زنكي، الذي حكم دمشق في الفترة 1154-1174، ومُدد دعائم سلطته في الشام وبلاد ما بين النهرين، ويعت بقائد كردي لديه، يُدعى صلاح الدين الأيوبي، إلى مصر في العام 1169 كي يقبض على زمام الأمور هناك. وبالفعل، تولّى صلاح الدين السلطة رمزياً في مصر عندما عزل آخر خلفاء الفاطميين بعد ذلك بستين. وقد وسّع صلاح الدين وذريته، الأيوبيون، من جاذبية المذهب السني في

يظهر صلاح الدين الأيوبي، في هذا الرسم لغوستاف دوريه (1884)، بوصفه النموذج الأصل للبطل السراييني (الشرقي). كان صلاح الدين موضع إعجاب المسلمين وكذلك أعدائه الصليبيين سواء بسواء، نظراً لما كان يتحلى به من حسن رفيع بالشرف والإنسانية، وقد طارت شهرته في الغرب بفضل الرواج الواسع الذي حظيت به رواية وولتر سكوت: «المسلم» (1825).





## الغزو المغولي

جنكيزخان في إحدى المناسبات الرسمية وقد أحاط به أفراد حاشيته. لكن بصرف النظر عما بلغه بلاطه من ترف وفخامة، كما هو ظاهر من هذه الخيمة المغولية (البورت) ذات الزركشات والتزيينات السخية، فقد بقي هذا الحان الأعظم بدوياً حتى نهاية حياته.



خلاقاً للبوداي في الجزيرة العربية، تتصف أراضي السهوب في آسيا الداخلية بقدر كافٍ نسبياً من حاجتها إلى المياه، ويمسحات واسعة من المراعي لرعي الخيول. والبدو الخيالة ممن سكنوا تلك المناطق، كانوا منظّمين اجتماعياً وفق خطوط مماثلة للعرب في تشكيلات قبلية ذات طابع أبوي. وعلى شاكلة البدو العرب والأتراك أيضاً، تمكّن هؤلاء من إنشاء كتلّات ضخمة بما يكفي لشنّ غارات ناجحة على المدن والمناطق الزراعية، فأسسوا إمبراطوريات لها وزنها بقيادة زعماء مربّعين، لعل أشهرهم أتيل، الذي عاث وجحافل من قبائل الهون نهباً وخراباً في وسط أوروبا إبان القرن الخامس. أدرك أباطرة الصين ما تمثّله هذه التشكيلات الضخمة من الغزاة المحمولين على صهوات الجياد من أخطار ومخاطر، واستخدموا قواتهم لكسر شوكة هؤلاء في كل مرة وجدوا أنهم أقوياء بما فيه الكفاية للقيام بذلك. وقد شُيّد «الصور العظيم» بمثابة حاجز دفاعي لصدهم واتقاء شرهم.

في مطلع القرن الثالث عشر، ظهر تشكيل جديد بين المغول في منطقة نائية محاذية للغابات السيبيرية بزعامة جنكيزخان (ن 1162-1227). تسلّم جنكيزخان، الذي عرّف بدعائه الشديد وقسوته اللامتناهية، قيادة تجمع عريض من القبائل اعتباراً من عام 1206. وحين وافقه المنية، كان قد سيطر على معظم أراضي شمال الصين، وبلغت جيوشه سواحل بحر قزوين. تقاسم أبنائه أجزاء إمبراطوريته، لكنها استمرت في التمدّد والتوسّع، متغلبة على ما تبقى من شمال الصين، ومكتسحة شرق أوروبا حتى تخوم ألمانيا. لكن وعلى غرار سائر التشكيلات البدوية، لم تكن هناك قواعد واضحة للوراثة. وعليه، فقد اختلف ورثة جنكيزخان وتنازعوا على «تركتهم»، فأقاموا عدة دويلات مستقلة وأحياناً كثيرة متعادية، نذكر منها: منغوليا الحالية، وشمال الصين، ومملكة «القبيلة الذهبية» (المركزة في حوض الغولغا).

وخانات جغتاي في منطقة أموداريا (جيجون)، والسلالة الإيلخانية التي غزت إيران وقضت على سلطان السلاجقة في بلاد الأناضول.

لم يكن المغول مجرد قبائل بدوية تتصف بالعنف ولا تعرف قلوبها الشفقة، بل إن نظام الاتصالات عندهم، وأطّلاعهم على أحدث الأساليب والتقنيات الحربية، كانا على درجة وافية من

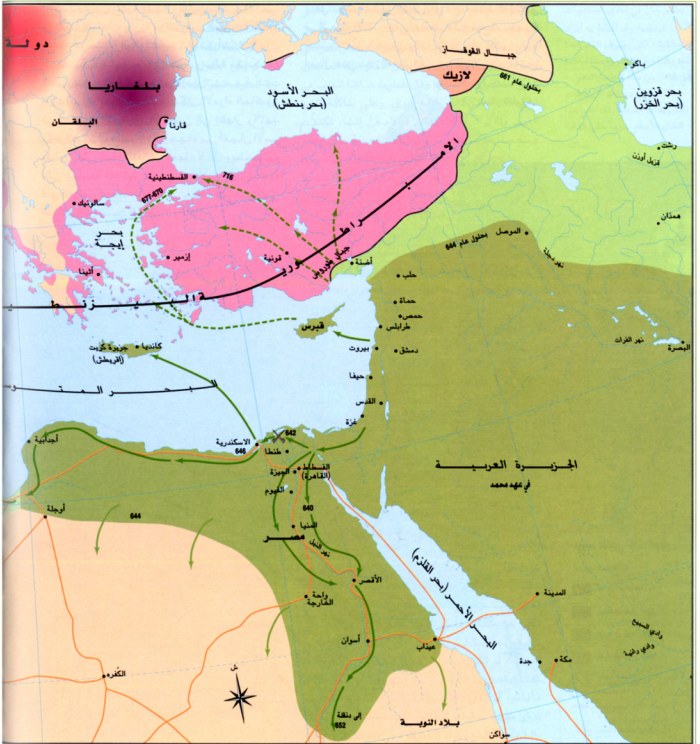


فالمؤرخ السني علاء الدين الجويني، مثلاً، رافق هولاكو في حملته على قلعة أمو، حيث دُمر آخر معقل للإسماعيليين الذين نجوا بعد سقوط الفاطميين في العام 1256. وفي أعقاب فتح بغداد بعد ذلك بستين، عيّن الجويني والياً عليها. ولم تمض بضعة أجيال حتى دخل المغول الغريبيون في الإسلام، فاتحين بذلك عصرًا جديدًا لأممنا في مسار تطوّره.

التطور أتاحت لهم إحداث مستويات غير مسبوقة من التخريب والتدمير. في فتوحاتهم الأولى، أبديت مدن بأكملها عن بكرة أبيها، وسويت مبان بالأرض، وارتفعت إهرامات مغرزة من الرؤوس المقلوبة الفتنة. كانت الوحشية المعقولة شكلاً من أشكال الحرب النفسية، الغاية منها إيصال رسالة مفادها أن المقاومة عديمة الجدوى، وكإستراتيجية، أثبت الإرهاب أنه فعال للغاية. فقد كان الأمر الحاكمون في العصابات الإيرانية يتسارعون إلى إظهار لأهلهم، والموظفون المحليون والوجهاء من أعيان الأسر، يقولون على إيداء التعاون معهم، لا بل ويشجعونهم على هجاجة أعدائهم من المسلمين لنيل الحظوة لدى الغزاة. وقد سما بعضهم من طبقة العلماء إلى أعلى العرابت من حيث الشهرة والنفوذ.



## المضرب وإسبانيا 650 - 1485





القرنين الحادي عشر والثاني عشر، هما: المرابطون (1056-1147)، والموحّدون (1130-1269). وقرب نهاية حكم الموحّدين، تكثُر سائر الأمراء المسيحيين معاً، مدسّنين بذلك حقبة «حروب الاسترداد». وباستثناء حكم بني نصر في غرناطة، الذي مكث حتى عام 1492، كان معظم شبه الجزيرة الإيبيرية قد خرج من قبضة المسلمين.

غداة سقوط غرناطة في العام 1492، سلك معظم المسلمين واليهود طريقهم إلى شمال إفريقيا هرباً من محاكم التفتيش. بعضهم رُضخ واعتنق المسيحية، فيما سُمح لقلّة قليلة منهم بالبقاء على دينهم، ولكن في ظروفٍ تميّزت بالشدّ في تقييد حركتهم. غير أن عملية «التنصير» وطرد المسلمين كانت قد اكتملت أو تكاد بحلول نهاية القرن السادس عشر، ولم يبق من وجود للإسلام في المنطقة سوى ما خلفه وراءه من آثار ثقافية ليس إلا.

ارتبطت الحضارة الناشئة في الأندلس المسلم بالتطورات الأوسع نطاقاً في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، غير أنها تميّزت عنها من عدة وجوه. فالفن والعمارة المقترنان بمدن قرطبة وغرناطة وإشبيلية وطليطلة، باقيا معالماً حية ومنازل مشرقة على مرّ الزمن. كما أن التراث الأدبي الذي ازدهر أيما ازدهار في الفترة الأخيرة من الحكم الإسلامي، أصاب امتيازاً هو الآخر بإسهامه العظيم في الأدب الرومانسي. لكن ربما كان

الترات الأبقى على مرّ الدور هو ذاك التجسّد في كتابات المسلمين واليهود الفلاسفة والعقائدية والقانونية، والتي سيكون لها أعظم الأثر في بروز النزعة السكولانية (المدرسية) اللاتينية لاحقاً في أوروبا. ومن أبرز المرجعيات في هذا الصدد، ابن رشد، المتوفى عام 1198؛ وابن عربي، المتوفى عام 1240،

الأندلس هو الاسم العربي لقسم من الأراضي الواقعة في شبه الجزيرة الإيبيرية، الذي دالّ لحكم المسلمين ونفوذهم طوال ما يقرب من 800 سنة. أول احتكاك للمسلمين بالمنطقة حدث في عام 711. يومذاك عبر جيش مسلم مضيق جبل طارق من شمال إفريقيا. وبحلول عام 716، كان عدّد من المدن والممالك قد مُني بالهزيمة. غير أن طبيعة السيطرة الإسلامية ونطاق اتساعها في المنطقة، ارتبط ارتباطاً دراماتيكياً بسقوط الدولة الأموية وعاصمتها دمشق في العام

## إسبانيا الإسلامية حوالي 1030

- دول مسيحية
- خلافة قرطبة حتى 1031
- غرناطة مملكة إسلامية بعد 1031
- أبرشية
- جالية يهودية مهمة
- السكان
- مسيحيون
- غالبية يهودية ومسلمون
- غالبية مسلمة



750. فقد فرّ أحد أفراد البيت الأموي إلى إسبانيا، حيث صار والياً قبل أن يؤسّس سلالة أموية جديدة أعلنت إيبيريا وشمال إفريقيا في نهاية المطاف خلافةً مستقلة.

وثمة حركتان مدفوعتان بنظرة أكثر سلفية إلى الحكم الإسلامي، تولتا السيطرة تبعاً على المنطقة في



## إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى شرقاً

شجرة النسب القرشية؛ وتلك نزعة سوف تتبدى جلياً للعيان بين سواهم من الزعماء الدينين والقبليين. وفي حين احتفظت العربية، وفي بعض الحالات الفارسية، التي جاء بها البحارة، بمكانتها الاعتبارية وامتيازاتها بوصفها لغة «الإسلام الحق»، طُورت اللغات العامية أدباً فقهية ثرية لن تلبث أن اكتسبت آخر الأمر شكلاً مكتوباً. يعود تاريخ أول نصّ كتب باللغة السواحلية إلى عام 1652. والثقافة السواحلية المهمة على الشريط الساحلي الممتد مسافة ألف ميل، من مقديشو إلى كلوة، هي ثمرة قرون عذّة من التفاعل بين الأفكار التي حملها معهم التجّار والمستوطنون العرب والفرس، والشعوب الأصلية في الساحل الشرقي لإفريقيا التي تزاجوا معها.

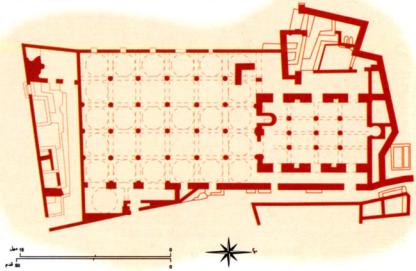
بعدما دار فاسكو داغاما حول رأس الرجاء الصالح في العام 1498، دمر البرتغاليون وبشكل منتظم المدن السواحلية المزدهرة التي كانت قد نبئت على امتداد الساحل. في عام 1505، تم الاستيلاء على كلوة واستُبعدت مومباسا لأعمال السلب والنهب. وبحلول عام 1530، كان البرتغاليون قد بسطوا سيطرتهم على الساحل برمّته، انطلاقاً من حصونهم المنيعّة في بمبا وزنجبار وغيرها من الجزر. غير أنه في الخمسينيات من القرن السابع عشر،

استطاع العُثمانيون، وهم من المسلمين الإباضيين، أن يطردوهم من مسقط، ويُعيدوا الشطر الشرقي من المحيط الهندي إلى حظيرة الحُكم الإسلامي، وأقام العُثمانيون شبكة لتجارة الأقمشة والعاج والعبيد بين شرق إفريقيا والهند. وفي القرن التاسع عشر، اتحدت مسقط وزنجبار لفترة وجيزة تحت سلطان حاكم واحد، هو السيد سعيد بن سلطان (1804-1856). مما فتح الباب أمام توطّن موجات جديدة من المهاجرين المسلمين القادمين من جنوب الجزيرة العربية. وتحولت زنجبار في مجملها إلى مركز لإنتاج كيش

منذ زمن الفراغة القدماء ومناطق أعالي النيل في شرق إفريقيا تنتمي إلى الفضاء الثقافي نفسه الذي تنتمي إليه مصر. فإثيوبيا اعتنقت المسيحية على يد الإرساليات القبطية اعتباراً من القرن الرابع؛ وبحسب أقدم المصادر الإسلامية، فقد وُفّر النجاشي المسيحي الملاذ الآمن لمجموعة من المسلمين المضطهدين قدمت من مكّة حتى ما قبل الهجرة المحمدية. وصل الفاتحون العرب لمصر إلى حدود أسوان عام 641، واستمروا لعدّة قرون بعدها يزحفون جنوباً، مانحين منطقة أعالي

كلوة، الموقع الجنوبي المتقدم لدار الإسلام حتى الأزمنة الحديثة. كان يبلغ تعداد سكانها زهاء عشرة آلاف نسمة عام 1505 حين احتلها البرتغاليون في هجوم كاسح. أوائل المسلمين الذين استوطنوها (حوالي 800 م)، كانوا من البحارة والتجار القادمين إليها من سواحل الخليج.

ملعب أرضي للجامع الكبير في كلوة



النيل طابعها العربي الغالب. وقد أسّس سلطنة الفُنج، التي حافظت على احتكارها لتجارة الذهب إلى مطلع القرن الثامن عشر تقريباً، قومٌ من الرُعاة سلّكوا طريقهم جنوباً في موازاة مجرى النيل الأزرق. وعملت تلك السلطنة على توطيد النفوذ العربي باستقدامها فقهاء وأولياء من مصر والمغرب والجزيرة العربية.

ومما عزّز الطابع العربي للإسلام في شرق إفريقيا، قُرب المناطق الساحلية من الحجاز واليمن. فمنذ زمن مبكر، اكتسب مريّو المواشي الصوماليون أشرف الأنساب الإسلامية جميعاً وذلك بإرجاع أصلهم إلى



## إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى - غرباً

القسيية للإفريقيين جنوبي الصحراء الكبرى، غير أنها كانت نادرة جداً. فقد كانت الأسر المالكية، كما هي العادة، من بين أوائل الداخلين في الدين الجديد، وهي التي طالما استندت إلى الهيبة الدينية لاعتصار الضرائب أو فرض التجنيد على العشائر وأبناء الجاليات الخاضعة لها. وحيث أن التجار المسلمين كانوا قد استقروا في مدن الساحل (بلاد الزنج)، وصار لمعلمهم أحياناً هم الإسلام الخاصة بهم بحلول القرن العاشر، فقد سعت تلك الأسر المالكية إلى الاستفادة من السعة الثقافية العالية التي حملوها معهم بأن اتخذت الإسلام ديناً للبلاد.

في أغلب الأحوال، استمرت الممالك المحلية بالتشكل وإعادة التشكل في ظل مختلف السلالات القبلية الحاكمة، مع امتزاج الشعائر والعبادات الإسلامية بالعادات والأعراف القبلية. ومع نشوء كل دولة جديدة، كانت عاصمتها تتحول إلى مركز للثروة والتعليم الإسلامي، بحكم سعي حكامها إلى الفوز بالهيبة والاعتبار من خلال بسط رعايتهم على المتعاطين بالعلوم الدينية. ولعلّ المركز الثقافي الأدهى إلى الإعجاب حقاً، كان مدينة تمبكتو الطوارقية الواقعة على نهر النيجر، والطوارق شريحة نخسوية تركب الإبل، وقد ازدادت ثراءً من التجارة العابرة للصحراء الكبرى. كما استخدمت العبيد الأرقاء لاستثمار مناجم الملح، والأقنان المتوطنين من القبائل الإفريقية لزراعة الواحات الواقعة على امتداد الطرق التي يملكونها.

وأشهر حاكم مسلم من إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، هو مانسا موسى، ملك مالي (1307-1332)، الذي حج إلى مكة في العام 1324-1325، محاطاً بأفخم وأعظم أبهة في زمانه، فترك وراءه انطباعاتاً قيّض له أن يدوم طويلاً. وخلافاً للسودان الفيلّي حيث ضربت اللغة العربية جذوراً مؤثّلة فيه، انتشر الإسلام هنا باللغات العامية المحلية منذ المراحل المبكرة نسبياً. فاعتباراً من العام 1700 تقريباً، أو حتى في زمن أبكر من هذا بعد، طُور الدارسون والمعلمون صيغة معدّلة من الأنجيكية العربية لإيصال التعاليم الإسلامية بالفلفلة والهوسا. أوسع اللغات انتشاراً في منطقة غرب الساحل.

كان انتشار الإسلام في غرب إفريقيا سلمياً إلى حد بعيد. فاليده باستخدام الجمال لأغراض النقل عبر الصحراء الكبرى في زمن يرجع إلى ما قبل عام 600 ميلادية، كان قد أرسى شبكة متنامية من مسالك القوافل بين المغرب والساحل، ذلك الحزام الشاسع من السياسات المعشبة الواقعة ما بين الصحراء الكبرى والغابات الاستوائية الغنية. سلعة التصدير الرئيسية من الجنوب، كانت الذهب من بامبوكو على ضفة نهر السنغال، التي ظلت لقرون عديدة المصدر الأوّل للذهب المصدّر إلى المغرب

وغرب آسيا وأوروبا. وإلى جانب الذهب، كانت تجري مقايضة العبيد وجلود الحيوانات والعاج بالنحاس والفضة والمشغولات الحرفية والفخاكة المجففة والأقمشة. لكن ما هو أخطر شأنًا من التجارة، كان بث الأفكار. فقد تغلغل الإسلام جنوباً بواسطة التجار والمعلمين والمتصوّفة، الذين أسماهم الفرنسيون «مرابوط»، نسبةً إلى

المرابطين العرب، وكان الأخيرون في الغالب من الأسر المشهورة بالقوى والورع وتكتنفها هالة من القداسة، فكانوا يقومون بدور الوسيط والحكم المتوارث بين أبناء القبائل في الأرياف.

في القرن الحادي عشر، أقام المرابطون من قبيلة لمتونة البربرية مركزاً لهم في موريتانيا من أجل نشر الإسلام، ومن هناك خاضوا الجهاد ضد ملوك غانا، حكام أكبر وأغنى دول غرب إفريقيا على الإطلاق. والحاسة الإصلاحية الماثورة عن المرابطين، حملتهم شمالاً إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث أعادوا توحيد إمارات الأندلس الصغيرة لتفادي خطر الفتح المسيحي المضاد. صحيح أنه جرت بعض عمليات «الأسلمة»

تفصيل من خريطة كاتالونية يصوّر ملكاً مترجماً على العرش وحوله كل الرموز والشعارات الدالة على ملكيته. ربما يكون الرسم للملك مانسا موسى من مالي، الذي بهرت ثروته معاصريه حين سافر إلى مكة عام 1324-1325 لتأدية فريضة الحج.





## الدول الجهادية

دان فوديو (1754-1817)، الذي كان عالم دين من أسرة اشتهرت بوفرة العلماء والدارسين في مملكة غويير الهوسية المستقلة. فبعد أن هاجم دان فوديو الملك لمزجه بين الشعائر الإسلامية والطقوس الوثنية، اتبع السيناريو الممهد الكلاسيكي بأن هاجر إلى ما وراء حدود المملكة، قبل أن يعود ويشن جهاداً ضد

ما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر، خرجت إلى الوجود سلسلة من الحركات الجهادية في غرب إفريقيا أدت إلى قيام عدد من الدول الإسلامية، وطرأت معها تحولات على وجود الإسلام ذاته في تلك المنطقة. وقد انطوت معظم هذه الحركات الجهادية على ثورات وتمردات قامت بها القبائل البدوية ضد حكامها المسلمين بالاسم فقط، ممن أثروا التمسك بالمفاهيم

مسجد في جنة بمالي. المسجد مُشيد على الطراز البلدي، أي من الطين المخبوز. لذلك، فهو بحاجة دائماً إلى الترميم باستخدام نفس المواد الداخلة في إنشائه.



الإفريقية التقليدية لجهة تأليه الملوك، ومزج الطقوس ذات المنشأ الوثني بمرمز مستقاة من الإسلام. أدت قيادة هذه الحركات، على جري العادة، من طبقة العلماء المثقفة، أي من الدارسين والمعلمين والطلاب، الذين كانوا قد درسوا على مشايخ الصوفية المحليين أو أنشباعهم فكانوا من رعاة الماشية من الغولاني المرتحلين جنوباً بحثاً عن الكلأ لقطعانهم، والمستائين من الضرائب الباهظة التي يفرضها عليهم ملوك الهوسا، وقد التحق بهم فلاحون ساحطون وعبيد أبقون وسواهم من المذبذبين. واحد من هؤلاء، ويدعى إبراهيم موسى (ت 1751)، كان رجلاً متعلماً من الغولاني، انخرط في النضال ضد الحكام المحليين، وهذا ما آل إلى قيام دولة فوتا جالون في مرتفعات سنغامبيا. والحركة الجهادية، التي استغلها أبناء إبراهيم موسى لالتقاط العبيد بغرض تصديرهم إلى الخارج أو تغليبهم في المزارع، امتدت إلى فوتا تورو في وادي نهر السنغال. هناك أقام العلماء دولة إسلامية مستقلة، قبل أن تندمج مع النخب المحلية في الفترة التي سبقت مباشرة الغزو الفرنسي للمنطقة. وأشهر الزعماء الجهاديين في غرب إفريقيا، هو عثمان





## المحيط الهندي إلى العام 1499

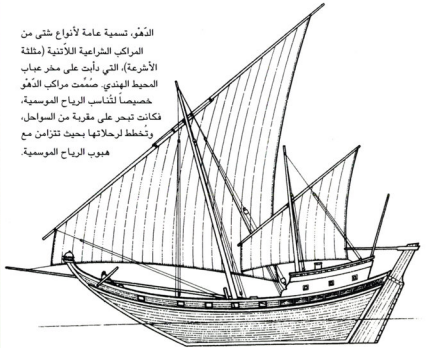
ساحل شرق إفريقيا مروراً بمونوتياس القريبة من جزيرة بمبا إلى أن يبلغ منتهاه في رابطا (التي لم يُكتشف موقعها بعد، وإن كان يُظن أنها باغامويو على ساحل تنزانيا الحالية). أما الطريق الثاني، فكان ينحرف نحو السواحل الشمالية الغربية للهند ليصل

قبل مجيء الإسلام، كان المحيط الهندي جزءاً من شبكة متداخلة ومتراكبة من طرق التجارة المحلية والإقليمية والدولية تمتد من الصين وجنوب شرقي آسيا إلى شرق إفريقيا والبحر المتوسط.

كان ثمة دليل للتجار والبحارة وُضع باللغة اليونانية في القرن الأول الميلادي بعنوان: «مسالك الإبحار في بحر إريتريا»، يصف اثنين من طرق التجارة البحرية ينطلقان من موانئ على البحر الأحمر [بحر القلزم]، مثل: ميوس، وهورموس، ولوك كوميه، وبرنيكه. على هذين الخطين التجاريين العائدين إلى العالم الإغريقي - الروماني القديم، كانت تُنقل سلع ومواد من قبيل الأقمشة والتوابل والعيود إلى شركاء لهم في المناطق الساحلية في غرب المحيط الهندي. أحد هذين الطريقين كان يتجه نزولاً عبر البحر الأحمر إلى جنوب الجزيرة العربية، ماراً بموزا (المخا) وديوسكوريدس (سقطرى)، نحو شمال شرقي إفريقيا (أوليس وأويونه في بلاد أقشوم بالحبشة)، ثم يحاذي



الدُّف، تسمية عامة لأنواع شتى من المراكب الشراعية اللاتينية (مطلقة الأشعة)، التي دأبت على حفر عباب المحيط الهندي. صُممت مراكب الدُّف خصيصاً لتناسب الرياح الموسمية، فكانت تنحرف على مقربة من السواحل، وتُخطط لرحلاتها بحيث تتزامن مع هبوب الرياح الموسمية.



بقوة المحركات، كانت الرياح الموسمية الشمالية الشرقية هذه تسمح لمراكب «الدھو» ذات الأشرعة الضخمة المثلثة الشكل (الأشرعة اللاتينية)، العربية والفارسية والهندية، بالإبحار من عدن إلى كوتشين مثلاً وقد نشرت أشرعتها على نحو يضع المركب أدنى ما يمكن في اتجاه الرياح، فكانت تتاجر وتتسوق على

إلى باريجازا (برواش) ثم يتجه جنوباً نحو موزيريس كراغانور وكومار (رأس فَمَرين). كانت تحكم حركة تنقل البشر والبضائع دورة الرياح الموسمية المؤكدة في المحيط الهندي. تدوم الرياح الشمالية الشرقية المعتدلة، أو الرياح الموسمية الشتوية، قرابة نصف السنة (من شهر تشرين الأول/نوفمبر إلى آذار/مارس)، قبل عصر الملاحة



في القرن السابع، كانت العوالم التجارية التي جاء الدليل اليوناني، «مسالك الإبحار...» على وصفها قد اندثرت منذ أمد بعيد، ووقعت المرافئ وطرق التجارة في غرب المحيط الهندي في حماة التنافس المحتدم بين الأمبراطوريتين البيزنطية والساسانية (الفارسية).

امتداد ساحل مالابار الهندي في عكس اتجاه الرياح، قبل أن تعود أدراجها وقد انتفخت أشعتها عن آخرها. أما الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي تحمل معها الأمطار إلى غرب الهند، وتولد طقساً عاصفاً، فكان من المستحسن تجنبها قدر الإمكان.

أمير سلجوقي مترع على عرشه.  
بحكم وجود السلاجقة عند نهاية  
الطرف الغربي من «طريق الحرير»،  
فقد أتبع لسلاطينهم أن يذوقوا طعم  
الثرف ويتنعموا بالكماليات من  
قديد أجود أنواع الحرير الصيني  
والمجوهرات من آسيا الوسطى.  
مخطوط من القرن الثالث عشر.



وقد استُكملت السيطرة السياسية والاقتصادية للسلالات الإسلامية الحاكمة في الشرق الأوسط على الطُّرُق التجارية في المحيط الهندي بتمامي الجاليات المسلمة وتكاثر المحطات التجارية وحتى قيام الدويلات المستقلة هنا وهناك على امتداد المناطق الساحلية. وثمة العديد منها تملك تواريخ معقدة ومتشعبة ما زالت بحاجة إلى درس وتمحيص. فساحل إفريقيا الشرقي بشعوبه الناطقة بالسواحلية، كانت له أواصر متعددة ومتنوعة بالجزيرة العربية والخليج والهند. فالمساجد والمقابر الإسلامية في شانغا تعود زمنياً إلى النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي، وهناك شواهد على وجود أسر حاكمة إسلامية محلية وإسماها جيداً بالمستوطنات المسلمة على جُزُر بمبا وزنجبار ومافيا وكسوة في الفترة 1000-1650. والعديد من هذه المجتمعات كانت مزدهرة حين زار المنطقة الرَّحالة ابن بطوطة في العام 1331 من طريق مقيديشو.

كذلك يُعدُّ ابن بطوطة مصدراً ثراءً للمعلومات بشأن وجود المسلمين على امتداد ساحل الصين الجنوبي، وصولاً إلى قوانزو (زيون) التي وصلها عام 1347. في قوانزو توجد جبانة ومسجد (يعود تاريخه إلى العام 1009 تقريباً)، يَدُلُّان على وجود جالية مسلمة في ذلك المرفأ التجاري. كما يُستدل على تواريخ الجاليات المسلمة في جنوب شرقي آسيا من بيانات التجارة عبر المحيطات. في القرن الخامس عشر، كان المركز التجاري في ملقا على ساحل الملايو قد برز كأهم محطة بحرية في شبكة التجارة الإسلامية الضخمة في المحيط الهندي، حتى إنه برز المراكز التجارية الأخرى في جاوه وسومطرة. كان عدد المسلمين في ملقا كبيراً جداً، وكانت لهم علاقات وارتباطات قوية بالتجار والمراقبي في غرب الهند مثل كامباي (قوجارات). ومن سخرية الأقدار أن ابن ماجد، البحار الذي كان له الفضل الأكبر في إرشاد فاسكو داغاما عبر المحيط الهندي عام 1498، قدَّم لنا وصفاً غير مستحب لملقا هذه. سقط المرفأ في أيدي البرتغاليين عام 1511، وبذلك أُرست أول قوة بحرية أوروبية دعائم وجودها المستتب في المحيط الهندي.

فقد ساند البهزنتيون الغارات الحبشية على جنوب الجزيرة العربية انطلاقاً من موانئ على البحر الأحمر، فيما ضمن الفُرس سيطرتهم على الخليج (البحرين) والساحل الجنوبي للجزيرة العربية (من عدن إلى صُحار إلى دابا). وما بين هاتين الإمبراطوريتين، كانت هناك قُريش، التي ستكون من أوائل المتعاطين بالتجارة البرية من المسلمين في ملائها بمكة. ابتعد المسار المبكر للفتوحات الإسلامية والتوسع الإسلامي عن المحيط الهندي واتجه أكثر نحو البحر المتوسط (بحر الروم). غير أن السلالات الحاكمة الإسلامية المتعاقبة بذلت جهودها للفوز بالهيمنة السياسية والاقتصادية على المحيط الهندي. وكان استيلاء الأمويين على ديوبل في بلاد السند عام 712، الخطوة الأولى في هذا السبيل. وفيما بعد، عندما أنشأ العبَّاسيون عاصمتهم ببغداد عام 762 على نهر دجلة وصار لها بواسطة مجراه منفذ إلى الخليج عبر البصرة، اكتسبت التجارة البحرية الإسلامية زخماً مضاعفاً. وكذلك عمليات الاستيطان من سواحل شرق إفريقيا إلى جنوب الصين. وملاحظات البحارة التي جُمعت في كتاب «أخبار السند والهند» (حوالي 850)، تُعطينا لمحة عما كانت عليه رحلة تجارية بحرية نموذجية ذهاباً وإياباً من سيراف (جنوبي إيران) إلى كانتون في الصين أيام العبَّاسيين. ولنا شاهد حيٌّ على مجريات النشاط البحري آنذاك في الجنوب الغربي للمحيط الهندي، الممتد من الجزيرة العربية إلى شرق إفريقيا، في كتاب «مروج الذهب» للمسعودي (ت 928). في عام 969، استولى الفاطميون على مصر وأسَّسوا مدينة القاهرة، فشكَّلو بذلك تحدياً سياسياً وتجارياً خطيراً للعبَّاسيين. نجح الفاطميون في تحويل وجهة التجارة في غرب المحيط الهندي من بغداد والخليج إلى الفسطاط والبحر الأحمر. وقد صان من خَلْف الفاطميين، الأيوبيون أولاً ثم المماليك، الأهمية التجارية لمصر وحافظوا على الطرق التجارية الممتد من البحر الأحمر إلى غرب المحيط الهندي، هذا وتسوق لنا مجموعة «الجنيزة» القاهرة أدلةً بيَّنة تظهر مدى تعدُّد شبكة التَّجَّار المتخذين من الفسطاط قاعدة لهم، التي تصل شمال إفريقيا بالهند عبر المحيط الهندي، في الفترة الممتدة من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر.

## المحيط الهندي 1500 - 1900

الحصن القائم عند مدخل المرفأ في مدينة مسقط، بناء في الأصل البرتغاليون خلال القرن السادس عشر في نفس الموقع لحصن أقدم عهدا. استطاعت حامية الحصن البرتغالية أن تصمد في وجه هجمات العثمانيين، لكنها اضطرت إلى الاستسلام للإمام العثماني سلطان بن سيف عام 1650.



كانت رحلة فاسكو داغاما حول رأس الرجاء الصالح عام 1498 حدثاً فاتحاً لعصر جديد: حدثاً مدوياً وضع نهاية لاحتكار المسلمين التجارة في المحيط الهندي، وفتح الباب على مصراعيه لدخول الأمبراطوريتين البريطانية والهولندية إلى جنوب آسيا وجُزُر الهند الشرقية. وقد أسهلت حقبة الاستعمار الأوروبي بإنشاء التجار المغامرين محطات تجارية لهم في

البحار الجنوبية، ومنها انطلقوا إلى مزيد من التوسع. كان البرتغاليون في الظلعة، فاستولوا على كلوة واستباحوا مومباسا عام 1505، قبل أن يقيموا قواعد لهم في زنجبار وبيما. في العام 1509، هزم البرتغاليون أسطولاً مصرية - هندياً مشتركاً لاحتلال غوا على ساحل مالبار الهندي. وفي عام 1515، استولوا على ملقا، وفي العام نفسه انتزعوا هُرمز المطلة على الخليج. غير أن الهيمنة البرتغالية ما لبثت أن انحسرت لصالح هيمنة الهولنديين، الذي سبق وأن حاول البرتغاليون استبعادهم من تجارة الفلفل والتوابل المربحة. تغلب الهولنديون على البرتغاليين في أمبوينا عام 1605، وهكذا انتزعوا منهم باندا عام 1621، وسيلان (سرانديب، أو سري لانكا حالياً) عام 1640، وملقا عام





المحيط الهندي، حوالي 1650

- مستعمرات هولندية
- مستعمرات برتغالية
- مستعمرات إسبانية
- مستعمرات بريطانية
- مستعمرات دلتاوية
- مصنع

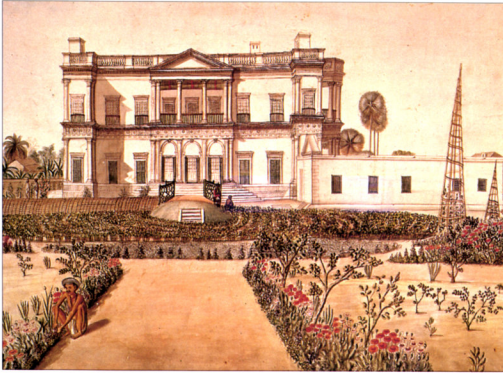
1641. وقبل ذلك في العام 1619، تأسست باتافيا (جاكارتا الحالية)، لتُصبح منذ ذلك الحين فصاعداً عاصمة جزر الهند الشرقية.

ولكن اتسم التدخل البرتغالي بالتدرج البطيء، إلا أنه تمخض عن تحولات وتغيرات في أنماط التجارة السائدة، وكذلك في الاقتصاد السياسي للدول الإسلامية في المنطقة. ففي نهاية القرن السابع عشر، كانت إنجلترا وهولندا، البلدان الصغيران القابعا عند الطرف الغربي للقارة الأوراسية، قد صارتا (سوية مع فرنسا) القوى المهيمنة على مقدرات التجارة العالمية. فاخضعت التجارة التقليدية بالسلع الكمالية لتحل محلها حمولات السفن من المواد الخام كالأخشاب والحبوب والأسماك والملح. وهذا التحول في طبيعة الحمولات أذن حتى حدوث انقلاب أبعد أثراً انقسم العالم بموجبيه إلى مستعمرات تنتج المواد الأولية، ومراكز صناعية وتجارية تنتج سلعاً وخدمات ذات قيمة عالية. وإذا ما نظرنا إليها من منظور القرن

المحيط الهندي، حوالي 1580

- مستعمرات برتغالية وتاريخ
- مستعمرات برتغالية
- بلدة برتغالية
- طرق تجارة برتغالية



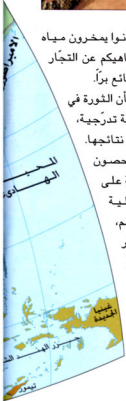


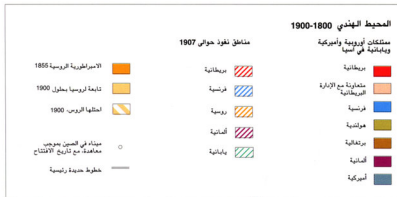
عندما أخذ البريطانيون يرسّون  
أقدامهم في الهند، شرعوا  
باستحضار طرزهم المعمارية  
الخاصة، كما تزيّن هذه اللوحة  
بالألوان المائية لإحدى الدور  
المشيّدة في شابرّا عام 1796.

الحادي والعشرين، نستطيع القول إن رحلة فاسكو دا  
غاما تمثّل عملية بلغت ذروتها في «العولمة».

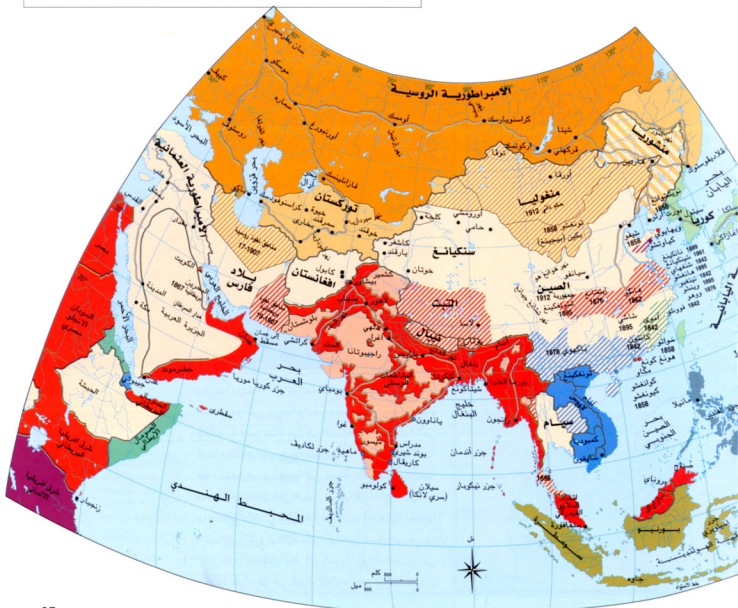
ثمة عاملان تقنيان دفعوا بقوة كل تلك التحوّلات،  
وهما: أشرعة أفضل وملح البارود. إن وجود  
البرتغاليين على الساحل الشرقي للمحيط الأطلسي قد  
حدا بهم إلى تطوير مراكب بحرية متينة بما يكفي  
للمصود في وجه الأنواء الأطلسية العاتية، والإبحار  
على مسافة أدنى من مهبط الرياح من مراكب الدفّ  
العربية ذات الأشرعة اللاتنية. كانت السفن البرتغالية  
أضخم بدنًا وأكثر ثباتًا من مثيلاتها العربية أو  
الفارسية، وهكذا تسوّى لها أن تنقل حمولات أكبر  
وتبحر لمسافات أطول بعد. وقد جنّب المرور بالطريق  
الجديد الذي يدور حول جنوب إفريقيا قاصداً جُزُر  
الهند، المرور بالمسالك التجارية المعهودة في غرب  
آسيا. فكانت البضائع تُنقل من جنوب آسيا وجُزُر  
الهند، بما فيها التوابل والأقمشة والسلع النفيسة، إلى  
ليشبونة رأساً. وهذا ما عاد بالثراء على التجّار  
البرتغاليين، نظراً لتقليصه عدد المستفيدين المباشرين  
من التبادل التجاري بين أوروبا وآسيا؛ ومن هُؤلاء

تجّار الهندية وجنوى ممّن كانوا يبحرون مياه  
المتوسط الشرقية جيئةً وذهاباً، ناهيك عن التجّار  
المسلمين الذين كانوا ينقلون البضائع برّاً.  
أما ثورة البارود فكانت، شأن الثورة في  
تقنيات الملاحة الشراعية، عملية تدريجية،  
وكانت مثلها بعيدة الأثر من حيث نتائجها.  
فمع تطوير المدافع، لم تعد الحصون  
الحجرية منيعة كفاية أو عصيّة على  
السقوط. وهذا ما أعطى الأفضلية  
العسكرية للقوى الحسنة التنظيم،  
القادرة على تحمل أعباء الاستثمار  
المُكلف في مضمار المدفعية  
والأسلحة النارية. ومع استمرار  
التقدّم في مجال التكنولوجيا  
العسكرية، طرأ تحوّل على ميزان  
القوى بين الطبقات المحاربة  
التقليدية، التي ترتدي البراعة  
الحربية عندها رداء التلاحم  
القبلي والشرف والسمة





والبسالة (ألا وهي المناقب الكلاسيكية القديمة المأثورة عن الغزاة والمقاتلين من البدو)، وبين القوى الاقتصادية ذات المراكز الإدارية المعقدة القيمة بمسايرة واقتناء أحدث التقنيات العسكرية. وتحت الضغط الأوروبي هذا، تكتلت الدول الإسلامية المتشرذمة التي جاءت في أعقاب الخلافة العربية والغزوات المغولية، ضمن وحدات أكبر تهيم عليها «أمبراطوريات البارود الكبرى الثلاث، وهي: أوراسيا العثمانية، وإيران الشيعية، والهند المغولية.



## صعود العثمانيين حتى 1650

لا جدال في أن الإمبراطورية العثمانية كانت الأوسع نطاقاً والأبعد نفوذاً من بين سائر الدول الإسلامية جميعاً. فقد بدأت توسعها المذهل كإمارة حدودية تنش غارات على الأراضي البيزنطية من يثفيا بالقرب من بحر مرمرة في وقت مبكر من القرن الثالث عشر. في العام 1242-1243، أنزل المغول الهزيمة بالسلاجقة، وجعلوا منهم مقطعين تابعين لهم، وهذا ما دفع بأعداد متزايدة من البدو الأتراك إلى آسيا الصغرى بحثاً عن الكلأ والغنيمة. وأدى انهيار الدولة السلجوقية إلى نشوء عدة دويلات تحت سلطان المغول الغضاض،

حدثت الطفرة الكبرى في التوسع العثماني إبان حكم السلطان سليمان الأول، الملقب بـ«العظيم». اللوحة أدناه تصور الأسطول البحري العثماني يهاجم مدينة طولون الفرنسية عام 1545.



ومنها دولة الأتراك العثمانيين، الذين انقلبوا بعد استيلائهم على بورصة واتخاذها عاصمة لهم في العام 1326، لابعين أساسيين في المشاحنات الطائفية التي أُلئت بالإمبراطورية البيزنطية في آخر أيامها. فمقاتبتهم قوات أجنبية في خدمة الأطراف البيزنطية المختلفة، اجتاز العثمانيون المضائق بادية ذي بدء واحتلوا أراضي بيزنطة في أوروبا. وهكذا احتلوا اليونان، ومقدونيا، وبلغاريا، وأخيراً بسطوا سيطرتهم على غرب البلقان بعد أن كسروا شوكة الصرب في معركة كوسوفو في العام 1389. وقد فشلت حملات





لكنها شديدة التأثير بالثقافة اليونانية. صحيح أنها خلفت السلاجقة، إلا أنها كانت كذلك وريثة الأعراف والبنى العائدة إلى الأمبراطورية الرومانية - البيزنطية التي حلت محلها. وبحكم امتدادها بين البلقان المسيحي والتخوم الغربية لدار الإسلام، فقد عملت الدولة العثمانية كجسر بين حضارات متنافسة. ونظراً لقربها من القسطنطينية، التي طالما كانت هدفاً للفتح الإسلامي، اجتذبت السلطنة التي تحكمها أسرة «العثماني» العديد من الغُزَي (مفرداً غازي، وهم المحاربون الصالحاء) الساعين إلى المجد السماوي في جهاد النصاري. هؤلاء الوافدون والرعوين الأتراك اتصفوا بالتحامل على القرى والبلدات المسيحية في الأناضول، وربما يكون بعضها قد لجأ إلى الدخول في الدين الإسلامي تحاشياً للاضطهاد. غير أنه كان من بين الوافدين أيضاً دراويش وأعضاء من الطُرق الصوفية من أسيا الداخلية، مثل حاجي بكطاش (ت 1297)، الذي كان يُنادي بصيغة خاصة به من الإسلام تميل إلى مزج المعتقدات الإسلامية، السُنية والشيعية كليهما، بالمعتقدات والممارسات المسيحية، مما سهّل على الشعوب الناطقة باليونانية والأرمنية عملية الدخول في الدين الإسلامي. وقد دعم الولاة العثمانيون هذه العملية بإبعادهم الأساقفة والمطارنة عن أبرشياتهم، الأمر الذي ترك المسيحيين بلا قادة عملياً، وكذلك باستبدالهم المؤسسات الأرثوذكسية من مستشفيات ومدارس وميامت وأديرة بمؤسسات أخرى إسلامية يقوم على تسييرها علماء عرب وفُرس. ولم ينقض القرن الخامس عشر إلا وكان أكثر من 90 بالمئة من سكّان الأناضول قد صاروا مسلمين، وإن بقيت ثمة أقلّيات لا بأس بها من النصاري واليهود في المدن. وإذا كان الفلاحون هم من تأسلم في الأغلب الأعم، فإن طبقة النبلاء والموظفين المدنيين العائدة إلى النظام الأمبراطوري القديم اندمجت في الجيوش والإدارات العثمانية، مما أضفى على الدولة طابعاً بيزنطياً مميزاً. صحيح أن قدراً من الاستقلال الديني كان سموحاً به عبر تطبيق النظام المُلّي، الذي تحكم الأقلّيات الدينية بموجه نفسها بنفسها، إلا أن الأمبراطورية العثمانية كانت على درجة فائقة من المركزية. وفي المناطق الإسلامية الأخرى (بما فيها بعض الولايات والسناجق

متعاقبة قامت بها أحلاف شتى بين دول لاتينية وأرثوذكسية، ومنها نابولي، والبندقية، وترانسلفانيا، وصربيا، وجنوى، في صدّ التقدم العثماني داخل أوروبا. في عام 1453، سقطت القسطنطينية في أيدي قوات محمد الفاتح، مما ألهم التطلّعات الأمبراطورية لدى العثمانيين ووفّر لهم الأرضية لمزيد من التوسّع. في عام 1521، انتزع العثمانيون بلغراد من المجرين، وبحلول عام 1529، كانوا قد وصلوا إلى أبواب فيينا، عاصمة آل هابسبورغ، ولدى وفاة سليمان العظيم (سليمان القانوني)، كان العثمانيون قد أحكموا قبضتهم على مساحة شاسعة من التراب الأوروبي تمتد من شبه جزيرة القرم إلى جنوب اليونان.

لكن انتصارات العثمانيين كانت أشدّ دويماً بعد في ديار الإسلام منها في أوروبا. فبعد أن هزموا الصغويين في كالديران عام 1514، عمداً إلى ضم شرق الأناضول وشمال بلاد الرافدين، مما أتاح لهم التحكم بطُرق التجارة في أسيا الوسطى ما بين تبريز وبورصة. في العام 1516-1517، تمّت للعثمانيين الغلبة على الدولة المملوكية في سورية ومصر، الأمر الذي منحهم مقاتيح السيطرة على الأماكن المقدسة في الحجاز. ويتطورهم الفنون الملاحية اليونانية التي اكتسبوها من أسلافهم الروم، تنمّح العثمانيون لمقارعة قوة البندقية في شرق المتوسط وتحدي سلطان إسبانيا الهابسبورغية في غرب المتوسط، واستولوا تبعاً على الجزائر (1529)، وتونس (1534-1535)، وجربة (1560)، وجزيرة مالطا الاستراتيجية، آخر معقل للصليبيين (1565)، فضلاً عن جزيرة قبرص (1570). هذه السلسلة من الانتصارات البحرية، أثارت في آخر الأمر هجوماً مضاداً ناجحاً. وبالفعل، استُقبلت هزيمة العثمانيين البحرية في معركة ليبانت عام 1571 بحفارة بوصفها نصراً مؤزراً للعالم المسيحي. هذا ولئن أعاد العثمانيون تجديد أسطولهم البحري وانتزعوا تونس مجدداً عام 1574، إلا أن توازناً في القوى ساد المتوسط. ارتسمت معه الحدود التي بقيت تفصل الأراضي الإسلامية في الجنوب عن الأراضي المسيحية في الشمال.

ووجه المفارقة هنا أن السلطنة العثمانية في بواكير أيامها كانت إسلامية من الوجهة النضالية،



العربية التي كانت خاضعة لأشكال أقل إحكاماً من السيادة العثمانية)، كان تطبيق الإسلام على صعيد القانون والمجتمع تطبيقاً ذاتياً في واقع الأمر. كان الولاة يُعيّنون للقضاة، لكنهم في معظم مناحي الحياة الأخرى، كانوا يدعون المؤسسات والمرافق الدينية تنمو وتزدهر على نحو مستقل، ومنها المساجد والمدارس حيث يتم إعداد رجال الدين، وشبكات الزوايا والتكايا الصوفية، ونقابات الحرفيين التي غالباً ما كانت على صلة وثيقة بها. على أية حال، إن العثمانيين، وخلافاً لأنظمة الحكم الإسلامية الأخرى، كانوا يشرفون على المجتمعات التي يحكمونها ويضبطونها ويقولونها. فإذا كان السلاطين خاضعين نظرياً للشرعية الإسلامية، غير أنهم كانوا يُردفون الشرائع السماوية بالفرمانات الهمايونية التي تتلاعب بمكانة واجبات جميع الرعايا، بما في ذلك أحكام اللباس. لقد أخضعوا العلماء والزوايا الصوفية والنقابات الحرفية لسلطة الدولة بإملائهم التعيينات والتصنيفات والأدوات إملاءً. كان المجتمع ينقسم إلى طبقتين: طبقة الحكام وطبقة المحكومين، والفرق الرئيسي بينهما هو حق الحكام في استغلال ثروات المحكومين عبر فرض المكوس والضرائب عليهم. نظرياً، كانت الأرض كلها ملكاً شخصياً للسultan (جفتلك). والشُعب الحاكمة لم تكن محصورة فقط بالباشوات والبكوات والأعيان الذين يقيضون على مقاليد السلطنة في الولايات، بل كانت تضم كذلك عائلات يونانية أرستقراطية، وسلطات كنسية، ورجال مصارف بارزين من اليهود والأرمن، فضلاً عن أسر أميرية من البلقان.

قُصد من هذا الرسم الشخصي للسultan سليمان، تقديمه إلى أناده من ملوك أوروبا. إذ لم يعتد سلاطين بني عثمان أن يعرضوا رسومهم الشخصية على رعاياهم إلا في زمن متأخر من القرن التاسع عشر.

## الأمبراطورية العثمانية 1650 - 1920

حين وصل النظام العثماني إلى أوجه في القرن السادس عشر، كان نظاماً فعالاً وغاية في النجاعة. إنما كانت تشوبه كذلك نقطة ضعف كبرى، ألا وهي نظام الوراثة. في المجتمعات التي تغلب عليها البدوّة، يكون لغياب نمط محدّد للوراثة منطقته الدارويني



عبد الحميد الثاني هو السلطان العثماني الأخير الذي تسبّى له أن يمارس سلطة فعلية عليّ الأمبراطورية. كان ملكاً مستبدّاً وعدواً للحريات السياسية، إلّا أنه شجّع مع ذلك الإصلاحات التعليمية والقضائية والاقتصادية.



الثابت: بعد صراع بين الأنداد، يخرج زعيم يكون هو الأقدر والأصلح لقيادة القبيلة. لكن انتقال هذا المنطق إلى صلب نظام أمبراطوري معناه احتراقاً داخلياً. وهكذا بعد سلسلة من التنازعات الدامية بين الإخوة، حسم العثمانيون معضلة الوراثة لديهم بأن قيّدوا حركة أقرباء السلطان من الذكور وجعلوهم حبيسيّ أفنية القصر الداخلية أو أجنحة الحرم، وهذا ما كان يحول دون السلطان العتيّد واكتسابه أية دراية حيوية بالشؤون العسكرية والمدنية. وهكذا، بدءاً بالقرن السابع عشر، كان السلاطين العثمانيون ممّن وصلوا إلى سدة السلطة عن طريق المناورات «البيزنطية»، ومكائد الحرم، يفتقرون إلى الخبرة في الميدان العسكري، وعلى غير دراية كافية بحقائق السياسة. وقد تحلّلت سلطة الدولة والجيش لفترة وجيزة بوجود



وتمكن الروس بفضل جيشهم الذي جرى تحديثه مؤخراً في عهد بطرس الأكبر، من الاستيلاء على أزوف في شبه جزيرة القرم. ولئن استطاع العثمانيون استعادة بعض من هذه الأراضي المفقودة خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر، إلا أنهم كانوا عاجزين على المدى الأبعد عن إيقاف مدّ التقدم الروسي. في عام 1768، شرع الروس بحملة جديدة، فاحتلوا مولدافيا ولأشيا (شمال رومانيا) والقرم. وبموجب الشروط المهيئة لمعاهدة «كوتشوك كينارك» المبرمة عام 1774، أُجبر العثمانيون على منح روسيا موطئ قدم على البحر الأسود، والسماح لها بحرية الملاحة والتجارة فيه مع إمكانية الوصول إلى البحر المتوسط، فضلاً عن فتح أبواب التجارة البرية أمامها في ولايات السلطنة جميعاً، الآسيوية منها والأوروبية. وفي حين ظلت مولدافيا ولأشيا تحت السلطة العثمانية من الناحية التقنية، إلا أن ما حازته من حكم ذاتي متزايد جعلها عرضة للتلاعب الروسي بها. ولسوف يتحوّل بنذ شرطي أدخل تحت ضغط روسي يقضي ببناء كنيسة روسية في استنبول إلى حق عِرق عام في أن تتدخل روسيا لصالح جميع رعايا السلطان من المسيحيين الأرثوذكس.

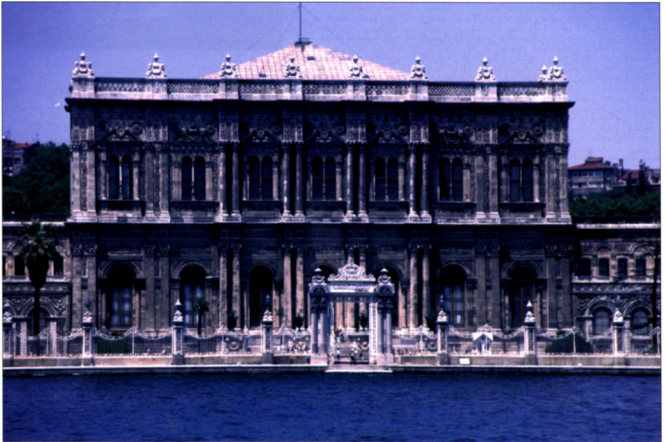
بيد أن تدفق الأفكار الذي جاء في أعقاب الانتصارات الأوروبية كان، في حقيقة الأمر، أشدّ وقعاً وإعصاراً من الهزائم العربية. فاحتلال نابليون بونابرت القصور الأمد لمصر عام 1798، جاء ليبدؤ بذور الفكر العلمي والتحول الجدي في أغني ولايات السلطنة، لكن أكثرها تعرّضاً للإهمال. لقد فتح نابليون بإنزاله الهزيمة في أمراء المماليك الجدد، الذين يحكمون مصر تحت جناح السلطنة العثمانية، الطريق أمام تغلغل الأفكار الغربية في ظل أسرة حاكمة تأخذ بأسباب التحديث وطرائق العصرية، هي أسرة محمد علي (ح 1805-1848). الضابط الألباني الذي استولى على السلطة عام 1805، جاعلاً من نفسه حاكماً مستقلاً في كل شيء إلا بالاسم، والمطامع الاستعمارية لفرنسا بعد عودة الملكية إليها، أفضى إلى خسارة العثمانيين الجزائر اعتباراً من عام 1830، وإنشاء محمية في تونس عام 1881. ورياح النزعة القومية التي عصفت بأوروبا غب الثورة الفرنسية، وصلت إلى الجاليات المسيحية في البلقان، بدءاً بثورة

وزراء اتعدمت في قلوبهم الرحمة، أمثال محمد كوبرول (ح 1656-1661)، وكان ابناً لرجل نصراني من ألبانيا، وابنة أحمد (ح 1661-1676)، مما أتاح التوسّع أكثر إلى الشمال من شبه جزيرة القرم، لا بل وضرب حصار ثائر (بعد موت أحمد) على فيينا عام 1683. لكن تبين أن سيروورة الانحطاط عملية لا رجعة فيها. فتدفّق القصة الإسبانية من الأميركيتين خلق تضخماً هائلاً ألحق الأذى بالطبقات ذات العلاقة بالتجارة، وكذلك بقدرة الحكومة على الصرف على الجنود الذين كان سلاحهم الحديث من بنادق وبارود يتطلب مبالغ نقدية لا غنائم حرب. وهكذا كسب ولاة المقاطعات والإيالات المحليين سلطات على حساب المركز، فاحتكروا جيوشاً خاصة لهم وضاعفوا الضرائب لجيوبهم. والإنكشارية الذين كانوا قد شكلوا كياناً ينعم بالامتيازات داخل الدولة ذاتها، انغمسوا من جانبهم في إساءة التصرف ومحاربة الأقارب على نطاق واسع. وتنازل الحكومة عن الأراضي الذي كان من المفروض أن ينشئ الزراعة، تحوّل إلى مزارع خراجية لاغتصام الضرائب ليس إلا، مما دفع بالمزارعين إلى التخلّي عن أراضيهم وتكوينهم عصابات من قطاع الطرق الريفيين أو من المهجرين إلى المدن المكتظة أصلاً بسكانها والمعرضة لتفشي المجاعة والأوبئة واضطراب حبل الأمن. وجاء تطبيق النظام المالي الذي يتيح للجالياتيتين المسيحية واليهودية (وللشيعية في العراق) درجة عالية من الاستقلال الإداري، ليقوّض شرعية الدولة من خلال منحه التجار الغربيين امتيازات، وتشجيعه المسيحيين في اليونان والبلقان على التطلع نحو أعداء السلطنة – روسيا وأوروبا الغربية – طلباً للمساندة والحماية. وبإحلال مركزيته على الصعيد الداخلي، أثبتت السلطنة العثمانية أنها ليست صنوّاً لدول أوروبا الصاعدة، التي كان نظامها العسكري والاقتصادي قد بدأ يجني الفوائد من الثورة في مضمار الفكر العلمي. وخلال العقدين الأخيرين من القرن السابع عشر، قطعت الدول الأوروبية أشواطاً بالغة الشأن على حساب الأمبراطورية العثمانية. فما بين عامي 1684 و1687، انتزعت أسرة هابسبورغ معظم أراضي المجر الواقعة شمالي الدانوب وأتبعته ببلاد الصرب عام 1689؛ واستولى البنادقة على الساحل الدالماسي وجنوب اليونان (المورة)؛ وغزت بولندا بودوليا؛

على البلقان في صورة حرب كونية، اصطفت فيها السلطنة العثمانية إلى جانب النمسا وألمانيا في وجه بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا. وجاءت هزيمة دول المحور في العام 1918، وخلع السلطان عام 1922، وإلغاء الخلافة الإسلامية عام 1924، ناهيك عن تبادل السكّان بين تركيا واليونان في العام 1921، لتسدل ستار النهاية على الأمبراطورية العثمانية.

قصر «ضلّمة بهجة» في إستانبول. إن واجهة هذا القصر المبنى على الطراز البندقي الكلاسيكي، شأن باقي القصور التي شُيّدت للسلطان العثمانيين في القرن التاسع عشر، لتتمّ عن حدوث تحوّل كبير في التوجّه الثقافي، إذ راحوا يتطلّون عن نزعتهم السابقة إلى الغزلة ويُجاهرون بما يملكون من جاه و سطوة على غرار ملوك أوروبا.

الصرب (1804-1813)، فحرب الاستقلال اليونانية (1821-1829)، وبلغت ذروتها في معاهدة سان ستيفانو لعام 1878، التي أجبر العثمانيون بمقتضاها على منح الاستقلال لبلغاريا وصربيا ورومانيا والجبل الأسود. ولم يتأجل الفصل الأخير من تقطيع أوصال السلطنة إلا بسبب التنافس بين القوى الأوروبية، وقيام بريطانيا وفرنسا بمساندة «رجل أوروبا المريض» ضد روسيا في القرم (1854-1856)، فيما راحت النمسا تتنافس وروسيا على البلقان. في عام 1911، غزت إيطاليا ولايتي طرابلس وبرقة، مكّره العثمانيين على التنازل عنهما لها. وفي عام 1912، انتزعت القوى البلقانية مجتمعة، وهي صربيا وبلغاريا واليونان والجبل الأسود، ما تبقى من أراض عثمانية في أوروبا، باستثناء قطاع من الأرض حول استنبول، وذلك قبل أن يدب الخلاف بينها. وفي شهر آب/أغسطس 1914، انفجر النزاع بين الدول الأوروبية



## إيران 1500 - 2000

اليهود والزرادشتيون لعمليات «أسلمة» قسرية. وجرى ثني الناس عن الحج إلى مكّة والاستعاضة عنه بـ«زيارة» مزارات الأئمة الشيعة التي تُقدّم عليها الأموال بلا حساب. وفي القرن الثامن عشر، وإثر تفكك الدولة الصفوية، مرت إيران بفترّة من الاضطرابات كان فيها العثمانيون والروس يسيطرون على الشمال، وزعماء القبائل الأفغان والأفشار والزند والقاجار يتنافسون على السلطة في الجنوب. ولئن قام نادر شاه، الزعيم القبلي الأفشاري الذي أعلن نفسه شاهاً عام 1736، بكبح جماح العلماء الشيعة، إلا أن القلاقل التي عمّت القرن التاسع عشر سمحت لأولئك العلماء بحياة قدر أكبر من الاستقلال المؤسسي بالمقارنة مع نظرائهم السّنة.

وفي عهد السلالة القاجارية (1779-1925)، تعرّضت قدرات العلماء الشيعة بفضل الزكاة والخمس التي كانت تُدفع إليهم مباشرة، في حين منحهم رعايتهم للمزارات والأوقاف عائداً إضافية من إيجار الأراضي والمساكن. إن وجود اثنين من أهمّ المزارات في كربلاء والنجف بالعراق الخاضع للسيطرة العثمانية، وفرّ لهم قاعدة لممارسة السلطة خارج نطاق الدولة. فشعائر الجداد التي تحيي ذكرى استشهاد الإمام الحسين في كربلاء ومجالس الغزاء المقترنة بها، أضحت معالم مُميّزة للتدين الشعبي، وجعلت من العقيدة الشيعية مكوناً أساسياً من مكونات الهوية القومية الإيرانية.

ولمّا بدأت الضغوط تشدّد على إيران من جانب روسيا وبريطانيا في القرن التاسع عشر، سارع العلماء إلى تصدّر الصفوف في المقاومة الوطنية. ففي العام 1873، أجبر العلماء الشاه على إلغاء امتيازات اقتصادية ومالية بعيدة الأثر كان قد منحها لمواطن بريطاني يدعى البارون دو روير؛ وفي تسعينيات القرن التاسع عشر، قادوا حركة إضراب عمّت البلاد بأسرها ضدّ منح بريطاني آخر، هو الميجور تالبوت، حق احتكار التبغ. والرّغم السياسي المتولد عن إضراب التبغ بلغ ذروته في الثورة الدستورية لعام 1906، حين أجبر تحالف من العلماء الليبراليين والتجار وأفراد من الشريحة المثقفة المتغربة الشاه على الدعوة لعقد جمعية وطنية والقبول بشكل من أشكال الحكم

بدأ تاريخ إيران الجديد مع السلالة الصفوية (1501-1722)، التي اتخذت من المذهب الشيعي الاثني عشري ديناً للدولة. ومؤسّس الأسرة الصفوية هو الشيخ صفي الدين (1252-1334) الذي كان شيخاً صوفيّاً ومجدداً للولاء السنيّ، وقد استهلّ حركة من الإصلاحات بين القبائل شرق الأناضول وشمال غربي إيران. أما خلفه الشاه إسماعيل (1487-1524)، فقد أحيا آمال الأخوية الشيعية في فترة الغوضى التي سادت عقب انهيار الدولة التيمورية بأن أعلن نفسه «الإمام المستور»، أو المخلص المنتظر لدى الشيعة. أتاحت هذه الحركة، وفي مقدمتها عصبة مُرعية من المحاربين يُعرفون بـ«القرلباشي»، أي أصحاب الرؤوس الصهباء (نسبة إلى العمامة الحمراء التي



كانوا يعتمرونها)، أتاحت للشاه إسماعيل، الذي كان أعلن نفسه ملكاً في تبريز عام 1501، بأن يخضع لأمره معظم الأراضي الإيرانية في غضون العقد التالي. بالرغم من أن سلطان الدولة الصفوية من عاصمتها الجديدة الرائعة أصفهان التي بناها الشاه عباس الأول (1588-1629)، لم يكن مطلقاً لاعتمادها في موارسته على شبكة من «الأوقاف» (شيوخ القبائل الصغار)، وعلى نظام الإقطاع التقليدي في الزراعة الخراجية، فإن استراتيجيّة الاندماج الديني التي اعتمدها الصفويون منحت إيران طابعها الشيعي المميّز الذي ما برحت تحتفظ به إلى يومنا هذا. ما إن أدى القرلباشي المهمّة المنوطة بهم حتى خفّت نبرة التشديد على مزاعم إسماعيل «المهدوية»، واستقّدم فقهاء شيعة من سورية والعراق والبحرين والإحساء لإعلاء شأن الصيغة «الرسمية» من الشيعة الاثني عشرية، ومؤداهما أن عودة الإمام المهدي المنتظر مؤجّلة إلى أجل غير مسمى. فنمّع المذهب السنيّ، ودنّست أضرحة الأولياء الصوفيّين، وأفردت الخانقانات استعمال الشباب الشيعة. كذلك تعرّض

الشاه سليمان وبعض خاصّته، فضلاً عن ضيوف غربيين، يظهرون هنا على خلفية منظر طبيعي من النمط الأوروبي الشاعري كان الحكام الصفويون يُصدرون السجاد والحرير إلى أوروبا، وكذلك الأتية الخزفية من تصميم حرفيين صينيين إلى أسواق الغرب. لقد أفلّحوا عن إيداع ذلك العداء الديني الموهود حيل تصوير الأشخاص بالزعم أن الإمام عليّ، الذي يبهجه الشيعة، كان هو نفسه رسماً وخفاه أيضاً.

البرلماني، تلت ذلك فترة وجيزة من الحكم الدستوري، برزت خلالها إلى السطح حالة من التوتر بين العلماء المحافظين والعلماء الليبراليين، ولم تنتهِ إلا على أيدي الروس عام 1911 حين تدخلوا لإعادة حكم الشاه الأوتوقراطي ثانية.

في عام 1925، وصل إلى السلطة ضابط من كتيبة فرسان القوزاق، هو رضا خان بهلوي، وذلك بعد فترة من عدم الاستقرار أعقبت الثورة الروسية. أقام رضا شاه نظام حكم يتميز بنزعته التحديثية الجذرية، وقد سعى ذلك النظام إلى تحطيم سلطة زعماء القبائل والحد من استقلالية رجال الدين عن طريق إدخال التعليم المدني العلماني وفرض إشراف الدولة على المدارس الدينية. كذلك أقيمت المحاكم المدنية التي جردت العلماء من احتكارهم للشؤون القضائية، بما في ذلك معاملات تسجيل وانتقال ملكية الأراضي التي كانت تدر عليهم أموالاً طائلة. وخلال الحرب العالمية الثانية، احتاجت بريطانيا وروسيا إلى حكومة إيرانية طيعة لتسهيل أمر وصول الإمدادات الحربية إلى الجبهة الشرقية، فأجبرتها رضا شاه على التخلي ونصبها مكانه ابنه الشاه محمد رضا بهلوي.

وبعد الحرب العالمية الثانية، صار النفط، الذي اكتُشف لأول مرة في العام 1908، وتمّ تسأجيره للبريطانيين بموجب الامتيازات السخية الممنوحة لهم، محل نزاع وتنافس حين حاول رئيس وزراء إيران الوطني، محمد مصدق، تأميم شركة النفط الإنجليزية - الإيرانية. وفي خضم الأزمة الناجمة عن مقاطعة شركات النفط الغربية للبترول الإيراني، تدخلت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية (سي آي إيه) لمساعدة الجيش في إعادة أسرة بهلوي إلى سدة الحكم الأوتوقراطي من جديد.

كان انهيار نظام حكم الشاه في العام 1979 وقيام الثورة الإسلامية بعيد ذلك، حصيلة مجموعة مركبة ومعقدة من العوامل الاقتصادية والثقافية والسياسية. فبدلاً من أن يعود برنامج الإصلاح الزراعي الطموح الذي نفذته الشاه في ستينيات القرن العشرين بالفائدة على صغار الفلاحين ممن يستأجرون الأرض أو ممن لا يملكون أية أرض بالمرّة، جاء محابياً للشركات الكبرى ومشاريع الأعمال في قطاع الزراعة التي كان للعائلة المالكة مصالح أكيدة فيها. زد على ذلك أن البرنامج

المذكور عمل على تغفير رجال الدين، والعديد منهم كانوا هم أنفسهم ملاك أراضٍ أثرية أو قُيُمن على مساحات شاسعة من أراضي الوقف. والارتفاع المفاجيء في أسعار النفط بعد عام 1973، ضاعف من ثروة القطاع الاقتصادي العصري الصغير، إنما أثار سلباً على قطاع الأعمال الصغيرة المرتكزة في مجتمع «البازار»، الوثيق الصلة برجال الدين. كذلك، فإن فساد أسرة بهلوي والقمع الوحشي الذي كان يُمارسه البوليس السري (السافاك)، أسهما في تعميق اغتراب الطبقة الوسطى المتعلّمة، ولا سيما جيل الطلاب الشباب المتأثرين بالماركسية أو بالنسخة اليسارية من الأيديولوجيا الإسلامية كما كان يروج لها الدكتور علي شريعتي، وجمال علي أحمد صاحب الكرّاس بالغ التأثير الذي يحمل عنوان: «التقسيم الغربي». لقد شكّل النازحون من الريف إلى المدن مادة لثورة سريعة الانتهاب.

بمقتضى صفقة توصل إليها الشاه مع صدام حسين، طرد العراق رجل الدين المنقذ آية الله روح الله الخميني من الحوزة الشيعية في النجف، حيث كان يدعو في دروسه إلى إحياء الحكم الإسلامي تحت إشراف العلماء، فتلقى محاضراته أذاناً صاغية من رجال الدين والطلاب على حد سواء. ومن منغاه في إحدى ضواحي باريس، وجد الخميني منفذاً إلى وسائل الإعلام العالمية، فيما كانت الأشربة المسجّكة بصوته لغتاويه وخطبه المنددة بالشاه تُهرّب إلى داخل إيران. في مستهل عام 1979، وقعت سلسلة من المظاهرات الحاشدة تزامنت مع إحياء ذكرى عاشوراء، اضطّر معها الشاه إلى مغادرة البلاد إلى المنفى، فعاد عندئذ الخميني إلى دياره ليستقبل استقبالاً صاعباً. ولعدة عشر سنوات، أي إلى حين وفاته عام 1989، حكم الخميني الجمهورية الإسلامية بوصفه المرشد الديني الأعلى. وإذا كان آية الله الخامنئي، خلف الخميني كأعلى سلطة دينية في البلاد، يعتقد إلى الجاذبية الزعامية التي كان يتمتع بها سلفه، فإن الحق المخول إلى «مجمع تشخيص مصلحة النظام» الذي يسيطر عليه في فحص واختيار المرشحين لعصوية البرلمان، قد أعاق إلى حد بعيد قدرة هذا الأخير على إدخال إصلاحات تعتبرها المؤسسة الدينية مناقضة لمصالحها.

## آسيا الوسطى إلى العالم 1700

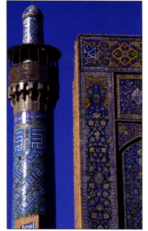
بذلك أمبراطورية سوف تمتد في أوجها من غرب الهند (بما في ذلك دلهي) إلى سواحل البحر الأسود. وقد طبقت شهرته الآفاق في أوروبا عندما هزم العثمانيين في أنقرة عام 1402، حيث أسر السلطان بايزيد الأول (ح 1389-1402). وهذا اللؤلؤ الذي اعتور قوة العثمانيين في الأناضول خفف من الضغط على القسطنطينية، التي ستجود لمدة نصف قرن آخر، وأعاد فتح طريق التجارة إلى الصين. في حين ساعدت الهزيمة التي أنزلها تيمورلنك بالقبيلة الذهبية في صعود نجم روسيا المسيحية.

في عهد تيمورلنك وخلفه أولغ بك (ح 1404-

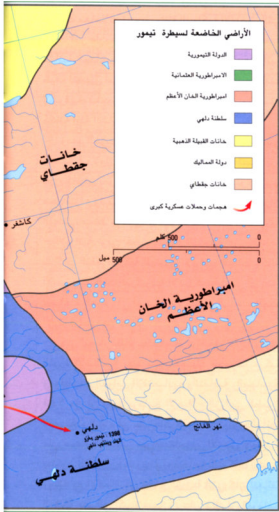
على غرار تاريخ الهلال الخصيب حيث ظهر الإسلام، حكمت تاريخ آسيا الداخلية العلاقة ما بين الأقوام الروعية البدوية والأقوام الحضارية المستقرة. في تلك السهوب الرحبة شبه القاحلة، الواقعة إلى الشمال من البحر الأسود وبحر قزوين، عاشت شعوب تعتمد في معاشها بالدرجة الأولى على الأبقار والخيول والماعز والغنم والإبل والياك. كانت تلك الشعوب منظمة في جماعات قرابية أبوية أساسها الحوامل والأفخاذ والبطون والعشائر وما ينجم عن اتحادها من قبائل، كتلك التي انضوت أكبرها تحت لواء جنكيزخان وخلفائه. فبقية ابن جنكيزخان، باتو (ح 1227-

1255)، اتخذت «القبيلة الذهبية»، المشكلة من أقوام مغولية - تركية عرفت بالتتار في روسيا، قاعدة لها من سرايتين (مفردها سراي، وتعني مقر البلاط) على نهر الفولغا، ومن هناك فتحت أوكرانيا وجنوب بولندا والمجر وبيلغاريا وروسيا، حيث أقامت أمبراطورية مترامية الأطراف كان فيها الحاكم في موسكو بمثابة دافع الجزية الرئيسي. دخلت الأسر التتارية البارزة في الإسلام منذ منتصف القرن الثالث عشر بعد اتصالها بالشعوب المستقرة في إيران وخوارزم وبلاد ما وراء النهر. والإسلام الذي حملته التجار والدرافيش الصوفيون المتنقلون على طريق الحرير إلى مناطق آسيا الداخلية، اكتسب هناك طابعاً غريباً وتعديلاً بفعل احتكاكه بالزرادشتية واليهودية والمسيحية النسطورية والديانات الشامانية الأقدم عهداً.

كان لدخول ترمارشيرين في الإسلام، وهو الذي حكم مدة ثماني سنوات (1326-1334) بلاد ما وراء النهر التي كان أورشها جنكيزخان لابنه جغتاي، عاقبة تمثلت بانشقاق أصاب عشيرته. وقد عرف تيمورلنك، وهو فرد حاز على احترام عشيرة التركمان الفقيرة، كيف يستثمر هذا الانشقاق بذكاء. بالرغم من أنه ولد أعرج، فقد كان تيمور (أو تيمورلنك كما يُعرف في الغرب) استراتيجياً سياسياً لمعياً وقائداً عسكرياً فذاً طوال فترة حكمه (1370-1405). فبتوحيده بلاد ما وراء النهر وإيران (التي كانت محكومة فيما سلف من قبل الإيلخانيين، أحفاد هولاكو)، أعاد تيمورلنك السلطة التركية - المغولية إلى آسيا الوسطى، خالقاً

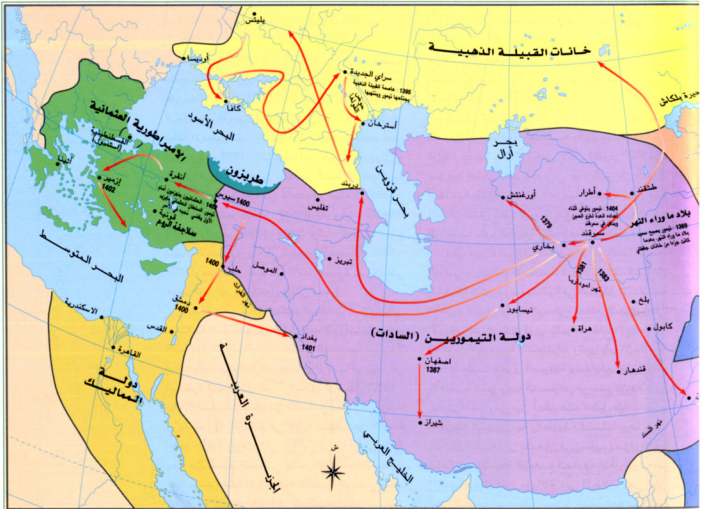


مسجد الشاه (مسجد الإمام حالياً) في أصفهان بإيران. وقد حملت منذئذ اسمي «الله» و«محمد» بأحرف هندسية بارزة. كان بناء المسجد في الفترة 1612-1630، وتُلمّس زخرفته الرائعة بالقيشاني الأزرق في حد ذاتها أسلوب الشاه عباس والأبهة التي كان عليها.



العالية الإسلامية، تلك الثقافة الممتازة التي سيقْلدها من جاء بعده وإنْ بمزید من الصقل والإتقان. كما عُرِف عنه تسامحه وسعة صدره في الأمور الدينية. صحيح أنه كان مسلماً سنيّاً قام بفتحوحاته باسم الشريعة ويذريعة أن أعداء زنادقة ومرتبون عن الإسلام، غير أنه حمى الشيعة من كل أذى. كما كان مشايخ الصوفية يُسدونه النصائح الروحية. وفي تلك الفترة بالذات، خرجت إلى حيز الوجود الطريقة الصوفية النقشبندية، التي سُميت كذلك نسبة إلى بهاء الدين النقشبندی المتوفى عام 1389، والمدفون بالقرب من مدينة بُخارى، لتضرب من ثم جذورها عميقاً في عموم آسيا الداخلية.

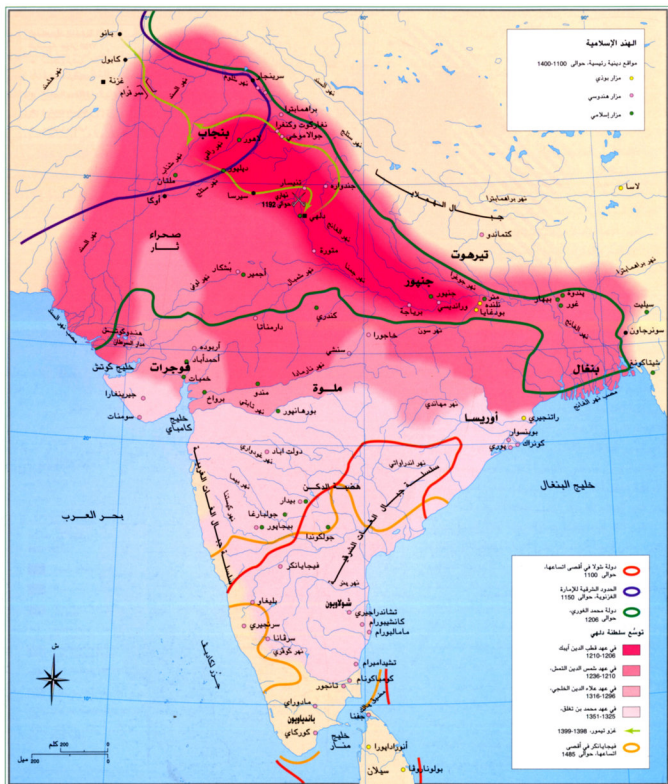
1449)، وتحت حُكم الشهبانيين الأوزبك (1500 - 1700) الذين ورثوا سلطة التيموريين في آسيا الداخلية، تحوّلت مدن هراة وسمرقند وبُخارى إلى حواضر من الطبقة العالمية. فقد ازدهرت تلك المدن بالغنائم ويأروع ما أبدعه الحرفيون والفنانون الذين استقدمهم تيمورلنك وخلفاؤه من بلاد فارس والهند والعراق وسورية. لكن تيمورلنك، وبالرغم مما عُرِف عنه من قسوة ووحشية فائقة (حتى إنه أمر قتل استسلام دلهي له بالإجهاز على آلاف الأسرى الذكور كي لا يتسنى لهم الالتحاق بأعدائه)، لم يكن بذاك الهمجى الجاهل البتة. فقد كان يجيد الفارسية، ويحيط بنفسه بكوكبة من أئمة العلماء والدارسين والفنانين والمؤرخين والشعراء في عصره؛ واضعاً المواصفات للثقافة

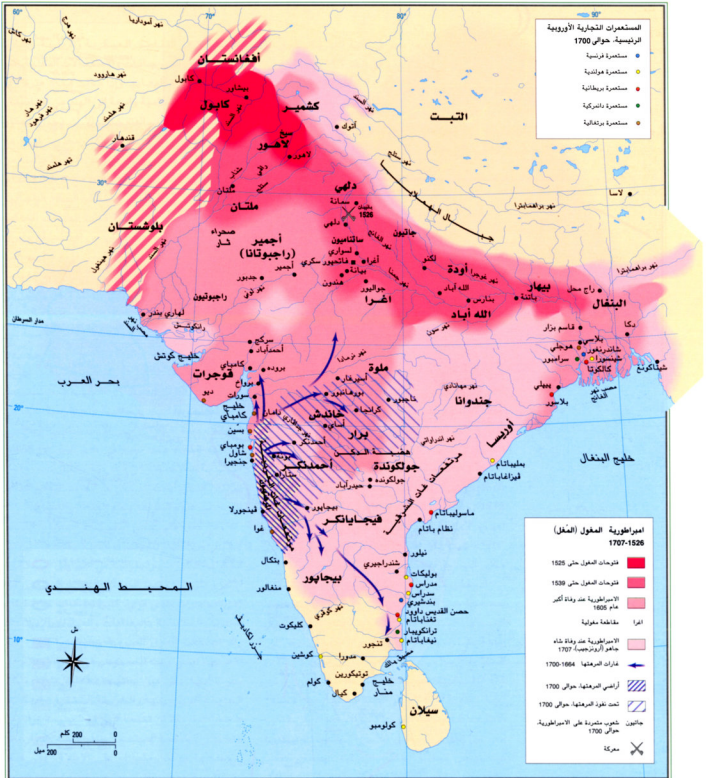


## الهند 711 - 1971

المسلمين في المناصب العسكرية والإدارية، وشارك شخصياً في المهرجانات والاحتفالات المحلية، كما سمح بتشديد المعابد. وإذا كانت هناك فترة أولى تميّزت بهجرة إسلامية واسعة إلى الهند من أفغانستان وآسيا الوسطى عقب الفتوحات، إلا أن دخول السكان المحليين في الإسلام كان بطيئاً ومحدوداً نوعاً ما. فمن المشكوك فيه أن يكون أكثر من 20-25 بالمائة من سكان الهند تحولوا إلى الإسلام، مع تركّز تجمعات المسلمين في وادي السند ومنطقة الحدود الشمالية الغربية والبنغال. وفي حين كانت الطبقات الحاكمة من أحفاد المحاربين القادمين من أفغانستان وإيران وآسيا الداخلية، كان المسلمون في معظمهم من الطبقات الهندوسية الدنيا أو من الفئات القبلية والرفيعة التي شهدت حياتها تحسّناً بانضمامها إلى طائفة الحكام الدينية. هذا وقد انعكس التنوع الخصب في العقائد والعبادات والتقاليد الإسلامية بين المسلمين الهنود، سُنّة وشيعية ومتصوفة، بعدد وافر من الأشكال المختلفة. فالطابع التعديدي للإسلام الهندي انعكس في التراث المعماري المهيّب حيث امتزجت «الموتيفات» البلدية، الإسلامية والهندوسية، معاً في توليفة جديدة خلّاقة. وحتى الأدب التقوي الإسلامي، بما فيه الشعر، كنّت تجده في عدد كبير من اللغات الهندية، بالإضافة إلى العربية والفارسية، وهما اللغتان اللتان كانت تُدرّسان في معاهد التعليم العالي إلى جانب علوم الشريعة وعلم العقائد والتصوف. وفي حين غلب على الطبقات الحاكمة النمط المدني من الحياة الإسلامية، الذي لا يختلف كثيراً عن الثقافة الكورنومبوليتانية في المناطق الإسلامية الأخرى كإيران وآسيا الوسطى، احتفظ المسلمون في الأرياف بتراث بلدي قوي، كثيراً ما كانت تختلط فيه الطوقس الهندوسية بالمعتقدات والعبادات الإسلامية. وقد اضطلت الطرُق الصوفية ومشايخها بدور بالغ الأهمية على وجه الخصوص في نشر الإسلام في جنوب آسيا. ومن بين أعظم هذه الطرُق شأنًا، نذكر: الطريقة السُهروردية والطريقة الششتية. وإذا كانت هاتان الطريقتان تتّبعان في تنظيمهما تراتبية تتماشى وطبيعة المجتمع الهندي، إلا أن أدوارهما الاجتماعية لم تكن متماثلة على الإطلاق. ففي حين أبقي السُهرورديون على صلات وثيقة لهم بسلاطين

ظهر الإسلام أول ما ظهر في شبه القارة الهندية مع فتح العرب لبلاد السند في الفترة 711-713. وفي القرن العاشر، تمكّن النعاة الفاطميون الآتون من القاهرة من إقناع أمراء محليين في مَلتان باعتراف المذهب الإسماعيلي. غير أن هؤلاء استبدلوا بولاة من السُنّة عندهم الغوريون في أعقاب اكتساح البنجاب من قبل محمود الغزنوي الذي انتهب لاهور وعاث في شمال الهند خراباً ودماراً في العام 1030. بدأت عملية الاستيلاء المنتظم على شبه القارة الهندية مع الغوريين الذين احتلوا مَلتان ولاهور ودلهي في الفترة 1175-1192، قبل أن يعمد أحد قوادهم، قطب الدين أيبك، إلى تأسيس أول سلطنة من عدة سلطات مستقلة في دلهي. وقد دامت هذه السلطات من عام 1206 إلى عام 1526 في ظل سلسلة متعاقبة من مختلف السلالات الحاكمة. أسهمت سلطات دلهي في إرساء الطابع المميّز للإسلام الهندي، وهو إرث تعهّدته بالرعاية إمبراطورية المغول التيموريين التي تأسّست على يد حفيد تيمورلنك، بابر، عام 1526. وقد امتد الزمن بهذه الأخيرة ما يوفى على ثلاثة قرون، إلى أن حلّها الإنجليز عقب «التمرد» أو العصيان الكبير الذي اندلع عام 1858. اشتملت إمبراطورية المغول (أو المغل) في الهند على عدد من السلالات الحاكمة الإسلامية المستقلة التي قامت في البنغال (1356-1576)، وكشمير (1346-1589)، وقوجارات (1407-1572)، والدكن (1347-1601). وكان أقصى اتساع لهذه الإمبراطورية في عهد أورانجزيب (ح 1658-1707)، حيث كان اسم هذا الإمبراطور يتردد من على منابر المساجد من كابول وحتى ميسور. البعض من أوائل الحكّام المسلمين كان يتغلّظ حماسةً ضد «عبدة الأوثان» ومهووساً بتحطيم التماثيل الدينية، فدسّر المعابد الهندوسية، مستبدلاً إيّاها بمساجد بالغة الضخامة يَراد منها أن ترمز إلى السيطرة الإسلامية. غير أن سلاة آل تغلق (1320-1413) استهلّت نمطاً من التسامح ساهم في إرساء رؤية تعدّدية للإسلام في الهند تختلف عن الأنماط الأشد صرامة وتزمتاً التي عرفتها الأزمنة الأولى. فلكي يحذّ من التفوّذ السياسي للأسر الإسلامية المستتبّة، عمد مؤسّس السلالة الحاكمة التغلقية، السلطان محمد تغلق (ح 1325-1351) إلى توظيف أناس من غير





المهيمنة في الهند. فالإصلاحيون، على طريقة شاه وليّ الله، شجّعوا المسلمين على تجنّب التعاون مع السلطة أو الاختلاط الاجتماعي مع غير المسلمين. وبينما استمرت الممارسات التقوية الصوفية، ومن بينها التردّد على مزارات الأولياء والصالحين وإقامة المهرجانات الشعبية الزاهية، تجذبت إليها الفقراء، أحرزت التيارات الإصلاحية تقدماً في أوساط المهنيين المتعلمين وطبقتهم الصاعدة. فأرانيا حركة ديوباند الإصلاحية، التي تأسست عام 1867، تستخدم التقنية الجديدة للطباعة باللغة الأردية، وشبكة السكك الحديدية وهي برعمٌ بعد، للوصول إلى جمهور إسلامي غفير في طول شبه القارة الهندية وعرضها. عمقّة



دلهي، منتفعين هكذا بالهبات والأوقاف التي كان تمنح زعماءهم مكانة الوجهاء والأعيان المحليين، شدّد الششتيون من جبهةهم على رفض كل أشكال الأعباء أو الخدمات الحكومية، مفضّلين كسب قوتهم من زرع الأرض اليباب ومن تصدّق الأشياء عليهم. استخدم مشايخ الصوفية، الذين كانت لهم اليد الطولى في كسب مهتدين جدد إلى الإسلام من بين أفراد القبائل أو المهتمشين، أو من الطبقات الاجتماعية الهندوسية الدنيا، اللغات المحلية، ومن ضمنها اللغة الطقوسية، لإيصال رسالة الإسلام إلى أوساط اجتماعية ودينية تختلف تمام الاختلاف عن البيئة التي ظهر فيها الإسلام. على المستوى الشعبي، لا يهتم كثيراً إن قدّم «الولي» نفسه كسلم أو كمقدّس لشيف. فما كان يحدو الناس إلى إبداء التعلّق الشديد به (يختي)، هو حالة القداسة التي تكتنفه على المستوى الفكري، يمكن العثور على المبررات الفلسفية للتقارب الديني بين الإسلام و«الهندوسية» (وهي، في الواقع، تسمية اخترعها الأوروبيون في القرن التاسع عشر، في كتابات المتصوّف الأندلسي الكبير ابن عربي، الذي تنسجم عقيدته في «وحدة الوجود» مع التعاليم الروحية المنبثقة في السفيّدا، والدأوينشادا. وقد بلغ التناغم الديني الإسلامي – الهندوسي قمته إبّان حكم أكبر الأول (1556-1605)، الذي كان من أتباع الطريقة الششتية، ومن منشئي «الدين الإلهي»، وهو بدعة دينية ملوكية يحتلّ أكبر مركز القلب فيها. جامعاً في شخصه بين دور المعلم الصوفي ودور الملك الفيلسوف.

غير أنه جاء وقت صارت فيه هذه الممارسات، التي ينظر إليها العلماء على أنها توفيقية أو وثنية، هدفاً للهجوم من جانب حركات إصلاحية تستلهم تعاليم أكثر تشدّداً وسلفية منشؤها مراكز الإسلام لسانحية الغرب. وقد تزعم هذا الاتجاه الشيخ أحمد سيرهندي (1564-1624)، ومشايخه شاه وليّ الله (1702-1763). واتخذت ردة الفعل هذه شكلها العمومي بداية مع حفيد أكبر الأول، أورانجزيب، الذي أبطل سياسة الوفاق مع الهندوس. بل إنه فرض الجزية على رعاياه من غير المسلمين، وأمر بهدم المعابد الهندوسية، وأنشأ معاهد إسلامية لتدريس الشريعة، كما حظر الموسيقى في القصر. وقد ساعدت التيارات الإصلاحية على حفظ هوية إسلامية متميّزة طوال قرن من الانحطاط المغولي، حين أضحت بريطانيا القوة

التنوع. وقد نصَّ قانون المجالس الهندية لعام 1909 على وجود جمهوريين للناخبين على المستوى المحلي، واحد هندوسي والآخر مسلم، مُرسِّخاً بذلك الهوية الانفصالية للمسلمين على الصعيدين القضائي والسياسي. ومن هنا، كانت نظرية «الأمتين» القائلة إن المسلمين والهندوس يشكلون أمتين متمايزتين ومنفصلتين، خطوة صغيرة لكن حتمية. والمنطق عينه قضى بأن يكون لمسلمي الهند حقٌّ في وطن خاص بهم. ولذلك قامت دولة باكستان، التي أعلنت يوم

بذلك التمايز الاجتماعي للجاليات الإسلامية. كتب العالم الديوباندي البارز مولانا أشرف علي الثنوي يقول: «إن استحسان تقاليد الكفار وإعلاء شأنها إنَّم كبير». وقد شجّع البريطانيون هذا التوجّه المحبذ للانفصال بين المسلمين، وحرصوا على تأكيد أهمية الروابط الدينية وأولويتها على الانتماءات العائلية والنسبية واللغوية والطوائفية والمناطقية، أو حتى الطبقية، بين شتّى مكوّنات المجتمع الهندي الشديد





موقع يعود إلى معبد إله الأبطال رامنا، وأقدم المتعصبين الهندوس على هدمه عام 1991، ما برح مثار تنازع وخصام شديدين بين الهندوس والمسلمين في الهند، وخلال الاضطرابات الطائفية التي أعقبت هدم المسجد، قُتل آلاف المسلمين. ثم عادت وتكررت القصة بصورة مأساوية عام 2003، عندما هاجم مسلمون في قوجرات حجاجاً هنوداً كانوا عائدتين من أيوديا، مما تسبب باندلاع نزاع طائفي واسع النطاق في المنطقة.



تاج محل في أغرا بالهند (اكتمل بناؤه عام 1653). يُعتبر تاج محل واحداً من أشهر الصروح المعمارية في العالم قاطبة، وهو بمثابة الرمز الحاكم للحكم المغولي في الهند. بناء الأميرطور شاه جهان تخليداً لذكرى زوجته ممتاز خان. وشاه جهان الذي خلع عن العرش على يد ابنه أورجنزيب، مدفون فيه هو الآخر.

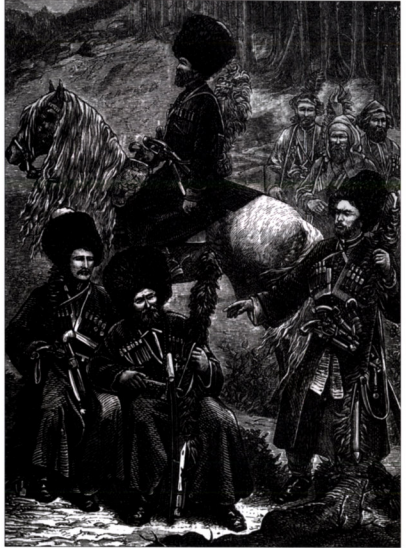
أعطيت الهند استقلالها عام 1947، من تشكيلة متباينة ومتفاوتة من التجمعات السكانية المسلمة المتواجدة في السند، وبلوشستان، والمقاطعة الحدودية الشمالية الغربية، والنصف الغربي من البنجاب، وشطر من البنغال؛ وهذا الأخير منطقة إسلامية بالأساس، ويقع على بُعد ألف ميل أو أكثر إلى الشرق، وتفصله عن سائر المناطق الباكستانية أراضي الهند. في باكستان الغربية، أكثر من نصف سكانها كانوا من أهالي البنجاب، وزهاء 20 بالمئة من أهالي السند، و13 بالمئة من البشتون، و4-3 بالمئة من البلوش، والبقية من «المهاجرين»، أي النازحين من الهند، دع عنك أقليتين صغيرتين، إحداهما هندوسية والأخرى مسيحية. وقد نجم عن تبادل السكان الذي تلا التقسيم، حمام دم مروّع قتل فيه مئات الألوف في أعمال شغب طائفية وعرقية. وتسبب النزاع العالق حول كشمير، التي اختار حاكمها الهنديوسي الانضمام إلى الاتحاد الهندي خلافاً لرغبة السكان المسلمين، في نشوب ثلاث حروب بين الهند وباكستان في الأعوام 1949 و 1965 و 1971، ناهيك عن حلقة لا تنتهي من التمرد والقمع. هذا وقد تجلّت هشاشة باكستان السياسية في تناوب سلسلة متعاقبة من الحكومات العسكرية مع فترات من الحكم الديمقراطي المتقلقل تتولاه أحزاب متهمّة بالفساد وفقدان الشرعية الإسلامية. وفي النهاية، تبين أن الجيش، الذي تمسك بزمامه طبقة من الضباط البنجابيين المدربين على أيدي البريطانيين، هو المؤسسة الوحيدة القادرة على وحده البلاد. في عام 1971، وبمساعدة عسكرية من الهند، انفصلت باكستان الشرقية عن نظيرتها الغربية لتشكل دولة بنغلاديش الإسلامية المستقلة. والعلاقة القائمة على المناكفة والمساكسة بين الهند وباكستان، وكلتيهما الآن دولتان نوويتان، ما برحت تنتظر التسوية والحل. إن تآكل الثقافة العلمانية في الهند من جراء الانبعاث السياسي الهندوسي والزهاب الرسمي من الإسلام الذي تتسامح به من وقت لآخر بعض الولايات، وبالأخص ولاية قوجرات، قد جعل وضعية الأقلية المسلمة المتبقية في الهند - ويبلغ تعدادها زهاء 120 مليون نسمة، أي حوالي 10 بالمئة من مجموع السكان - وضعية شديدة العطب أكثر من أي وقت مضى منذ التقسيم. إلى الآن، والوعي الشعبي الهندي لم يستوعب تماماً الإرث الثقيل للفتوحات الإسلامية. ومصادق كلاماً أن مسجداً في أيوديا، يُقال إن بابر بناه في

## التوسُّع الروسي في ما وراء القوقاز وآسيا الوسطى

القتار. ففي خمسينيات القرن السادس عشر، تأتى لموسكو أن تستوعب دولتي قازان وأستراخان الإسلاميتين المتمتعتين بالحكم الذاتي، الأمر الذي منحها السيطرة على حوض الفولغا والسواحل الشمالية لبحر قزوين، وفتح أمامها السبيل إلى اكتساح السهوب الكازاخية. كان الكازاخيون قد خرجوا من اتحاد القبائل التركية - المغولية الذي أوجد الدولة التيمورية والدول اللاحقة، ويقي «القازاق» (أي الطوافون بحرية) سادة للسهوب. فأقام الروس سلسلة من الحصون ما بين نهري أورال وإرطيش. وهكذا تسنى لهم أن يخضعوا المنطقة بكاملها للسيطرة الروسية؛ ومن أبرز معالم هذه العملية، إلغاء خانات الكازاخيين في عشرينيات القرن التاسع عشر، إلا أن المقاومة الكازاخية المدفوعة إسلامياً سوف تتواصل حتى العقد السادس من القرن عينه.

اتسم الحكم الروسي للسكان المسلمين في مراحله الأولى بمنتهى القسوة والبطش. فقد تعرّضت طبقة الأشراف الثورية للتخصير القسري، وطردت من المدن المهمة، وسُلمت أراضيها إلى النبلاء الروس والأديرة الروسية، الذين قاموا على استغلالها بواسطة الأقنان والرهبان الأرثوذكس. وقد جرى تلطيف هذه السياسة شيئاً ما في عهد الإمبراطورة كاترين الثانية (الكبيرة)، التي نظرت إلى الإسلام على أنه ذو أثر تمدني أكبر من المسيحية. فكثفت للمسلمين حريتهم الدينية، وشيّدت المساجد برعاية الدولة، وأنشئت المؤسسات التي تتمتع بسلطات واسعة على السكان المسلمين. غير أن هذا الوضع ما كان ليديم طويلاً. ففي شبه جزيرة القرم، التي انتزعتها روسيا من قبضة العثمانيين في العام 1783، وضع الروس أيديهم على أراضي القتار وصادروا الأوقاف لصالح المستوطنين الأوروبيين. وإلى مسافة أبعد شرقاً، سقطت الشعوب الرعوية بالأساس في أسيا الداخلية فريسة الأطماع الاستعمارية للجبرلات الروس ورغبة القياصرة في تأمين المصالح التجارية مع إيران والهند والصين، ردةً لأي تنافس بريطاني محتمل. احتكّت طشقند عام

إن التوسُّع الروسي في بلاد ما وراء النهر والقوقاز، هذا الذي سيبلغ ذروته بإدماج ما يربو على خمسين مليون مسلم ضمن الاتحاد السوفييتي، إنما بدأ أول الأمر في القرن الخامس عشر حين تخلص حكام موسكو من نير



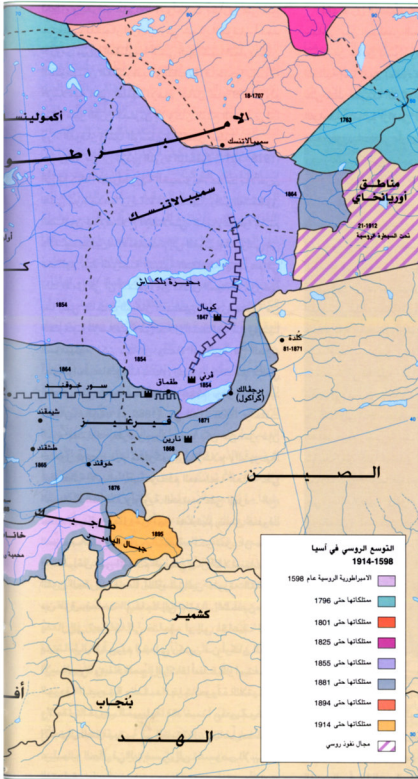
رسم بصور الإمام شامل الداغستاني (حوالي 1797-1871) متمطياً صورة جواده؛ من حفورة روسية تعود إلى العام 1850. حاض شامل غمار حربي بطولية ضد الروس ما بين عامي 1834 و 1859، مشمولاً برعاية حميه الروحي، شيخ الطريقة النقشبندية. صحيح أنه هُزم في نهاية المطاف ونفي خارج بلاده، إلا أن ذكره بقيت حية في داغستان والشيشان، تلهب العواطف وتثير سلسلة لا تنقطع من الثورات ضد روسيا و ضد السوفييت حتى يومنا هذا.

لقد جرى التصديّ لأية إمكانية بقيام تضامن سياسي بين المسلمين السوفييت باتباع سياسة «فرّق تسد» عن سابق تصوّر وتصميم. ودول آسيا الوسطى الحالية إنما تدين بحدودها الإقليمية لستالين؛ فقد ردّ على خطر القومية التركية الشاملة والقومية الإسلامية الجامعة بتقسيم أراضي تركستان الروسية إلى خمس جمهوريات هي: أوزبكستان، وتركمانستان، وكازاخستان، وقيرغيزستان، وطاجيكستان، وقسم وادي فرغانة المزدهر، الواقع في قلب المنطقة والذي طالما شكّل وحدة اقتصادية واحدة، ما بين الأوزبك والطاجيك والقرغيز. وقد استلزمت السياسة التي انتهجها ستالين أن يُصار إلى التشديد على الفوارق الطائفية في اللغة والتاريخ والثقافة بين هذه الشعوب التركية في غالبيتها، وذلك بغية الوفاء بالمعيار اللينيني للقومية الذي ينصّ على وجوب أن تكون هناك لغة واحدة، وأرض موحدة، وحياة اقتصادية وثقافية مشتركة. وعلاوة على الترتيبات الجديدة المتخذة في تقسيم الأراضي بين الجمهوريات، جاء تطبيق مبادئ الجماعة والزراعة الأحادية ليقبّد حركتها إلى أبعد الحدود. فبمقتضى مخطط خروتشوف الخاص بالأراضي البكر، جرى تخصيص مساحات شاسعة من كازاخستان لإنتاج الحبوب. وحين قاوم الكازاخيون - وغالبيتهم من الرعاة - هذا المشروع، جيء بالسلافيين وأقوام أخرى للقيام بالعمل. وفي أوزبكستان، أصبحت حصة القطن من إجمالي الناتج المحلي أكثر من 60 بالمئة، وهذا ما خدم مصالح النخب الحزبية الحاكمة، التي صار بعض من أفرادها ضالعين في عمليات احتيال ضخمة أساسها التزوير المتعمّد والمنظم لأرقام الإنتاج. كما ترك ذلك ذنباً بئيتة وخيمة لأنّه حرم المحاصيل غير القطنية من مياه الري، وجفف الأنهار والبحيرات، بما فيها بحيرة آرال.

وبداعي الارتباب بولاء المسلمين خلال الحرب العالمية الثانية، لأن البعض منهم أبدى تعاوناً مع الألمان، قام ستالين بترحيل سكان الشيشان وأنغوشيا عن بكرة أبيهم، ومعهم جميع التتار القاطنين في القرم، إلى آسيا الوسطى.

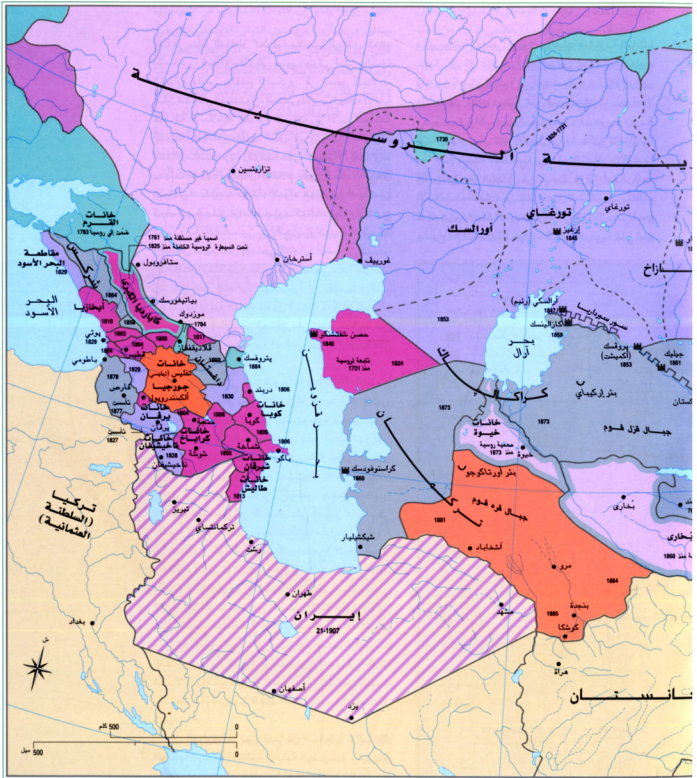
1865، وسمرقند عام 1868، وأجبرت بخارى على فتح حدودها للمتجار الروس. وفي شمال القوقاز، أحمد الروس نيران المقاومة التي ألتهبها الطريقتان الصوفيتان النقشبندية والقادرية، فأطاحوا بالدولة الإسلامية التي أعلنها الإمام شامل عام 1859. ولم يبرز فجر القرن العشرين إلّا وكان الفتح القيصري لما وراء القوقاز وآسيا الوسطى قد اكتمل عملياً.

وبدلاً من أن تؤدّي الثورة البلشفية (1917-1918) إلى تفكيك الإمبراطورية القيصرية، عملت بالأحرى على توطيدها وزيادة تماسكها. وأثر المثقفون المناوون بالإصلاح الإسلامي، الذين عرفوا باسم «التجديدين»، الانضمام إلى الحزب الشيوعي في نضالهم ضد المؤسسة الدينية المحافظة، يحدوهم في ذلك الأمل في أن يتمكنوا من تعديل السياسة الروسية بما يلبي حاجات السكّان المسلمين، وبلورة صيغة من القومية الإسلامية من خلال التحالف مع روسيا السوفييتية. لكن ستالين ودعاة المركزية في الحزب أحبطوا مساعيهم هذا بمتاروتهم ومكائدهم. فألقى القبض على الشخصية البارزة بينهم، وهو مير سعيد سلطان غاليفي (م 1880)، في العام 1928 واختفت آثاره بعد ذلك بغترة وجيزة. مهما يكن من أمر، فإن الشعور بوجود قيم مشتركة بين الإسلام والشوعية، كالعادلة الاجتماعية، وتقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة وأولوية المجتمع على الفرد... الخ، حدث بهم إلى العمل من أجل قضيتهم ضمن صفوف الحزب باتباع أسلوب «التيقّة». لكن سرعان ما تمّ الانقضاض على الإسلام الرسمي إبّان الثلاثينيات من القرن العشرين عندما أطلق ستالين «ثورته الثانية» من فوق. فسُلّمت المساجد إلى «اتحاد المصلحين» كي يُصار إلى تحويلها إلى متاحف أو إلى مقاصف للهو، فيما طال التحريم الفعلي ركّنين من أركان الدين الإسلامي، وهما: الحج والزكاة. أما حظر استعمال الحروف العربية واستبدالها بالحروف اللاتينية، ولاحقاً بالحروف السيريلية، فقد ضمنا صعوبة وصول الأجيال السوفييتية في المستقبل، قياساً بما كانت عليه الحال في الماضي، إلى نصوص الإسلام المتعارف عليها.



لا شك في أن منافع كثيرة نجمت عن التصنيع والقضاء التام على الأمية. إلا أن تدهور القوة السوفيتية بعد الجهاد الذي جوبهت به في أفغانستان، تلازم لا محالة مع انبثاق للأفكار غير الشيوعية، من قبيل النزعات القومية المحلية، والوحدة التركية الشاملة، وأشكال شتى من الإسلام المناضل. لكن هذه الطفرة من النشاط الإسلامي في الفترة التالية لعام 1989، وبعد نصف قرن من الكبت أو يزيد، ربما تعزى جزئياً إلى التقاليد الصوفية الخفية. وحيث إن هذه التقاليد نشأت في آسيا الوسطى أساساً، فقد احتفظت بجذور لها هناك، وتمكنت الطريقة النقشبندية بالأخص من البقاء حية بالرغم من كل ما تعرضت له من حملات اضطهاد وملاحقة، إذ إن طقوسها «الصامته» أتاحت عقد الاجتماعات تحت مسميات أخرى. أضف إلى ذلك أن شبكات الأسر القديمة، القائمة على عصبية المجموعات القرابية الممتدة، لم تندثر بل بالعكس ازدهرت من خلال الإمساك المحكم بالمؤسسات الشيوعية. وفي الشيشان حيث خاضت روسيا حربين وحشيتين في الأعوام 1994-1996 و1999-2002، بهدف قطع دابر الحركات الاستقلالية المحلية، أرى أن في بقاء الشبكات والولاءات الصوفية بعد سبعة عقود من الحكم السوفيتي تفسيراً للنشاط المناهض للروس أكثر إقناعاً من كل ما قيل ويُقال في الكرملين عن المقاتلين الإسلاميين أو «الواهابيين» الذين يؤمنون من الخارج.

الحاصل في آسيا الوسطى اليوم، أنه بالرغم من التراجع الروسي، وخيبة الأمل العامة بالحكم السوفيتي، وانهيار الاقتصادات المحلية، استطاعت الفئات المتنقذة الشيوعية القديمة، الطفيلية والمستأثرة بالامتيازات، من التثبيت بالسلطة تحت يافطة جديدة، يافطة ديمقراطية مزعومة تخفي حقيقة حكمها الديكتاتوري والبيروقراطي.



## انتشار الإسلام في جنوب شرقي آسيا 1500 - 1800

فالبريطانية، وأخيراً تفاوتت درجات المقاومة الناشئة عنها... إن كل ذلك قد أنتج أساليب إسلامية متغيرة وأحياناً متناقضة في أرجاء شبه جزيرة الملايو والأرخبيل الإندونيسي. ثمة قاسم مشترك بينهما، ألا وهو غزارة الأمطار الهاطلة وخصوبة التربة الاستوائية، جعل تلك الأرض أرضاً عالية الإنتاجية، مما فتح شهية المستعمرين على المحاصيل النقدية كالبنّ ولحاء المطاط. في جنوب شرقي آسيا، واجه الإسلام مجتمعات من المزارعين المستقرين، وأنظمة حكم عتيقة يتناقض تجذرها في المكان على نحو صارخ مع انسيابية وحراكية الأقوام الرعوية التي تسم

كما في سائر المناطق الطرفية بالنسبة إلى قلب العالم الإسلامي، قدم الإسلام إلى جنوب شرقي آسيا بواسطة التجارة وليس بالفتح العسكري. في بعض الحالات، كان التجار المسلمون، المتسربلون بالهالة الألفة للثقافة الإسلامية العالية، يُصاهرون الأسر الحاكمة المحلية، فيغدقون عليها المال، ويزودونها بالمهارات الدبلوماسية، ويعرّفونها على العالم الأرحب. وقد سهلت عملية اعتناق الإسلام على زعماء المناطق الساحلية مقاومة سلطة الأمراء الهنودوس المُحكمين قبضتهم على أواسط جاوه. كما استطاع مشايخ الصوفية، القادمون من الجزيرة العربية والهند، والبعض منهم كان يتعاطي التجارة أيضاً، أن يسيطروا على التعاليم الإسلامية على نحو يتسنى معه لمن نشأ وترعرع على التعاليم الهندوسية أن يفهمها ويقنع بها. وطردوا مع توسع نطاق التجارة، أتاح اعتناق الإسلام للجاليات الصغيرة أن تصبح جزءاً من مجتمعات أكبر، وهذا ما انعكس بدوره إيجاباً على تطور التجارة أكثر فأكثر.

غير أن تنامي الإسلام على هذا النسق السلمي والعضوي إلى حد بعيد، اختلّ وإن لم يتراجع بظهور البرتغاليين، الذين فرضوا أنفسهم قوة بحرية كبرى اعتباراً من القرن السادس عشر. فبعد استيلائهم على غوا عام 1509، اكتسحوا ملقا في شبه جزيرة الملايو عام 1511. ومن المفارقة بكان، أن ذلك الاحتلال ساعد في انتشار الإسلام لا العكس، بدفعه المعلمين والدعاة المسلمين إلى التقاطر على قصور الحكام في أنشيه وجاوه، التي غدت بمثابة مراكز لمقاومة البرتغاليين. كما أن ظهور الهولنديين، الذين أسسوا باتافيا (جاكارتا الحالية) عام 1619، بحثاً عن الفلفل وكبش القرنفل وجوزة الطيب، وإن عقد المشهد بعض الشيء، إلا أنه لم يخل دون انتشار الإسلام أو يقلل من جاذبيته في المنطقة. لا بل إن الصراع مع الهولنديين والبرتغاليين، جنباً إلى جنب مع استمرار التوسع التجاري، كانت له نتائج عكسية. إذ حمل في طياته اتصالات بالامبراطورية العثمانية، ودفقا من الفقهاء والمتصوفة، أتين من الهند المغولية، ولاسيما على أنشيه.

إن الفوارق ما بين المناطق الساحلية والمناطق الداخلية، وتركاة الأنظمة الملكية الهندوسية والبوذية، والمؤثرات المتباينة للسيطرة البرتغالية فالهولندية



القول، بوجه عام، أن التراث الإسلامي في أندونيسيا مقبلور في تيارين عريضين: التيار «الأينغاني» الريفى، الذى يتيح قدرًا من التسامح مع الأعراف المتضاربة وأحكام الشريعة الإسلامية، كأنماط التوريت الأمومية الطابع مثلًا؛ والتيار «السانتري» الأكثر تزمًا القائم فى المدن. هذا ولئن كان الإسلاميون المحدثون فى ماليزيا وإندونيسيا يُعارضون على العموم التعددية والتمازج الثقافى، إلّا أن الحقيقة تبقى ماثلة أمامنا، وهى أن كلا البلدين قد عرفا الثورة الصناعية التى وضعتهما فى موقع متقدّم بأشواط بعيدة على إيران وباكستان والبلدان العربية – الإسلامية من حيث التنمية الاقتصادية على الأقل.

التاريخ الإسلامى فى آسيا الوسطى والغربية، فى بعض الحالات، كانت موجات المدّ الإسلامى الآتية من الهند أو الجزيرة العربية تخلف وراءها بقية من طقوسيات وعبادات تدخل فيها تقاليد أقدم زمنياً. فى جواه على سبيل المثال، كان القرويون يصفون أنفسهم بالمسلمين، لكن ثقافتهم الفعلية كانت خليطاً من العناصر الإسلامية والهندوسية والإرواحية. وفى أماكن أخرى، كما فى مينانغو مثلاً، حدث بعد فترة من الانتعاش الاقتصادى فى القرن الثانى عشر، أن سيطرت تيارات إصلاحية تدعو إلى المزيد من التمسك بالشريعة الإسلامية، نجمت عنها مشاحنات ومنازعات اجتماعية انتهت بتوسّط الهولنديين فيها ومن ثم وضع يدهم على المنطقة (1839-1845). يمكن



## الأمبراطوريات البريطانية والفرنسية والهولندية والروسية

كانت التجربة الجديدة سريعة بصورة استثنائية. إذ لم يحل عام 1920، حتى كانت القوى الأوروبية قد طوّقت كوكب الأرض علمياً من أقصاه إلى أقصاه، فيما خلا تلك المناطق التي عُدَّتْ غير مأهولة، أو فقيرة، أو نائية أكثر من اللازم بحيث لا تستأهل إدراجها ضمن المآرب الامبريالية.

وقف قادة المسلمين، وروحيين وزمنيين على السواء، في صدارة الصفوف المُقاومة للاكتساح الأوروبي للعالم. ففي جناه، تزعم الأمير ديبانغارا، وكان ينتمي إلى إحدى الأسر الحاكمة التي استكانت للنفوذ الهولندي وأذعنت لضغوط المزارعين الأوروبيين، ثورة ضمت فلاحين مهجرين وزعماء دينيين دامت من عام 1825 إلى عام 1830. وفي البنغال، حيث كانت شركة الهند الشرقية البريطانية تتعاطى التجارة منذ أوائل القرن السابع عشر، فُتحت الهزيمة التي نزلت بحاكم محلي، هو نواب سراج الدولة، حاول تحجيم الشركة المذكورة، في معركة بلاسي عام 1757، الباب واسعاً للغزو البريطاني. وإثر هزيمة أخرى في بوكسار عام 1764، انتقلت المقاومة الإسلامية إلى مملكة ميسور الهندوسية سابقاً، المترامية الأطراف، حيث نظم حيدر علي، وهو جندي من البنجاب، قوة مقاتلة منضبطة على النسق الأوروبي بمساعدة فرنسية. وقد تمكن ابنه ووريثه، تيبو سلطان (1750-1799) من إحراز انتصار باهر على الجيش البريطاني في معركة كونيغرام، بالقرب من مدراس، قبل أن يلقى حتفه في آخر المطاف عام 1799 في سرينغابتم، وهي المعركة التي أنهت فعلياً كل مقاومة للحكم البريطاني في جنوب الهند. وبعد ذلك انتقل مسرح المقاومة إلى منطقة الحدود الشمالية الغربية، أو إلى داخل صفوف الجيش الهندي ذي القيادة البريطانية. ففي أواخر العشرينيات من القرن التاسع عشر، حاول سيد أحمد بارلوي (1786-1831)، الواعظ والمبشر بالتعاليم التقشفية الإصلاحية، وكان أمضى قرابة ثلاث سنوات في مكة، أن يعيىء البشتون «اليوسفزاي» في مقاطعة الحدود الشمالية الغربية كجزء من حملة أوسع نطاقاً لإصلاح الإسلام الهندي. لكن هدفه المتمثل بإقامة دولة إسلامية على

إن الزيادة الهائلة في قُدرة واقتدار البلدان الأوروبية التي أخذت تتم لها الغلبة على العالم الإسلامي منذ بدايات القرن التاسع عشر، إنما تعود بأسبابها إلى الثورة العلمية التي شهدتها القرن السابع عشر، وإلى الثورة الصناعة المتولدة عنها. قبل منتصف القرن السابع عشر، كانت الحضارتان الغربية والإسلامية على قدم المساواة نسبياً، عسكرياً واقتصادياً. لكن بحلول العام 1800، كان الميزان قد مال على نحو حاسم ودائم لصالح ما صار يُنظر إليه على أنه «الغرب». إن حملة نابليون المشؤمة على مصر، لم يوقفها المماليك الجدد الذين أذاقهم طعم الهزيمة في معركة الإهرامات، بل أنهائها الأميرال البريطاني تلسون، الذي حطّم الأسطول الفرنسي في خليج أبو قير. ومنذ ذلك الحين فصاعداً، سيكون التفافس العسكري والاقتصادي، بين دول أوروبا نفسها، وليس النزاع بين العالم الإسلامي والغرب، هو من سيَقَرُّ الأجندة التاريخية للشعوب المسلمة.

عديدة هي التفسيرات التي سيقَّت للأسباب الكامنة وراء ذلك الانعكاس التصاعدي في قوة أوروبا ومنعتها. وهي تتراوح ما بين روح الرأسمالية المتأنتة عن الإصلاح الديني البروتستانتي، إلى المطالوة عن غير انتظار للثروات المجلوبة من الأميركيتين، إلى المنهجية الجزرية في إخضاع كل شيء دونما استثناء للمساءلة، تلك التي نادى بها الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت، السلف الأكبر للثورة العلمية. وأياً تكن الأسباب، فإن النتائج كانت بعيدة الأثر حقاً، وغير قابلة للرجعة. فقد راحت الرساميل الأوروبية تستثمر بانتظام، والمرة تلو الأخرى، في تمويل الابتكارات والتجديدات التقنية في طُرُق الإنتاج الصناعية، كغزل القطن مثلاً، التي من شأنها أن تقضي بالمنافسة على طُرُق الإنتاج التقليدية. هذا بينما نُشرت القوة العسكرية الأوروبية، المستفيدة من التحسينات التقنية المتواصلة، لحماية الأسواق المعدة لتصرف المنتجات المصنّعة وتوسيعها بكل السبل الممكنة، الأمر الذي أفضى إلى انهيار الاقتصادات المحلية، وتداعي قُدرة البلدان غير الأوروبية على المقاومة. ومن منظور التجارب السابقة، تجربة الدولات الصليبية مثلاً، وتجربة فقدان الأندلس تدريجياً لصالح المسيحيين،

من جهة أخرى، واجه البريطانيون والفرنسيون بدورهم حركات مقاومة مشابهة في جميع أرجاء إفريقيا المسلمة. فقد قاد الأمير عبد القادر، أحد مشايخ الطريقة القادرية، المقاومة ضد الحكم الفرنسي بعد استيلائه على الجزائر في العام 1830. وليس ذلك فحسب، بل إنه أقام دولة إسلامية في غرب الصحراء الكبرى، وقد دامت حتى عام 1847، حين تغلب الفرنسيون عليها آخر الأمر، وأرسلوا عبد القادر إلى المنفى. وفي العام 1881، أعلن محمد أحمد، وهو من مشايخ الفرقة السنانية من الطريقة الصوفية الخلواتية، أنه المهدي المنتظر في منطقة أعالي النيل،

تراب حرٍّ من كل سيطرة بريطانية، أجهض على أيدي الشيخ الذين هزموه في موقعة بالاكوت عام 1831. بيد أن منطقة الحدود الشمالية الغربية بقيت بؤرة لمقاومة الحكم البريطاني زمنًا طويلًا بعد رحيل بارلوي. فما بين عاميّ 1847 و 1908، اندلع ما لا يقل عن 60 تمردًا ضد البريطانيين. والكثير منها كان ذا نبرة «الغية» واضحة، وجميعها تقريباً اكتسبت شرعية دينية بوصفها جهاداً ضد حكم الكفار.

إن العديد من هذه الحركات المناهضة للإمبريالية الأوروبية قادها رجالٌ نشأوا وتمرسوا ضمن قواعد سلوك الطُرق الصوفية وتراتبيتها الهرمية. ففي



وشرٌّ جهاداً ضد الحكومة المصرية ومن يدعمها من الأجانب، بعدما دأبت على التغلغل في المنطقة بإمرة ضباط عسكريين أوروبيين. هذا وقد لقيت الهزيمة التي حلت بخليفة المهدي في أم درمان عام 1898، تهليلاً وترحيباً من ونستون تشرتشل، الذي شهد المعركة، بوصفها «أروع انتصار يُحرّزه في أيما وقت سلاح العلم على البرابرة». «وسلاح العلم» في تلك المناسبة كان المدافع الرشاشة البريطانية. لقد كانت هذه أسلحة مألوفة استخدمت في الحملات التأديبية الصغيرة في معظم أنحاء إفريقيا خلال تسعينيات القرن التاسع عشر، غير أنها استعملت هنا لأول مرة ضد جيش يربو على خمسين ألف رجل.

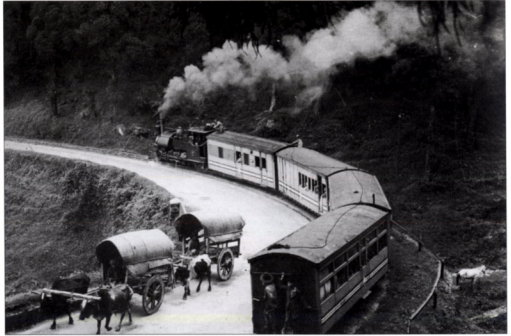
القوقاز، مثلاً، خاض الإمام شامل، وكان من زعماء الطريقة النقشبندية، نصلاً مسلحاً ضد التغلغل الروسي في بلاده دام من عام 1834 إلى عام 1839. وإذا كانت الدولة الإسلامية التي أقامها شامل قد ضُت في النهاية إلى حظيرة الأمبراطورية القيصرية، فإن ذكره بقيت حيّة في وجدان أهالي داغستان والشيشان، الذين قاموا بثورات متعاقبة ضد الروس في الأعوام 1863، 1877، 1917-1919، وكذلك إبّان الحرب العالمية الثانية، ثم ضد إدارتي بوريس يلتسين وفلاديمير بوتين ما بعد الحقبة الشيوعية. وفي ولاية برقة، أضحت الطريقة السنوسية التي قبلت سلطان العثمانيين، مصدراً للمقاومة المنظمة عقب الغزو الإيطالي لليبيا عام 1911.

## الحركات الإصلاحية في القرن التاسع عشر

أريد للإسلام أن يحيا ويزهده في أحوال عصرنا هذا، فعلى المسلمين لزماً أن يعتقدوا العلم الحديث ويأخذوا بأسباب التعليم العصري. وهكذا، أسس السير سيد أحمد خان (1817-1898) جامعة في عليكرة، الغرض منها بناء جيل عصري من الموظفين والمحامين والصحافيين المسلمين - ومن هؤلاء من سبّزعم عندما يحين الوقت الحركة الباكستانية. وثمة مجموعة أكثر محافظة من العلماء الهنود أنشأت أكاديمية في ديوباند عام 1867، جمعت ما بين تدريس العلوم الدينية من قرآن وحديث نبوي وشريعة إسلامية، والعلوم العقلية كالمنطق والفلسفة والعلم. وقد استطاع الديوبانديون هؤلاء من الوصول إلى كل ركن وزاوية من الهند الإسلامية، عن طريق الإفادة من شبكة السكك الحديدية الوليدة لتوزيع المطبوعات باللغة الأردية. وهذا ما جعل من ديوباند مركزاً لمنهج جديد من الوعي الإسلامي الذي سرعان ما امتد إلى سائر البلدان، مع تقاطر العديد من الطلاب عليها آتين من أفغانستان وآسيا الوسطى واليمن، وحتى من الجزيرة العربية. وفي عام 1827، قام أحد خريجي أكاديمية ديوباند، ويدعى مولانا محمد إلياس، بتأسيس «جماعة التبليغ» الإصلاحية. أريد من الجماعة في الأصل أن تدلي بسهمها في هداية المواطنين، وهم جالية فلاحية تقطن بالقرب من دلهي، إلى شريحة إسلامية شديدة التزمت تجمع ما بين الالتزام بالشريعة والتأمل الصوفي في روح النبي محمد كما تمارس الطريقة الششتية التي ينتسب إليها إلياس نفسه. وتعتبر «جماعة التبليغ» التي تتحاشى رسماً التعاطي بأمور السياسة، واحدة من أسرع الحركات الإسلامية نمواً في العالم، حيث تتواجد لها فروع في أكثر من تسعين بلداً. ولعل أوسع المصلحين نفوذاً وأعظمهم تأثيراً في مصر، هو الشيخ محمد عبده (1849-1905)، الذي كان في الأصل من أتباع داعية الوحدة الإسلامية الجامعة المعادي لبريطانيا، السيد جمال الدين الأفغاني (1839-1897). لقد رافق عبده الأفغاني إلى منفاه في باريس بعد الاحتلال البريطاني لمصر، حيث أصدر أصدراً سوية مجلة «الغروة الوثقى» باللغة العربية، التي وإن لم تعمر طويلاً إلا أنها كانت ذات نفوذ لا يُنكر. في عام 1885، تحلل عبده من عداء مُرْشده للأمبريالية، وقرّر لدى عودته إلى مصر عن طريق سورية، العمل على

كان لحركات التجديد، أو الإصلاح، التي هيمنت على الفكر الإسلامي والممارسة الإسلامية منذ القرن الثامن عشر، بُعدان: داخلي وخارجي. داخلياً، إن مثال النبي محمد في مهاجمة عبدة الأوثان في مكة باسم دين التوحيد «الأصلي» الذي علّمه الله لأدم، ومن ثم لإبراهيم وإسماعيل، وما تلا ذلك من هجرته إلى المدينة وبنائه مجتمعاً جديداً، وتطهيره مكة من كل مظاهر الكفر والشرك بعيد عودته مظفراً إليها، ليعُدّ بحد ذاته نموذجاً إرشادياً وإطاراً مرجعياً للإصلاح الديني المنشود. وقد رأينا، على امتداد التاريخ الإسلامي، أناساً يتصفون بالعلم والصلاح يتبنون هذا المخطط النبوي، فيتصدّون لحكام فاسدين أو يستبدلونهم باسم العودة إلى الإسلام الحق، إسلام محمد وأبناء جيله. لقد ظهرت العديد من هذه الحركات في بحر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؛ بعضها كان بمثابة ردّة فعل دينية على ممارسات محلية، من قبيل عادة زيارة أضرحة الأولياء ومشايخ الصوفية التي أذناها الوهابيون العرب؛ وثمة غيرها، كالحركات الإصلاحية في منطقة السنغال - غامبيا في غرب إفريقيا، اشتملت على مقاومة محلية ضد النُخب السياسية غير المسلمة. فيما كانت الكثرة منها، كالحركات الجهادية في منطقة الحدود الشمالية الغربية للهند أو المهديّة في السودان النيلي، مجرد ردّة فعل ضد التغلغل الأوروبي.

بيد أن معظم الحركات النضالية للمقاومة والإصلاح أبصرت النور بين أقوام قبلية تعيش على أطراف العالم الإسلامي. وحتى لو كان على رأسها رجال علم من أمثال المهدي محمد أحمد أو عثمان دان فوديو، ما كان ليكتب لها النجاح ما لم تستند قوة عسكرية - قبلية. وما إن اتضح أن الطول العسكرية مألها الفشل بسبب القدرة الكاسحة التي يتمتع بها الغرب، حتى بدأ المفكّرون المسلمون بمقاربة السيناريو الإصلاحي بطريقة عقلانية. ففجأة كانت الحركات ذات القاعدة القبلية تُميّز ما بين الممارسات الدينية السلمية والبدع غير المقبولة بالمرّة، كان المصلحون العقلانيون يعملون على تجديد الإسلام من خلال التمييز بين «أصول» الإسلام التي لا تقتزن بزمن معين وقابلة للتكيف في كل آن، وبين «الفروع» التي تنطبق على ظروف بعينها. لقد أدرك المصلحون جميعاً أنه إذا



قارطة بخارية تجر وراءها عربات  
القطار المكثفة بالركاب على سكة  
دارجيلنغ الضيقة (حوالي العام  
1900). استغلت حركة دهبواندي  
الإصلاحية شبكة السكك الحديدية  
لنشر أدبيات الإسلام في أرجاء  
الهلال، مما عزز شعور المسلمين  
بكونهم جالية متميزة في الهند.

هذا المصلح الكبير من خلال أحكامه الشرعية وكتابات ومحاضراته، وبعد وفاته من خلال دورية «المنار» لناشرها مريده السوري محمد رشيد رضا، المنتمي إلى الطريقة النقشبندية الإصلاحية، التي استمرت في الصدور من عام 1897 إلى عام 1935. إن تأثير محمد عبده كمجدد للإسلام الحديث، لا يمكن الاستهانة به على الإطلاق. لنأخذ على سبيل المثال، حركة «المحمدية» التبشيرية التي تأسست على يد أحمد دحلان وتتخذ من جاوه في جنوب شرقي آسيا قاعدة لها، والتي تضم حالياً ملايين المنتسبين من كلا الجنسين؛ إنها تدين بالكثير الكثير لأفكار محمد عبده بالذات. في العالم العربي، يُعد دحلان، إلى جانب الأفغاني، المؤسس للحركة السلفية التي تستلهم مثال «السلف الصالح»، المتعارف عليه كلاسيكياً بأنه الأجيال الثلاثة الأولى من المسلمين الذين تلقوا رسالة الإسلام في سياقها الأصلي. والسلفيون المحدثون الذين يستطيعون الادعاء بأنهم جزء من تراث عبده الفكري، يتراوحون ما بين النشطاء المكافحين لإقامة دول إسلامية حديثة بوسائل العنف إذا لزم الأمر، والقوميين العلمانيين الذين يفسرون أفكار عبده بأنها تتطلب فصلاً تاماً بين المجالين السياسي والديني.

وفاق مع السلطات البريطانية، التي رأى فيها قوة ضرورية لعملية التحديث. وبعدما ترقى في مدارج القضاء ليصبح المفتي الأكبر لمصر، سعى عبده إلى تحديث الشرع الإسلامي، وإلى إدراج مواد تعليمية مثل التاريخ الحديث والجغرافيا في مناهج الأزهر، أبرز مؤسسة تعليمية للإسلام السنّي. وقد أبدى عبده عناية استثنائية بمبدأ «المصلحة» كي يتسنى له تعديل القوانين بما يتماشى واحتياجات العصر، قائلاً بما معناه: «إذا أصبح حكم من الأحكام مبعثاً لفسادة أو ضرر لم يكن له في السابق، فحق علينا أن نيزله تبعاً للظروف الراهنة». آمن عبده بأن الوحي، إذا ما فهم على الوجه الصحيح، لا يتضارب أبداً مع العقل، لأن الإسلام «دين طبيعي»، خلقه الله ليلائم الشرط الإنساني. وعلى غرار أحمد خان، سعى عبده إلى التمييز بين ما هو جوهرى وما هو غير جوهرى في الوحي، بحيث تصان الجوانب الجوهرية، وتنبذ الجوانب التي كانت من الوجهة التاريخية عارضة أو محددة بزمن معين. فعارض دونما كلل ما كان يرى فيها نزعة محافظة ضيقة الأفق لدى رجال الدين والعلماء التقليديين. ومثل أحمد خان كذلك، شدّد عبده على الحاجة الماسة إلى تطبيقات جديدة لمبدأ الاجتهاد بما ينسجم وظروف العصر الراهن. هذا وقد انتشرت آراء

## تحديث تركيا

سانداً في فرنسا أو بروسيا ما قبل الثورة، وإصلها خلفاؤه في سلسلة من البرامج عُرفت بـ «تنظيماتي خيرية» (أي التنظيمات الميمونة) ودامت قرابة أربعة عقود من عام 1839 إلى 1876. فأدخلت بمقتضاها الخدمات البريدية والبرقية الحديثة، وكذلك السفن البخارية والسكك الحديدية، إلى جانب إصلاح النظام القضائي إصلاحاً جذرياً من خلال استحداث محاكم على النمط الغربي ونشر المدونات الحقوقية. كذلك اعتمدت مدونة جديدة للحقوق المدنية، عُرفت بـ «المجلة»، التي وإن أخذت بأحكام الشريعة الإسلامية من حيث المضمون، إلا أنها اختلفت عن العرف المتبع بأنها كانت تطبق من قبل محاكم الدولة.

وفي عام 1855، جرى استبدال «الجزية»، وهي الضريبة الرسمية على أتباع الأديان الأخرى، بضريبة تُستوفى مقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية. وهكذا قامت الحكومة المركزية الجديدة، التي كانت في طور التكوين آنذاك، على قاعدة اجتماعية قوامها موظفون بهروقراطيون جدد مدربين تدريباً مهنياً رفيعاً. فتمتعت الطبقة الوسطى المدينية الصغيرة بوضع اقتصادي ناهض، أتاح لها أن تتحدى البنية السلطوية

يعود تحديث تركيا إلى قرنين من الزمن خلتها، حين حاول السلطان العثماني سليم الثالث (1789-1807) إدخال سلسلة من الإصلاحات التعليمية والعسكرية في البلاد. وقد هدّت مساعيه هذه بالخطر مصالح رجال الدين والإنكشارية، فأقدموا على عزله. لكن بعد هزائم متكررة منيت بها السلطنة في القوقاز واليونان، بذل خلفه محمود الثاني (1807-1839) جهوداً متجددة للإصلاح بإنشائه مدارس جديدة ذات توجه غربي، وقضائه على الإنكشارية، وحله الطريقة الصوفية البكتاشية المرتبطة بهم. وقد ضعفت استقلالية العلماء كثيراً بوضع الدولة يدها على الأوقاف والمحاكم الشرعية والمدارس الدينية. وحدث انفصال رمزي ما بين الدين والدولة بصدر مرسوم يحظر بموجبه اعتماد العمامة: هذه العمامة التي غالباً ما كانت علامة فارقة تدل على انتساب صاحبها إلى إحدى الطرق الصوفية. ففجأ عدا تلك التي يعتمرها العلماء الرسميون، جرى استبدال العمامة بالطربوش، تلك القبعة الأسطوانية الشكل المصنوعة من المخمل الأحمر والستوردة من المغرب. وتطلعات محمود إلى خلق دولة ذات حكم مطلق ومركز، على النهج الذي كان



صورة التقطت للقوات البريطانية التي نزّلت، سويةً مع قوات الحلفاء الأخرى، في شبه جزيرة غالابويدي ما بين 25 نيسان/أبريل 1915 و9 كانون الثاني/يناير 1916. كان الهدف من تلك الحملة تهديد إستنبول، وفتح طريق للإمدادات المرسلة إلى روسيا عبر البحر الأسود. أما القوات التركية، فكانت يومئذ بقيادة المقدم مصطفى كمال، الذي أجهض بجرأته وحيويته خطة الحلفاء. وكان لنجاحه هذا أكبر الأثر في وصوله إلى سدة الرئاسة فيما بعد.



بموجبه إصلاحيات «شيخ الإسلام» (المرجع الديني الأكبر في البلاد)، وفُرض الإشراف الحكومي على المحاكم الشرعية والمعاهد الإسلامية. وعلى الرغم من التوجه القومي الذي صبغ حركة «تركيا الفتاة»، إلا أن هدفها كان الاحتفاظ بالشطر الشرقي من الأمبراطورية العثمانية. وهكذا بمساعدة ألمانيا، التي كان مستشاروها العسكريون يقومون بتنفيذ جملة إصلاحات داخل القوات المسلحة، مُمَّخِط سكة حديد برلين - بغداد. كذلك شهد العقد الأول من القرن العشرين بناء «خط الحجاز» الشهير الذي يربط دمشق بالمدينة، علماً بأن وصلة الخط إلى مكة لم تُتَجرَقط

لقد أُريد من شبكة السكك الحديدية، علاوة على تسهيلها حركة انتقال الحجاج إلى الديار المقدسة الإسلامية، أن تضمن كذلك سرعة وصول القوات والإمدادات إلى داخل البلاد لإخماد التمردات القبلية في سورية والجزيرة العربية. ومع ذلك، فقد تواصل خروج المناطق من أيدي العثمانيين خلال العقد الثاني من القرن العشرين، بفقدانهم ليبيا وألبانيا ومعظم ممتلكاتهم الأوروبية في حروب البلقان. وجاءت الضربة القاصمة مع الحرب العالمية الأولى (1914-1918): فبانضمامها إلى دول المحور (ألمانيا والنمسا وألمانيا) ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا، خسرت الأمبراطورية العثمانية ما تبقى لها من ولايات عربية أمام هجوم مثلث الشعب شنته بريطانيا في العراق وفلسطين، وأمام هجوم القبائل العربية بقيادة الأمير فيصل، ابن شريف مكة، وبمعاونة المغامر الإنجليزي توماس إدوارد لورانس، الشهير بـ«لورانس العرب».

لكن تركيا، وبالرغم من خسارتها ولاياتها العربية، احتفظت باستقلالها كبلد مسلم بعد الحرب العالمية الأولى بفضل جهود مصطفى كمال (لقب فيما بعد بـ«أتاتورك»، أي أبو الأتراك). كان مصطفى كمال، الضابط المنتمي إلى «تركيا الفتاة»، قد أنقذ استنبول بدفاعه المستميت عن شبه جزيرة غاليبولي في وجه إنزال القوات الأمبراطورية البريطانية في العام 1915. وبعد تشكيله حكومة قومية مؤقتة، حشد أتاتورك الشعب التركي ضد سُلخ قلب الأناضول عن البلاد، أو التنازل عن أية مناطق لسورية المسيطر عليها من قبل الفرنسيين، وكذلك الأمر بالنسبة إلى اليونان والأكراد والأرمن (الذين قُسمت دولتهم المقترحة في الشمال الشرقي من السلطنة عملياً ما بين تركيا والجمهورية السوفيتية الناشئة حديثاً). وبعدما هزم اليونانيين، الذين سبق وكُوفئوا بمنحهم المنطقة ذات الغالبية اليونانية حول إزمير بموجب شروط معاهدة سيفر

ذات الأساس الديني للجماعات المتسربة برداء الدين. لقد غُيّرت الإصلاحات التي جاءت بها «التنظيمات» الأساس السابق للمجتمع العثماني بتجريدتها المؤسسات التعليمية والقضائية الإسلامية من استقلاليتها ووضعها تحت إشراف الدولة المباشر. وكانت هذه الإصلاحات حافزاً على ظهور حركة «تركيا الفتاة» في أوساط المثقفين الراغبين في السير على النهج الأوروبي. وبالفعل، وصلت طلبية هذه الحركة، وهي «لجنة الاتحاد والترقي»، التي سبق لها أن اندست في صفوف الجيش، إلى سدة السلطة عبر



مصطفى كمال أتاتورك (1881-1938)، مؤسس دولة تركيا العلمانية الحديثة.

انقلاب عسكري قامت به عام 1908. فأجبر السلطان على إعادة العمل بالدستور، الذي كان قد عُلّق عام 1876. صحيح أنه كانت هناك بعد الانقلاب حكومة برلمانية، لكنها كانت بمثابة واجهة فقط، إذ بقيت السلطة الفعلية في يد الجيش و«لجنة الاتحاد والترقي» التي شرعت بتطبيق برنامج للعلمنة الجذرية، خفّضت

عن المحاكم الشرعية. واستُبدلت أحكام الشرع الإسلامي بمدونة سويسرية للحقوق المدنية تتناسب والحاجات التركية. واعتمدت الأبجدية اللاتينية للغة التركية، بعدما كانت تُكتب فيما سبق بالحروف العربية، وذلك بقصد سلب تركيا عن ماضيها الإسلامي، وجعل مكافحة الأمية أسهل مثلاً. وفرض حظر تام على الطرق الصوفية، فلم تجد هذه الأخيرة مناصاً من اللواز بالسرية. كذلك حُرّم ارتداء الطربوش، الذي كان - ويا لسخرية الأقدار! - قد تكرس غطاءً «إسلامياً» للرأس، واستُغض عنه بالقبعة القماشية المستدقة الرأس التي كان يعتمرها العمال الأوروبيون في ذلك الحين.

المذلة لعام 1920، نال أتاتورك اعترافاً دولياً بسيادة تركيا القائمة والناجزة على الأناضول، وأدريانوبل (أدرنة)، وترافيقا الشرقية (تركيا الأوروبية)، وذلك بحسب معاهدة لوزان الموقعة عام 1923. وقد سوى أتاتورك مشاكله مع اليونان بالجوء إلى وسيلة قاسية إنشاً فغالة هي تبادل السكان بين البلدين. وإن وطّد أتاتورك دعائم سلطته بوصفه «الغازي» أو المحارب المنتصر على أعداء تركيا، انكبّ بكلّيته على وضع برنامجٍ للتحديث الجذري موضع التنفيذ. ففي عام 1923، فُصلت السلطنة عن الخلافة، وأُلغيت الأولى. وفي السنة التالية، أبطلت الخلافة أيضاً، فضلاً







سورية ولبنان. لقد أراد الأمير فيصل، ابن الحسين شريف مكة، الذي حرّر دمشق من تركيا العثمانية بدعم بريطاني، أن يجعل من سورية دولة عربية مستقلة وفقاً لتعهد غامض نوعاً ما كان قد تلقاه من السير هنري ك McMahon، المفوض السامي البريطاني في مصر، عام 1915. لكن تبيّن حالماً ما وضعت الحرب أوزارها أن المصالح الإمبريالية سوف تمنح حق الأمم في تقرير مصيرها الذي أعلنه الرئيس الأميركي وودرو ويلسون كأساس للتسوية ما بعد الحرب في أوروبا. والاحتجاج على هذه المعايير المزدوجة التي سمحت بالاعتراف مجدداً بالحقوق القومية لرعايا الدول المسيحية في أوروبا (بمن فيهم التشيك والسلوفاك والمجريون واليهود والإيرلنديون، ناهيك عن رعايا الدولة العثمانية السابقين في البلقان)، وإنكار تلك الحقوق على المسلمين دون سواهم في الوقت عينه، كان لا بد من أن يلهب ويؤجج مشاعر السخط على الاستعمار التي سرعان ما استخراج إلى العلن في سائر ممتلكات السلطنة العثمانية السابقة.

وفي شبه القارة الهندية، احتبس البريطانيون زهاء 560 حاكماً أميرياً - بعضهم مسلمون - داخل فسيفساء من المعاهدات والاتفاقيات المختلفة التي وضعتهم ورعاياهم المسلمين تحت مظلة العرش البريطاني. وفي جنوب شرق آسيا، سيطرت بريطانيا على دويلات الملايو، فيما وسّعت هولندا نطاق سيطرتها إلى ما وراء مستعمراتها الأصلية في جاوه وسومطرة. وفي آسيا الوسطى المسلمة ومنطقة القوقاز، عملت الثورة الشيوعية والحرب الأهلية التي تلتها على ترسيخ أقدام موسكو هناك، في إطار نظام إقليمي جديد.

وفي قلب المشرق بالذات، شرّعت فلسطين أمام الاستيطان اليهودي بموجب شروط الانتداب الذي منّح لبريطانيا من قبل عصبة الأمم. وتبعاً لبنود اتفاقية سايكس - بيكو السرية التي توصلت إليها بريطانيا مع فرنسا عام 1916، بسطت الأولى انتدابها (وهذا تعبير ملطف عن الاستحسان) على شرقي الأردن والعراق، فيما فازت الثانية بالانتداب على كل من



## البلقان، وقبرص، وكريت 1500 - 2000

السود الأعظم من السكّان في البلقان بفضل الدعم العثماني الرسمي للمذهب الأرثوذكسي، هو ما سيجعلهم قبل غيرهم، وأكثر من رعايا السلطنة المسلمين، عرضة لمؤثرات الأفكار القومية والأفكار الثورية التي اكتسحت غرب أوروبا في القرن التاسع عشر طبقاً لإحصاء أجري ما بين عامي 1520 و1530، كان 19 بالمئة من سكّان البلقان مسلمين، و81 بالمئة مسيحيين، وكان ثمة أقلية يهودية صغيرة جداً. كان أكبر تركز للمسلمين في البوسنة (حوالي 45 بالمئة من السكان)؛ ومعظم المسلمين كانوا يعيشون في المدن. فصوفيا (عاصمة بلغاريا الحالية) مثلاً، كانت تقطنها أغلبية مسلمة تُناهز الـ 66,4 بالمئة.

ومع انحصار مدّ الفتوحات عن بلاد المجر الكاثوليكية، وتصادم النزعات القومية الأرثوذكسية في كل من اليونان وصربيا ورومانيا وبلغاريا، وتقطع أوصال الأمبراطورية العثمانية في أوروبا، فقد المسلمون حمايتهم السياسية. فالعديد من فاتهم الانسحاب مع الجيوش العثمانية، تعرّضوا للمذابح أو أجبروا على اعتناق الديانة المسيحية. كما أنهم نزحوا بأعداد غفيرة بعد الحرب الروسية - التركية عام 1878، وحروب البلقان في الأعوام 1912-1914، وتُعيد الحرب العالمية الأولى عندما جرى تبادل رسمي للسكان ما بين الأتراك المسلمين القاطنين في اليونان (بما في ذلك جزيرة كريت وجُزر الدوديكانيز)، واليونانيين المتواجدين على بر الأناضول. أما قبرص التي انتزعتها العثمانيون مثل جزيرة كريت من البنادقة في العام 1571، فقد صارت جزءاً من الأمبراطورية البريطانية بعد مؤتمر برلين عام 1878، وهذا ما حال دون الأغلبية الأرثوذكسية فيها واختيار الاتحاد مع اليونان (مثلما فعلت كريت عام 1913)، وهكذا استُبعدت من عملية تبادل السكان التي تمت في العام 1920. إن الجزيرة منقسمة إلى شطرين منذ عام 1972، حين تدخلت تركيا عسكرياً لحلحلة دون حكومة عسكرية ذات ميول قومية وتوحيد الجزيرة مع اليونان.

لا تزال ألبانيا بلداً مسلماً إلى حدٍ بعيد (70 بالمئة من سكانها مسلمون)، إنما هي كذلك بفعل الثقافة. فبعد حملة طويلة الأمد لمكافحة الدين شتتها الحكومة

خلف الفتح السلجوقي، ولاحقاً الفتوحات العثمانية في البلقان، بقية من جاليات مسلمة في أوروبا، ممّن وصل أفرادها إلى هناك كمستوطنين أو ممّن اعتنقوا الإسلام عن طريق الهداية. ويعكس ما حصل عند غزو الأناضول حيث جرى التكنيول بالمؤسسات الكنسية



جسر «ستاري موس» في موستار بالبوسنة والهرسك. قبل أن تدمره نهيران مدفعية كروات البوسنة عام 1993. كان الجسر آية من أروع آيات الهندسة المعمارية العثمانية التي كُتب لها البقاء. اكتمل بناء الجسر عام 1566 على يد خير الدين، تلميذ المعماري العثماني العظيم سنان. يبلغ باع الجسر 30 متراً ويرتفع 27 متراً فوق مياه نهر نرثا. وقد صار بناء الجسر من جديد رمزاً لتزويم العلاقات المبرّقة بين طوائف البوسنة المختلفة.

البيزنطية باعتبارها مزاحماً أمبراطورياً، مُنحت الكنيسة الأرثوذكسية في البلقان سلطات حقيقية وقُضالة على الجاليات المسيحية هناك. ويسبب هذا العامل تحديداً، ربما لم تجر سوى عمليات «أسلمة» محدودة في البلقان المسيحي مقارنةً بما تمّ في بلاد الأناضول.

يعود تأسيس الوجود الإسلامي الدائم في أوروبا إلى المهاجرين الأتراك الذين قصدوا شمال اليونان وبلغاريا وألبانيا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ولعبت الدور الرئيسي في ذلك «التكايا» التي أقامها مشايخ من الصوفية، والتي صارت في حالات كثيرة نواةً لتشكّل المجتمعات القروية. وقد سهّلت الطرق الصوفية، كالمولوية والبكتاشية، على الناس في المناطق الريفية اعتناقهم الدين الإسلامي. إذ وجدت السبل الآيلة إلى إيصال الأفكار الإسلامية إلى عقول الفلاحين من ذوي المعتقدات المسيحية أو «الهرطوقية»، كذلك التي كان يحملها البوغوميليون، وهم أصحاب بدعة غُثوصية بدائية عمّ تأثيرها الجنوب الأوروبي الكاثوليكي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. كان اعتناق الإسلام أكبر ما يكون في ألبانيا والبوسنة والهرسك وبلغاريا، ولاسيما بين البوماكيون في جبال رودوس، الذين تمتد أراضيهم الجبلية إلى داخل دولتي اليونان ومقدونيا الحاليّتين، دُع عنك جزيرة كريت. لكن بقاء المسيحيين يشكلون

في البوسنة، يُشكّل المسلمون قرابة الـ 45 بالمئة من مجمل عدد السكّان. وقد أدّت الحرب الأهلية بين الصرب وتحالف المسلمين - الكروات، التي استمرت من عام 1991 إلى عام 1995، إلى وقوع سلسلة من الأعمال الوحشية، ليس أقلّها المذابح المنظّمة ومحاولات «التطهير العرقي»، مما حمل القوات الجوية التابعة لحلف شمالي الأطلسي على التدخل، وعُجل بتوقيع اتفاقية دايتون لعام 1995 التي قُسّمت البوسنة بموجبها إلى دولتين منفصلتين، واحدة مسلمة - كرواتية والأخرى صربية.

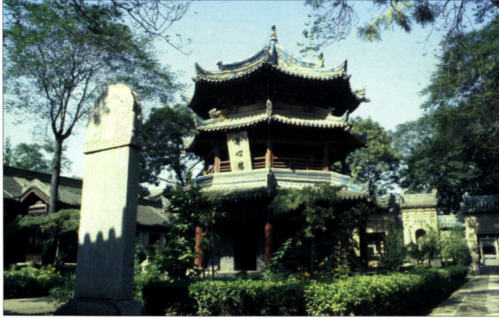
الشيوعية، تلك التي أعلنت البلاد رسمياً الدولة الملحدة الأولى في العالم، تشهد المعتقدات والعبادات الإسلامية في الوقت الحاضر انتعاشاً ملفتاً. كما بقيت هناك أقلية مسلمة كبيرة إلى حدٍ ما في بلغاريا (13 بالمئة من السكّان) حتى بعدما اضطر الأتراك البلغاريون، الذين يُناهم عددهم الـ 600 ألف نسمة، إلى النزوح بأعداد غير قليلة إلى تركيا من جراء حملة لا هوادة فيها قامت بها الحكومات الشيوعية وما بعد الشيوعية لـ«بلغرتهم»، بما في ذلك شطب وتغيير أسمائهم وكناهم الإسلامية.







## الأقليات المسلمة في الصين



هذه المئذنة الصينية مثال حي على قابلية العمارة الإسلامية للتكيف مع الأشكال البلدية المحلية. وخلافاً لما هي عليه الحال بالنسبة للكاتدرائية أو الكنيسة، ليس هناك شكل معماري مفروض دينياً للمسجد سوى المحراب، الذي يُحدّد اتجاه القبلة أو وجهة الصلاة.

حياة مميزة لهم كأقلية مسلمة تعيش خارج حدود «دار الإسلام»، إلا أنهم ليسوا بأي حال معزولين عن التيارات الروحية التي تهب من قلب العالم الإسلامي. فالصوفية، مثلاً، وجدت منافذ لها إلى داخل الصين مع مشايخ الطُرُق النقشبندية والقادرية والكبروية، التي أنشأت شبكات لها من الفروع والجمعيات في كل أنحاء البر الصيني. وخلال فترات الاضطراب التي دامت من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر، ساهمت الطُرُق الصوفية آنفة الذكر في تنظيم سلسلة من الثورات والعصيان التي تزعمها مسلمون في مناطق يونان وشانغتشى وكانسو وسينكيانغ. ومعظم هذه الاضطرابات كان وليد غفّر بين المسلمين أنفسهم سببه وقع الأفكار الإصلاحية الوافدة من الجزيرة العربية على مجتمعات الـ«هوي» المحلية. ففي عام 1781، مثلاً، سبق أحد مشايخ الطريقة النقشبندية، ويدعى ما مينغشين (م 1719)، وكان قد درس في الجزيرة العربية واليمن طوال ست عشرة سنة، إلى منصة الإعدام لتزعمه حركة عُرفت بـ«الذهب الجديد» أو «الطائفة الجديدة»، وتصدت في ذلك الوقت لبدعة تقديس الأولياء. وخلال الستينيات والسبعينيات من

تحدّر الجاليات الإسلامية الموجودة في الصين من التّجار العرب والفرس والآسيويين (من آسيا الوسطى تحديداً) والمغول، الذين تزوجوا من صينيّات وعاشوا في الأغلب ضمن جاليات صغيرة متجمّعة حول مسجد مركزي. وأحفاد هؤلاء، بالإضافة إلى الوافدين الآخرين من منغوليا وآسيا الوسطى على مر الزمن، يُعرفون في الصين بأبناء قومية «هوي». يُشكّل الـ«هوي» نصف مسلمي الصين تقريباً البالغ عددهم عشرين مليون نسمة. وخلافاً للمجموعات الإسلامية الأخرى التي تميل إلى التمرّكز في مناطق محاذية لجمهوريات آسيا الوسطى، ينتشر أبناء قومية «هوي» في كل أرجاء الصين، وإن كان هناك تركّز خاص لهم في منطقة «نينغشيا هوي» ذات الحكم الذاتي. تعترف الدولة بالـ«هوي» كأقلية قومية، وهي ثالث أكبر أقلية في الصين، ولعلها الأقلية الوحيدة التي تتحدّد بمعامل الانتماء الديني. والأقليات الإسلامية الأخرى المعترف بها رسمياً تشمل اللويغور في منطقة سينكيانغ، والغازاق والقيغيز والأوزبك والتتار والطايجيك الذين تقع أوطانهم الأصلية في أراضي الاتحاد السوفييتي السابق. صحيح أن أبناء قومية الـ«هوي» استنوا طريقة

قديم) الممثلة للأحناف الأكثر تقليدية. غير أن هذه الجماعات الإسلامية تعرضت جميعاً للاضطهاد والقمع إبّان الثورة الثقافية التي أعلنها ماوتسي تونغ (1966-1976)، ووقعت مذبحه كبرى واحدة على الأقل بحق أبناء قومية هوي في أعقاب انتفاضة لهم في مقاطعة يونان، إلا أن رعاية الدولة لحركة «إيهواني» استمرت في ظل الأجواء المريحة التي تلت وصول دنغ شياو بينغ إلى السلطة.

يعد عودة مستعمرة هونغ كونغ إلى كنف الوطن الأم، جمهورية الصين الشعبية، نسجت الجالية المسلمة الصغيرة الموجودة فيها علاقات لها أيضاً مع المجموعات الإسلامية الأخرى على البر الصيني.

القرن التاسع عشر، قام شيخ نقشبندي آخر، ويدعى ماهوالونغ، بتمرد ضخم عزل به إمبراطورية تشينغ (مانشو) عن شمالها الغربي، ومهد السبيل لاندلاع ثورة الويغور في سينكيانغ. وفي أزمنة قريبة منا، نشطت عند منقطع القرن العشرين حركة إصلاحية ذات توجه وهابي عُرفت باسمها الصيني «إيهواني» (من اللفظة العربية: إخوان)، وقد عارضت بعض الممارسات التي اعتبرتها وثنية، من قبيل تبجيل أولياء الصوفية أو ارتداء ملابس الجداد الصينية. وقد لقيت حركة «إيهواني»، في ظل الحكم الشيوعي، قدراً أكبر من الرعاية الحكومية من نظيرتها «الدغدو» (من اللفظة العربية: الإخوان).

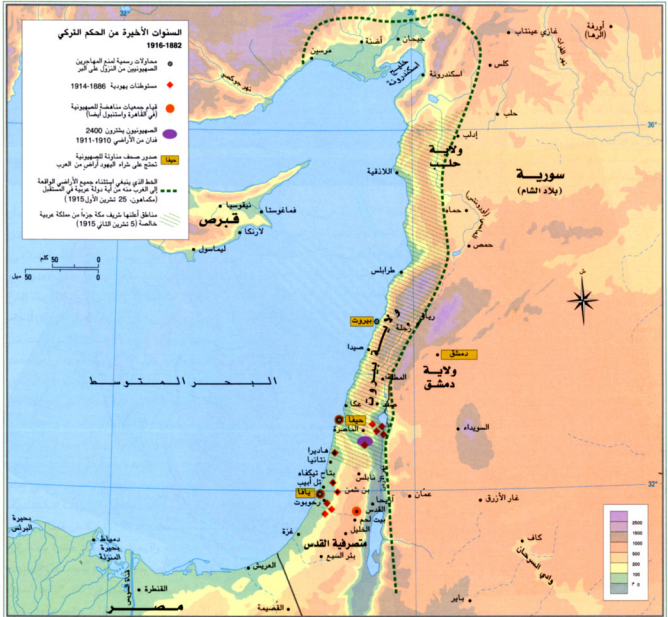
الصين في ظل سلالة مانشو 1912-1940	
منطقة عاصمة	
عصيان إسلامي 1873-1893	
هجمات بريطانية 1841-1840	
هجمات انطو - فرنسية 1860-1858	
الحرب الصينية - الفرنسية 1885-1883	
هجمات صينية	
هجمات فرنسية	



## المشرق 1500 - 2000

هؤلاء رسمياً رعايا للسلطان العثماني حتى القرن العشرين، حين تقاسمت فرنسا وبريطانيا المنطقة وحولتها إلى دول تابعة ذات هويات قومية مهزوزة. لقد ظلّ المشرق عرضة لتأثير الغرب الثقافي زمناً طويلاً بعد رحيل الصليبيين عنه؛ وحسبنا أن نذكر هنا

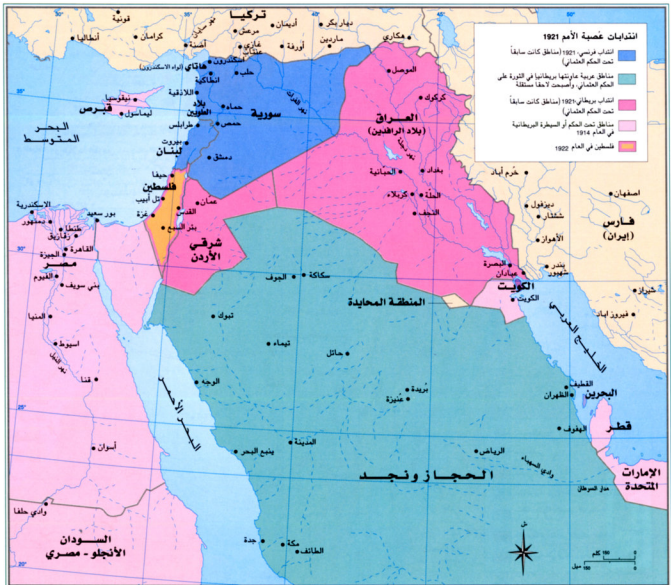
بخلاف مصر التي حكمها العثمانيون، أو وكلاهم، كدولة أو ولاية واحدة، بقي المشرق، الذي يضم سورية وجبل لبنان وفلسطين، خليطاً من الجاليات والطوائف المكبلة بتشكيلة متنوعة من الانتماءات القبلية والعرقية والدينية تحت قيادة زعماء محليين. وقد كان





ولبنان، فيما شرّعت بريطانيا فلسطين للهجرة اليهودية واستيطان يهود أوروبا فيها، وأقامت نظاماً ملكياً تابعاً لها في كلٍّ من شرقي الأردن والعراق. لكن وفيما أوجد الفرنسيون إدارة حديثة في سورية، وبنوا بنية تحتية من الطرقات وشبكات الاتصال والمواصلات، فإنهم عملوا على تقويض دعائم الدولة الوطنية بتقسيمهم البلاد إلى دوائر إدارية من شأنها إفقاع الانقسامات العرقية والدينية. وقد شجّعوا بنوع خاص تطوع أبناء الطائفة العلوية (وهم فئة من

البرية ما بين عامي 1838 و 1860. وفي أعقاب هزيمة العثمانيين في العام 1918، جرى تقسيم المشرق إلى مناطق نفوذ بين الفرنسيين والبريطانيين، وقام الحلفاء المنتصرون في الحرب بخلق أربعة بلدان تابعة - هي العراق وسورية ولبنان وفلسطين - من الولايات العثمانية السابقة. طرد الفرنسيون الأُمير فيصل، ابن شريف مكة وقائد الثورة العربية ضد الأتراك، الذي أقام حكومة مؤقتة في دمشق، ليهبطوا ثم سيطرتهم المباشرة على سورية



دعائم الحكم بعد الاستقلال. صحيح أن هذا النظام أمّن قدراً لا بأس به من السلام الاجتماعي، إلا أنه وقف حجر عثرة في وجه تقدم الوطن وتطوّره. وحين استخدم الفلسطينيون الأراضي اللبنانية لشن هجمات على إسرائيل في السبعينيات من القرن العشرين، أعادت العمليات الانتقامية الإسرائيلية إحياء الانقسامات والحزابات الطائفية القديمة، ما أُنّي إلى وقوع حرب أهلية واسعة النطاق (1975-1982)، وإلى تشظي لبنان مناطق تُسيطر عليها الميليشيات المسيحية والشيعية والسُنية والدرزية. ولعلّ ما فاقم حالة الفوضى هذه، قيام الإسرائيليين باجتياح لبنان في عام 1982، بهدف طرد منظمة التحرير الفلسطينية من قواعدها في لبنان. وكانت الحصيلة الرئيسية لهذا الاجتياح، فرض سورية هيمنتها على البلاد بحكم الأمر الواقع، وبرز «حزب الله» الشيعي المدعوم من سورية وإيران، كعدو لإسرائيل أقوى ساعداً وأشدّ فاعليّة من الفلسطينيين. وقد تبيّن أن الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان مكلف وغير مجرّ البتّة، مما حمل الحكومة الإسرائيلية على الانسحاب من لبنان من طرف واحد في العام 2000.



الشيعية القاطنين في الجبال المطلّة على مدينة (اللاذقية)، في صفوف الجيش. وبعد الاستقلال، تمكّن العلويون من إحكام سيطرتهم على حزب البعث، الحزب ذي التوجّه القومي، وبذلك أقاموا في البلاد نظاماً بعثياً يجمع ما بين الفكرة الاشتراكية المستوردة من أوروبا الشرقية والزعرة العصبية العربية الموغلة في القدم.

كذلك عمد الفرنسيون إلى تكبير حجم لبنان بضمّهم أفضية طرابلس وصيدا وسهل البقاع وجنوب لبنان إلى الولاية العثمانية الصغيرة السابقة، الأمر الذي أدّى إلى زيادة كبيرة في نسبة المسلمين من الطوائف السُنية والشيعية. وبناءً على سوابق عثمانية، اشترع الفرنسيون دستوراً تنقاسم بمقتضاه الطوائف الدينية الرئيسية السلطة، على أن يحتفظ الموارنة بالسلطة العليا من خلال احتلالهم منصب رئيسة الجمهورية وقيادة الجيش بصرف النظر عما يطرا من تغييرات ديمغرافية على تركيبة السكّان. وقد أعيد تثبيت نظام تنقاسم السلطة هذا القائم على أسس طائفية، في الميثاق الوطني لعام 1943، الذي أرسى



## مشاهير الرّكّالة المسلمين

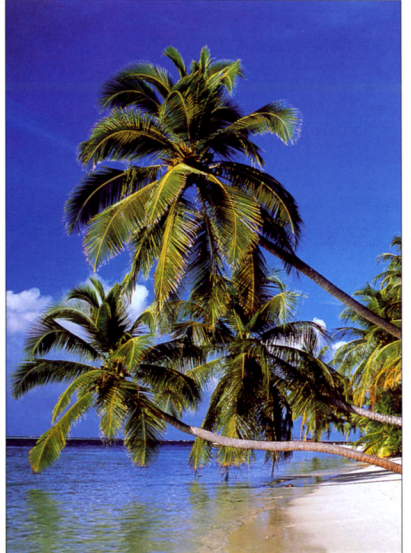
الذي ارتحل إلى القاهرة عن طريق نيسابور والري وبحيرة وان وحلب والقدس. ومن القاهرة قام برحلتَيْ حجٍّ إلى مكّة قبل أن يقفل راجعاً إلى آسيا الوسطى بصفته الداعي الإسماعيلي الأكبر للخليفة والإمام الفاطمي المستنصر بالله (ح 1036–1094). ولمّا هُوجِم خسرو على دعوته هذه من جانب جمهرة من المسلمين السُنّة في مدينة بلخ، بتحريض من الأمراء السلاجقة على أرجح الظن، لجأ إلى بداخشان في غرب جبال البامير، حيث عاش بقية حياته في حماية أمير إسماعيلي هناك. والإسماعيليون في البامير، التي تقع في شرق أفغانستان وأراضي جمهورية طاجيكستان السوفيتية السابقة، يُعظمون شأنه ويحيطونه بالتبجيل بوصفه وليهم المؤسّس. وفي الأساطير المحليّة أنه لم يهر الناس إلى العقيدة الإسماعيلية فحسب، بل هو من أعطى قراهم وبلداتهم جميعاً أسماءها أيضاً. وفي حين تعكس أشعار ناصري خسرو حالة الوحشة التي كان يعيشها في المنفى، فإن السجّية العقلانية التي تسم كتاباته الفلسفية جعلته مقبولا لدى الشيوعيين الذين استولوا على المنطقة في العام 1920، فاستبقوه معزّزاً مكرّماً باعتباره بطل طاجيكستان القومي.

والقاهرة بحسب وصف خسرو لها في كتابه أنف الذكر، تعدّ قدوة تحذّي في الإدارة الحكيمّة والعدالة. فالرفعيون هناك يتقاضون أجوراً مقبولة. الأمر الذي يحدوهم إلى تحسين نوعية منتجاتهم باستمرار. والجنود يتسلّمون معاشهم بانتظام، وهذا ما يجعلهم أقلّ ميلا إلى التحرش بالفلاحين ومضايقتهم. والقضاة يحصلون على رواتب عالية، وبذلك تضمّن نزاهتهم ويوفّرون على الرعية عاقبة الفساد والجور. وإذا ما ضُبط تاجر يفسد زبونا، فإنه «يوضع على ظهر جمل ويبدد جرس، فيُدار به في طُرقات المدينة وهو يرنّ الجرس صائحا: اقترفتُ إثما كبيرا! وما أنذا ألقى جزءا ما صنعت». وكل من يستغويه الغش، يُجلّله العار على رؤوس الأشهاد.

الصيغة العربية من رواية الحجّ أو التسفار تُعرف

كان الحجّ إلى مكّة باعثاً على ولادة جنس أدبي غني، هو أدب الرحلات. فقد كان بعض الحجّاج يدوّنون يوميات عن رحلتهم أو يُملّون مرويّاتهم على كتبه مختصين، آتين على ذكر تفاصيل مذهشة تتناول كل شيء تقريباً، من أصناف الطعام إلى صروح العمارة. ولعلّ أكثر الروايات استدعاءً للعجب والإعجاب في هذا النوع من الأدب، كتاب «سفرنامه» للشاعر والفيلسوف الفارسي ناصري خسرو (1003–1088)،

أمضى الرّحالة ابن بطوطة سنة كاملة أو أكثر في جزر المالديف، حيث قبل بعد شيء من التردد منصب قاضي القضاة المعروف عليه. كان رأيه في الناس هناك أنهم يتصفون بالاستقامة والورع، لكنه استهجن خروج النساء على الملاء عاريات الصدور.



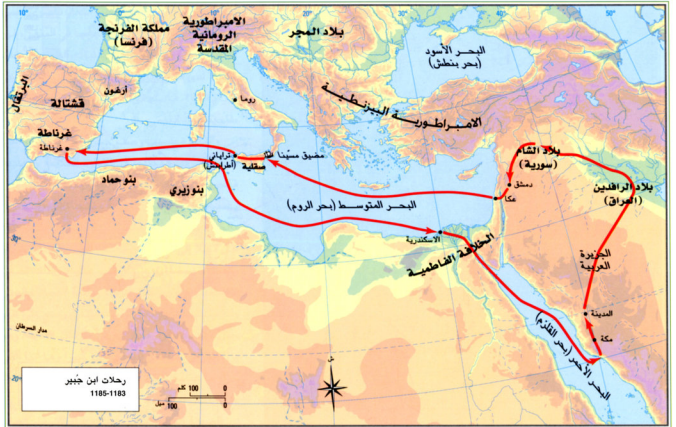
والوقوف على الظروف السياسية والاجتماعية السائدة في ذلك العصر. إنها بحق نموذج حيّ للعديد من الروايات الأخرى، لعل أهمها طراً الرحلة التي قام بها أعظم الرحالة المسلمين على الإطلاق، المغربي ابن بطوطة (1304- ن 1370)، وأخذته من موطنه طنجة إلى الصين، فإلى إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى (بلاد الزنج)، أدّى ابن بطوطة فريضة الحج ست مرّات على الأقل في سياق رحلاته وأسفاره، والفصول الأولى مما حكاه عنها يستوفي تماماً مواصفات أدب الرحلات. لكن حيث إن رحلاته أخذت تستطيل بشكل مطّرد سواء في الزمن أم في المدى، فقد صارت روايته أكثر شمولاً وأوسع إحاطة، فجاء كتابه متضمناً وصفاً منقطع النظير للعالم المعروف آنذاك، وعلى غرار رواية

«الرحلة». وهذا الجنس الأدبي هو من ابتداء ابن جبير الأندلسي (1145-1217)، الذي دوّن وقائع رحلة شهيرة له دامت سنتين، انطلق فيها من غرناطة في شهر شباط/فبراير 1183 قاصداً مكة. وهناك أقام ابن جبير تسعة أشهر قبل أن يعود من الديار المقدسة الإسلامية عن طريق العراق وعكا، حيث صعد على متن سفينة جنوبية متّجهة إلى صقلية. وبعد أن كُتبت له النجاة إثر غرق السفينة في مضائق مسينا، استقلّ مركباً آخر في تراباني ووصل سالماً إلى غرناطة في نيسان/إبريل 1185. تسوق لنا رواية ابن جبير فيضاً من المعلومات والحقائق عن الأقطار والأصوار التي مرّ بها، وتُشكّل مرجعاً لا يُقدّر بثمن لمعرفة أحوال الصليبيين ووضع الملاحة في البحر المتوسط،



يُمكنها أن تنال من سعة ابن بطوطة بوصفه واحداً من أعظم الرحالة في كل العصور. إن الثروة من المعلومات التي تركها للأجيال القادمة جميعاً عن العالم في عصره، ليس لها نظير في الواقع. فمثل الرحالة العظام كافة، تخبرنا ملاحظاته ومشاهداته الشيء الكثير عن عالمه الاجتماعي بقدر ما تخبرنا عن البلاد التي زارها وطاف في أرجائها. كانت له عين ثاقبة تلتقط أدق التفاصيل. وفصوله يأخذ قارئه إلى ما وراء مظاهر الحياة المألوفة؛ وكل جملة من جملته تنطوي على قدر غير يسير من التساؤل والاستفهام كهذه الجملة: «وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها في أسواقهم، وهم أهل رفاهية وسعة عيش. إلا أنهم لا يحتفلون في مطعم ولا ملابس، وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تحصى أمواله كثرة عليه جبة قطن خشنة». والتباين هنا تام مع ما كان

ماركوبولو التي لا تقل عن روايته شهرةً، لم يدونها ابن بطوطة بقلمه هو، بل أملاها إملاءً على معاون له، هو الكاتب والدارس الغرناطي ابن جزي (1321-1356). فقد سجل ابن جزي مروييات ابن بطوطة في كتاب بناءً على إيعاز من أمير فاس، أبو عيّن (ح 1349-1358). وفي الوقت الذي كان فيه الكتاب قيد التدوين، كان الجنس الأدبي، أدب الرحلات، قد استتبّ فعلاً بين صفوف المتعلمين، فثارت التساؤلات هنا، كما بشأن مجمل روايات الأسفار الأخرى، حول بعض ما جاء في وصف ابن بطوطة، وهل يُمكن الركون إليه. يُلحّ باحث عصري إلى أن ابن جزي ربما يكون قد «اشتط كثيراً في الميل إلى الغرائبية، بينما العمل الأصلي كان بالتأكيد أكثر اعتدالاً». فتصرّف من عنده في بعض ما حكاه ابن بطوطة لأسباب ربما لها علاقة بالأسلوب. غير أن مراوغات الكتّبة وألاعيبهم لا



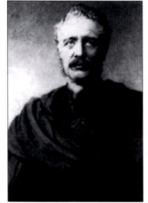
صنع الأسطرلاب هذه الخريطة العائدة إلى القرن الحادي عشر وضعت بقصد تعيين اتجاه مكة - الأمر الفائق الأهمية بالنسبة للمسلمين عند إقامة الصلاة.



بادياً في المجتمعات الإسلامية، حيث الأقمشة محل تقدير رفيع، والأقمشة التي تلبس في العلن مؤشّر مهم على ما يتمتع به المرء من جاه وما يتبوّؤه من مكانة اجتماعية. وقد أعجب ابن بطوطة بالأفارقة في «سلطنة» مالي لما يتحلّون به من ثقى وورع، ولاسيما عنايتهم بحفظ القرآن عن ظهر قلب: «وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه». غير أنه لا يستهجن عادة ظهور النساء عندهم باديات العورات كقولهم: «ومنها دخول النساء على السلطان عرابيا غير مستترات. وتعري بناته... ومنها أن كثيراً منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير».



## بريطانيا في مصر والسودان خلال القرن التاسع عشر



لقي الجنرال تشارلز جورج غوردون، الملقب بـ«الصفوي» (1833-1885)، حتفه على أيدي قوات المهدي فوق الدرج المؤدي إلى مقر الحاكم في الخرطوم بعد حصار دام خمسة أشهر اعتبره الجمهور البريطاني شهيداً مسيحياً، ولذلك ثار كبتشار لمقتله بأن أعاد إخضاع السودان عام 1898. هذا الرسم بريشة الرسّام الفكتوري لويس ديكنسون يحمل عنوان «مناوبة غوردون الأخيرة».

إقامة السدود وخزانات المياه لتحكّم بفيضانات النيل، وتوسيع شبكة السكك الحديدية. فقتضت كميات القطن الخام المزروع لأغراض التصدير، لكن البريطانيين حرصوا على تقييد عملية التصنيع خوفاً من تشجيع المنافسة.

بدأ الاختراق المصري للسودان في عشرينيات القرن التاسع عشر، حين أطاح محمد علي بسلطنة الفنج كجزء من رهانه على إقامة إمبراطورية مصرية في إفريقيا. في عام 1830، أنشئت الخرطوم على النيل الأبيض كعاصمة محصنة جديدة، وباستخدامهم ضباطاً أوروبيين لقيادة القوات المجنّدة المحلية والقوات المصرية، تمكن خلفاء محمد علي من توسيع نطاق سيطرتهم إلى أعالي النيل والأقاليم الاستوائية. وعملًا بمبادئ الإصلاح الإداري التي كانت رهن التطبيق آنذاك في مصر والأمبراطورية العثمانية، فرض المصريون نظام احتكار الدولة للتجارة - حتى الغارات لاصطياد العبيد صارت من أعمال الدولة - في الوقت الذي وحدوا فيه معايير الإجراءات القضائية وفقاً للمذهب الحنفي المعمول به رسمياً في الأمبراطورية العثمانية. وهذا ما انتقص من سلطة العلماء المحليين، وهم من المذهب المالكي، كما أضعف من جهة أخرى كافة البدع الصوفية المحلية. ومن المفارقة بمكان، إن هذا التدبير جاء مساعداً في نشر الطُرق ذات التوجّه الإصلاح، كالطريقة

السُنيّة والطريقة الختمية، اللتين طلع بهما حُجّاج عائدون من الحجاز، حيث كانت الروح الإصلاحية على أشدها منذ القرن الثامن عشر. وحين أُلغيت احتكارات الدولة المصرية في الخمسينيات من القرن التاسع عشر، شرع الأوروبيون بدخول السودان لتسليم مقدرات التجارة في مواد مثل الصُغم العربي وريش النعام والعاج، الأمر الذي ألحق ضرراً فادحاً بمشاريع الأعمال المحلية. وبضغط من بريطانيا، وقعت الحكومة عام 1877 ميثاقاً تحظر بموجبه كل أشكال النخاسة. وقد تفجّرت مشاعر الاستياء من هذا الإجراء في ثورة كبرى أشعل قتلها وتولى زمامها محمد أحمد. كان هذا الأخير شيخاً من مشايخ الطريقة السنّانية، وكان يتمتع بسمعة عظيمة تشهد له بالتقوى والصلاح في تشرين الثاني/نوفمبر 1882،

بدأت هيمنة بريطانيا على مصر مع النظام التحديثي لمحمد علي، الذي كان بالأسم والياً عثمانياً على مصر، بينما هو في الواقع حاكم مستقلّ فعلاً؛ وكذلك مع سليله الخديوي إسماعيل (ح 1863-1879)، الذي كان مفتوناً إلى حد الهوس بأوروبا. فمخططات إسماعيل باشا الطموحة للتنمية الاقتصادية، ومن ضمنها مدّ السكك الحديدية وخطوط البرق وشق قناة السويس (افتتحت عام 1869)، أدّت إلى إفلاس البلاد وفرض إدارة مالية أجنبية عليها. فأعلنت مجموعة من ضباط الجيش المصري من أبناء البلاد الأصليين، يُساندها رجال الدين وملوك الأراضي والصحفون وداعية الوحدة الإسلامية الجامعة جمال الدين الأفغاني، عن معارضتها لنظام إدارة الدُيّن، واستولت على وزارة الحربية حيث شكلت حكومة برلمانية برئاسة الوزير «الثاني» عُرابي باشا، عندئذٍ عمد وليام غلاستون، رئيس الوزراء البريطاني، إلى قصف الإسكندرية، وقام بإزالة قوات على الأراضي المصرية، فألحقت الهزيمة بجيش عُرابي في معركة «الثل الكبير». وفي ظل المقيم البريطاني، السير إيفلين بارينغ (لاحقاً: اللورد كرومر)، الذي تولى الشؤون المالية في الحكومة، جرت إدارة الاقتصاد المصري بنجاحة، إنما لما فيه مصلحة الأمبراطورية. وشهد الإنتاج الزراعي تحسّناً من جراء





مما فتح الباب لمجيء الحكم العسكري، أولاً بقيادة اللواء إبراهيم عبود (ح 1954-1964)، ولاحقاً بقيادة الفريق جعفر النميري (ح 1969-1985). حاول النميري في البدء رأب الصدع ما بين الشمال المسلم والجنوب غير المسلم بمعظمه (غالبية من المسيحيين والإرواحيين)، وذلك بمنح حكم ذاتي محدود لمديرية بحر الغزال والمديرية الاستوائية ومديرية أعالي النيل. غير أن النميري بذل اتجاهه على نحو جذري في العام 1983، وشنّ حملة لأسلمة البلاد أسلمة تامة. وقد ساندته في ذلك حسن الترابي، زعيم الجبهة القومية الإسلامية (النسخة السودانية من حركة «الإخوان المسلمين» في مصر) صحيح أنه جرت الإطاحة بالنميري في عام 1985 بعدما أضحي شخصاً غريب الأطوار وغير مقنن على نحو متزايد، إلا أن عمر البشير الذي استولى على مقاليد السلطة بمساعدة الترابي في انقلاب عسكري عام 1989، مضى قدماً في تطبيق برنامج الأسلمة إياه. أثار إصرار الترابي على تعريب وأسلمة السكان من غير المسلمين، إلى حد تطبيق العقوبات الإسلامية عليهم، أثار مقاومة متعاطفة في صفوف أبناء الجنوب. فاضم عدد غير منهم، أو قُدموا المساندة، إلى الحركة الشعبية لتحرير السودان بقيادة العقيد جون قرنق. وهذا الصراع ما بين الشمال والجنوب، وهو بالمناسبة أطول حرب أهلية متواصلة في إفريقيا، يصفه أحد المؤرخين المرموقين بأنه «حرب أهلية ذات أبعاد تقارب الإبادة الجماعية... بلجأ فيها إلى استخدام تكتيكات من ضمنها تجويع السكان المدنيين وإجبارهم قسراً على النزوح عن ديارهم». إن الأقوام التي تعتنق الديانات الإفريقية، مثل النوير والدينكا، تعرّضت لترحيل لمحاولات إدخالها في الدين الإسلامي عنوة. وقد استخدم عمر البشير برنامج الجبهة القومية الإسلامية، القاضي بتطهير صفوف الجيش العليا ودوائر الخدمة المدنية من غير الإسلاميين لا بل وإعدامهم، للقضاء على قوة الأحزاب السياسية التقليدية التي تهيم عليها الجماعات الصوفية. وبعد مضي عشر سنوات على الحكم الديكتاتوري، كان الترابي قد أدّى «خلالها كل ما هو مطلوب منه، قام اللواء البشير بانقلاب «داخلي» عزل فيه الترابي عن الحكم في كانون الأول/ديسمبر 1999.

أعلن محمد أحمد على الملاً أنه هو المهدي (أي «المسيح» المسلم الذي كان ظهوره منتظراً على نطاق واسع في نهاية القرن الثالث عشر للهجرة). ومن ثم استنهض قبائل البقارة الرعوية للتمرد على الحكومة التركية - المصرية «الكافرة». وبعد أن أباد قوة من ثمانماية آلاف مجنّد محلي بقيادة هيكس باشا في شيخان، انتقل المهدي للاستيلاء على أم درمان والخرطوم. وهناك لقي الجنرال غوردون مصرعه على درج دار الحاكم بعدما رفض الامتثال للتعليمات المعطاة له بوجوب إخلاء الحامية. وهذا ما أورت الجمهور الفيكنتوري في بريطانيا عطشاً شديداً للنار. وقد مات المهدي بعد ذلك بستة أشهر (بحسب التيفونيد على الأرجح) إثر دخوله الخرطوم دخول الظافرين. وبقيادة خليفة عبدالله الطايشي، الذي خلفه في زعامة الحركة، استمرت تلك الحركة في الامتداد والتوسع جنوباً نحو جبال النوبة ومنطقة بحر الغزال. وهذا ما أدخل العديد من أقوام الإرواحيين غير المسلمين، ومنهم النوير والدينكا وسواهما، في مدارها مما بذر البذور لنزاعات وصراعات ستتفجر مستقبلاً. لقد كان قدر الدولة المهدية الهلاك، لأنها تحدت وأذلت قوة بريطانيا في منطقة حساسة استراتيجياً لغربنا فيها. هي الأخرى، أطماعها ومآربها الأميرالية. ففي عام 1898، تعرّض جيش خليفة البالغ عدده 50 ألف رجل لمذبحة مروعة على يد قوة إنجليزية - مصرية مشتركة بقيادة الجنرال هيربرت هوراشيو كيتشنر. فما كانت حرب خليفة ولا بنادقه العتيقة لشخصه بأي حال رشاشات «غاتلينغ» الحديثة التي كان أحضرها كيتشنر عبر مجرى النيل في أسطوله الصغير من المراكب البخارية المصفحة. آلت هزيمة المهدي إلى نصف قرن أو أكثر من الحكم البريطاني في ظل السلطة الإنجليزية - المصرية المشتركة. وهنا اعتمد أتباع المهدي السابقون - وكانوا يُعرفون بـ «الأنصار» تيمناً بأنصار الرسول محمد في المدينة - مبدأ الجهاد «السلمي»، موسعين نطاق نفوذهم ليشمل المناطق المدنية. في عام 1944، شكّل زعيمهم سيد عبد الرحمن، ابن المهدي، «حزب الأمة»، الذي أبقى على تعاونه مع البريطانيين حتى وهو يعمل من أجل الاستقلال. في حين شكّل أتباع الختمية «حزب الاتحاد الوطني»، المحبّذ للاتحاد مع مصر، لمواجهة نفوذ الأنصار. ولئن لقيت فكرة الاتحاد هذه رفضاً باتاً بعد الثورة المصرية عام 1952، فإن المنافسة المريرة بين الحزبين الدينين ظلت قائمة،



## فرنسا في شمال إفريقيا و غربها

استمر استيطان الأراضي المنتجة في الشريط الساحلي الجزائري حتى إلى ما بعد حلول القرن العشرين. ففي عام 1940، كان المستوطنون الأوروبيون يملكون زهاء 2,7 مليون هكتار، أي ما يُعَدُّ 35 إلى 40 بالمئة من الأراضي الصالحة للزراعة، تُشكّل الأبنية (المحرم شربها على المسلمين) أهم صادراتها.

والتخريب الثقافي كان هائلاً هو الآخر. فقد حُظرت المعاهد الإسلامية التقليدية أو حُجرت مواردها المالية. وكان من المفترض أن تُستبدل بمدارس فرنسية، إلا أن أقلية صغيرة جداً من المسلمين الجزائريين استفادت من ذلك. وعلى عكس بريطانيا التي كانت تؤثر حكم أمبراطوريتها من خلال وكلاء مطاوعين لها، رأت فرنسا أن تنتج سياسة الاستيعاب. ولئن كان تطبيقها لهذه السياسة محدوداً، إلا أنها خلقت نخبَة فرانكفونية صغيرة تنتمى مع الحضارة الفرنسية. في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، برزت حركة قومية تضم مصطلحين إسلاميين يتحلقون حول عبد الحميد بن باديس، وقوميين عرباً يستلهمون أفكار مصالي الحاج، وقد أصابت تلك الحركة نجاحاً بذورها البذور لقيام حرب استقلالية ناجحة الشروط، وهي التي اندلعت فعلاً في أواخر الخمسينيات من ذلك القرن بدعم من الكتلة السوفييتية ومصر والبلدان العربية الأخرى. في عام 1958، استطاعت حركة مضادة قام بها مستوطنون فرنسيون يعارضون استقلال الجزائر، أن تطيح بحكومة الجمهورية الرابعة وتأتي بالجنرال ديغول إلى الحكم في فرنسا. لكن ديغول، وخلافاً لتوقعات المستوطنين، أقر باستقلال الجزائر. وبعد مفاوضات مديدة في إيفيان، اعترفت فرنسا بالسيادة الجزائرية في عام 1962. مهما يكن من أمر، فقد بقيت الروابط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بين فرنسا والجزائر وثيقة للغاية، حتى بعدما حلت جبهة التحرير الوطني - الحزب القومي الذي فاض على الاستقلال - محل الإدارة الفرنسية، تلك الأقلية الفرانكفونية شبه الاستعمارية التي كانت تسيطر على الأغلبية من الناطقين بالفرنسية العربية والبربرية (الأمازيغية). وفي كانون الأول/ديسمبر 1991، تدخل الجيش لمنع الجبهة الإسلامية للإنقاذ من الوصول إلى السلطة عبر انتخابات وطنية. وقد فقد أكثر من مئة ألف جزائري أرواحهم في غمرة الحرب الأهلية التي تلت ذلك، تلك الحرب التي عكست في جزء

الفتح الفرنسي لشمال غربي إفريقيا لم يبدأ جدياً إلا في العام 1930، حين أقدمت حكومة الملك البوربوني المستعبد عرشه، شارل العاشر، مستويدة من تجار مارسيليا، أصحاب المصالح القديمة في تجارة الصوف، على غزو الجزائر. وفي حين احتل الفرنسيون مدينة الجزائر وغيرها من المدن الساحلية، أثار حلول الأوروبيين محل العثمانيين في المناطق الداخلية من البلاد حركة

مقاومة تزعمها الأمير عبد القادر الجزائري، ابن شيخ مشايخ الطريقة القادرية، بالتحالف مع

سلطان المغرب. وبعد انكسار الجيش المغربي على يد الجنرال توسا - روبير

بوغو في معركة إيسلي عام 1844، زالت كل الحواجز من أمام الاستيطان الفرنسي هناك. أقدم بوغو على تخريب البساتين والمحاصيل الزراعية، وعلى تدمير قرى بأكملها، مهزهاً أرواح أعداد غفيرة من الناس، وتاركاً عشرات الآلاف منهم يموتون جوعاً. تمت مصادرة مساحات شاسعة من الأراضي، وجرى تهجير عشائري برمتها، عربية وبربرية على السواء، إفساحاً في المجال أمام توطئن المستوطنين الفرنسيين والأوروبيين. شهد القرن الثامن عشر قيام حركات تمرد وعصيان عديدة ضد الفرنسيين، بلغت ذروتها في انتفاضة كبرى سرعان ما سُقِطت في عام 1871. وقد



«إزدواجية السيادة». وإثر وقوع مظاهرات حاشدة وأعمال عنف، سمح الفرنسيون للملك بالعودة، مسلمين باستقلال المغرب في عام 1956. وما زالت الأسرة الحاكمة في السلطة إلى يومنا هذا، ممثلة بحفيد محمد الخامس، الملك محمد السادس.

وهذا النموذج من الفتح الاستعماري الذي تتبعه ثورة وطنية، عاد وتكرر، وإن بوضوح وشدة أقل، في أجزاء أخرى من الإمبراطورية الفرنسية في إفريقيا، حيث كانت للفرنسيين مطامع اقتصادية لكن مصلحة

قليلة في الاستيطان. تمثلت مصلحتهم الاقتصادية الأولى في تعزيز إنتاج المحاصيل النقدية، مثل الفول السوداني والأخشاب وزيت النخل. عمل الفرنسيون على جباية الضرائب نقداً، واستخدموا الأيدي العاملة بالسخرة في مزارع الموز والككاو والبن. ومدوا خطوط السكك الحديدية لنقل البضائع من مناطق الداخل إلى المحيط الأطلسي، فدمروا بذلك أسلوب النقل بواسطة الجمال القديم والعريق.

وتقوّضت أسس التجارة الإفريقية باستيلاء العرب المشاركة واليونانيين والأسبويين من جنوب القارة على تجارة العفّر في المستعمرات الفرنسية. وأهمل التعليم الإفريقي، بحيث لم يُتَح سوى لـ 3 بالمئة فقط من الأفارقة في الإمبراطورية الفرنسية أن يتأثروا نصيباً من التعليم المدرسي. مع ذلك، فقد نبتت نخبة فرانتقونية صغيرة هي من سيرتقي سدة الحكم بعد الاستقلال. وفي عام 1958، عرض ديغول على الفرنسيين أو الحكم الذاتي ضمن الأسرة الاقتصادية الفرنسية. وحدها غينيا اختارت الاستقلال الفوري، وكان اختبارها هذا مكلفاً إذ أضّر ضرراً مادحاً لفرنسا في غرب إفريقيا. فقد نالت استقلالها الناجز في غضون الستينيات من القرن العشرين.

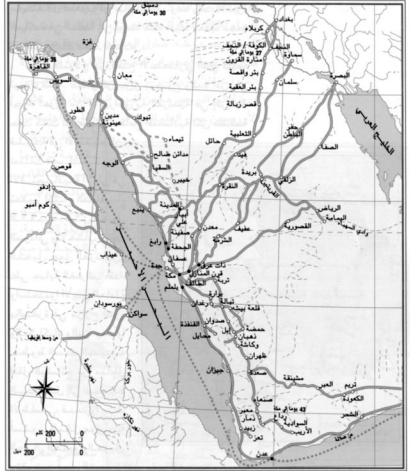
منها صراعاً بين النخبة الفرانتقونية الملتزمة بالغربية وبين الإسلاميين الذين يعتقدون بأنهم يمتلكون شرعية ثقافية أرفع شأنًا.

ولم تقف المطامع الاستعمارية الفرنسية عند حدود الجزائر فقط، بل تعدّتها إلى جارتها تونس أيضاً. كانت تونس ولاية عثمانية ذات حكم ذاتي، فأخذت فرنسا بالاستيلاء عليها تدريجياً اعتباراً من العام 1881. وبحلول عام 1945، كان نحو من 144 ألف مستوطن أوروبي يحتلون خمس مساحة الأراضي القابلة للزراعة. إلا أن هؤلاء المستوطنين لم يشكلوا في أي يوم مجموعة ضغط محلية قوية كتنظراتهم في الجزائر. لذلك ما إن مُنيت فرنسا بالهزيمة في الهند الصينية بعد الحرب العالمية الثانية، حتى سلمت باستقلال تونس في العام 1956. والنسق عينه من التفلغل الاقتصادي الفرنسي المستتبع بالسيطرة الإدارية والاستيطان الأوروبي حصل في المغرب أيضاً، إنما مع فارق رئيسي هو أن البلد احتفظ بوضعته ككيان مسلم في ظل الأسرة الشريفة (المحتدرة من سلالة الرسول) التي وصلت إلى السلطة في القرن السابع عشر. كان سلطان المغرب، مثل حكام إيران في زمانه، يفتقر إلى الأموال اللازمة لدفع رواتب جنوده. وكان هذا وضعه بنوع خاص بعدما انتقل إنتاج السلعة الأعلى قيمة مالية لديه، ألا وهي السكر، إلى أيدي الأوروبيين ولاسيما مع تطور زراعة السكر في جزر الكناري والأميركيتين. وبغية الحفاظ على هيمنته على القبائل العاصية، رهن السلطان عائداته الجمركية واستلف دونما حساب من المصارف الفرنسية. وحين أثار ذلك ثورة في صفوف العلماء، تدخل الفرنسيون بصورة مباشرة، فأرضين الحماية على البلاد (إلى جانب محمية أصغر جداً أعطيت لإسبانيا) في العام 1912. وهكذا طرحت أراضي المغرب للبيع على الأوروبيين، الذين بلغت ممتلكاتهم منها بحلول عام 1953 زهاء مليون هكتار، أو ما يوازي 10 بالمئة من مساحة الأراضي التي تغلّ محاصيل زراعية، فضلاً عن 25 بالمئة من مجموع بساتين الفاكهة وكروم العنب، مع أن الأوروبيين بالكاد كانوا يشكلون واحداً بالمئة من مجمل عدد السكان. غير أن الأسرة الشريفة استطاعت على عكس الحال في الجزائر وتونس، أن تضع نفسها في مقدمة الحركة المطالبة بالاستقلال. ففي عام 1953، جعل الفرنسيون من الملك محمد الخامس بطلاً قومياً وذلك عندما نفّوه من البلاد بعدما رفض الموافقة على نظام



شمال غربي إفريقيا حتى 1914
ممتلكات برطانية
ممتلكات فرنسية
ممتلكات إسبانية
ممتلكات برتغالية
ممتلكات بلجيكية
ممتلكات ألمانية
ممتلكات إيطالية
دول مستقلة

## نمو الحجّ وتطوُّر المشاعر المقدسة



داخل المملكة العربية السعودية من المواطنين السعوديين والمقيمين الأجانب على حد سواء.

قبل وفاة النبي محمد في العام 932 م، تناول شعائر الحج التي كانت سارية قبلاً داخل مكة وما حولها وعمل على إصلاحها. وهذه الشعائر المصلحة التي تستغرق تأديتها عدة أيام، تشتمل على الطواف حول الكعبة، البناء المكعب الشكل القائم وسط المشعر الحرام في مكة؛ والسعي أثناء التلبية بين الصفا والمروة؛ والوقوف يوماً كاملاً على جبل عرفات؛ والنفرة (وهي اليوم سيل هائل من البشر والمركبات) عبر المزدلفة؛ ورمي الجمرات (وهي كناية عن أعمدة ترمز إلى إبليس) في منى. إن الحجر الأسود «حجر سماوي» تكتنفه الأسرار إنه مصمود في الركن الجنوبي الغربي للكعبة، وموجه نحو عبادة الله دون سواه كما تجلّى لأبي الأنبياء إبراهيم وابنه إسماعيل، الجد القديم للعرب. والفصل الأخير من الحجّ، ألا وهو تقديم الأضاحي إحياء لذكرى الشاة التي تقبلها الله بدلاً من ولد إبراهيم، يحتفل فيه في جميع أنحاء العالم الإسلامي تحت اسم «عيد الأضحي»، حينما يذبح المسلمون بضعة رؤوس من ماشيتهم أو يقتنولون لحوم حيوانات ذبحت في منازلهم. أما العمرة، أو «الحج الأصغر»، فهي مقصورة على الحرم المكي المحيط بالكعبة، وباستطاعة المراه أن يؤديها في أي وقت من السنة، أو في التزامن مع الحج نفسه.

فيما قبل الأزمات الحديثة، كان يُمكن لرحلة الحجّ أن تكون شاقة للغاية، ولاسيما للقادمين من مناطق الأطراف القصية، كان من الجائز جداً أن تستغرق

الحج أحد أركان الإسلام الخمسة، وهو فريضة دينية يتوجب على كل مسلم أن يؤديها مرة واحدة على الأقل في حياته. وهذه الفريضة صارت اليوم سهلة يسيرة نسبياً بفضل النقل الجوي الذي في طاقة المراه تحمل نفقاته. إن محطة الحجاج في مطار جدة - وهي عبارة عن مبنى على شكل خيمة عملاقة يمتد على مساحة يضع عشرات الآلاف من الأمتار المربعة - لتستوعب في وقت واحد عدداً أكبر من المسافرين مما يستوعبه أي مطار في العالم. إن الحج يجمع بالمعنى المادي للكلمة، المسلمين من كل أرجاء الأرض بعضهم ببعض، وهو يجتذب نحواً من مليون حاج من الخارج كل سنة، وحوالي العدد نفسه من

## خريطة مكة

- 1 حي درول
- 2 حي الباب
- 3 حي الشبكة
- 4 حي السوق الصغير
- 5 حي المسكنة
- 6 حي باب العمرة
- 7 حي الشاذلية
- 8 حي سوقة
- 9 حي للقرارة
- 10 أكواخ
- 11 حي الركنية
- 12 حي النعنع
- 13 حي السلمانية
- 14 حي بني عامر
- 15 درب المخادرين
- 16 درب المعلاة
- 17 حي غرة
- 18 قصر شريف الأشراف، عين الرفيق (1882-1905) ببناء والده محمد بن عون
- 19 قصر شريف الأشراف، عبدالله، الأخ الأكبر لعون الرفيق
- 20 حي بني العود
- 21 حي سوق آل
- 22 حي التدعي
- 23 الشورة
- 24 التسمي
- 25 زقاق الحجر
- 26 مولد ستنا لامة
- 27 حي القشبية
- 28 الحفا
- 29 حي أجود (يوجد في هذا الحي مبنى مؤسسة الشكايا المصرية وسراي الحكومة الجديدة)
- 30 مقر الحرس الرئيسي (الشرطة)
- 31 داره والي الحجاز، مخفر الشرطة، إلخ
- 32 مدرسة (تستخدم حالياً مقر اللجنة لفنار زبيدة ومكتباً لرئيس الموزنيين)
- 33 بركة ساجد بنر كبيرة للمياه موصولة بالقناطر
- 34 دار القضاء وسكن القاضي
- 35 قدر أبي طالب (مع الرسول)
- 36 آبار مياه موصولة بالقناطر
- 37 قبر السيد عليل
- 38 قبر الرائي الشيخ محمود
- 39 جبل قعقعان
- 40 حي العبدية (الصحف)
- 41 آبار ماء من القناطر (مشار هذه الآبار موجودة حالياً في الدروب الرئيسية كافة)



عبرها سلسلة من الردعات والدهالين. في القرن التاسع عشر، تضاعف ظهور الملاحة البخارية برعاية القوى الاستعمارية مع استحداث نوايا خاصة لتوفير نفقات الحج، ليجعل رحلة الحج في متناول الآلاف من الفلاحين وأبناء المدن العاديين من مناطق نائية جداً كالبنغال والملايو وجُزُر الهند الشرقية الهولندية، الذين ما كانوا ليأملوا على الإطلاق في أداء تلك الغريضة الدينية في عصور ما قبل الصناعة.

الرحلة سنوات عديدة من عمر الإنسان – أو حتى عمره بكامله – كي يتم «الركن الخامس» من أركان الإسلام. في تلك الرحلة، كان ثمة «مدن/قوافل» تتحرك بسرعة تحت إمرة «أمير الحج» بعد أن تنطلق من سورية ومصر والعراق. وكان أمرو القوافل بمثابة قادة عسكريين في الميدان. واجههم الأوّل، في واقع الأمر، كان حماية الحجاج من قطاع الطرق البدو. ابن جبّير، الذي أدّى فريضة الحج عام 1184، يصف خيمة أمير القافلة العراقية بـ«مدينة مسورة» أو «قلعة منيعة» لها «أربع بوابات شامخة»، يلج المرء

ينقضى شهر تشرين الثاني/نوفمبر إلا وكان الوباء قد بلغ أماكن قصية جداً كمدينة نيويورك. وإذا كانت إجراءات الحجر الصحي (الكارنتينا) التي اتخذتها السلطات العثمانية والحكومات الاستعمارية قد حمت مصر وأوروبا من عواقب العدوى، إلا أن الكوليرا استمرت بالتفشي في الشرق وفي الحجاز، حيث وقعت ثماني حالات وبائية بين عامي 1865 و1892. وكان أسوأها على الإطلاق تلك التي شهدها عام 1893،

وكانت لهذه الزيادة الكبيرة في عدد المشاركين في الحج نتيجة جانبية وخيمة تمثلت في حالات من تفشي وباء الكوليرا على نحو مدمر. ففي عام 1865، قضى وباء مصدره جاوه وسنغافورة على ما يُقدَّر بـ 15 ألفاً من أصل 90 ألف حاج، وذلك قبل أن ينتهي الحج الذي صادف وقوعه في شهر أيار/مايو من ذلك العام. ولم يلبث أن امتد الوباء في الشهر التالي إلى الإسكندرية، حيث لقي 60 ألف مصري حتفهم. ولم



2000 في عرفات، تبدو غير ذات أهمية تقريباً. إن العديد من الحجاج، إن لم يكن معظمهم، يُتمون مناسك الحج بزيارة مسجد الرسول في المدينة، حيث مدافن أهل البيت وأزواج النبي والصفوة البارزة من أصحابه. في عام 1925، أقدمت المملكة العربية السعودية على إزالة كل المعالم التي تدل على تلك القبور وسوتها بالأرض، وفرضت قيوداً صارمة على زيارتها والصلاة عندها.

حين قضى 33 ألفاً من أصل 200 ألف حاج نجيبهم في جدة ومكة والمدينة. وتواصل مسلسل الأوبئة حتى عام 1912، أي إلى حين أعطت إجراءات الحجر الصحي الصارمة مفعولها. وبالمقارنة مع أهوال أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، فإن الكوارث التي شهدتها مواسم الحج في الآونة الأخيرة، من قبيل مصرع ما يزيد عن 400 شخص، معظمهم من الحجاج الإندونيسيين، في الحريق الذي اندلع عام



## مَدُن متمدّنة

## بغداد:

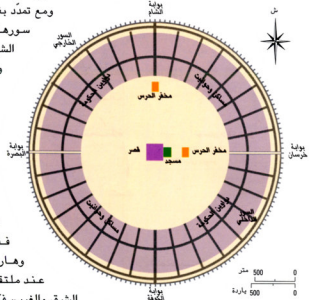
مدينة أسّسها في العام 672 بعد الميلاد أبو جعفر المنصور، ثاني خلفاء بني العبّاس، وإن كانت المدينة قد بُنيت في الأصل على الضفة الغربية لنهر دجلة.

كان اسمها الأصلي «مدينة السلام»، لكن بغداد عُرِفَت بين الشعب بـ«المدينة المدوّرة»، نسبةً إلى الجدران الدائرية التي كانت تحيط بها. كان قصر الخليفة والمسجد الجامع يقومان في نقطة المركز منها تماماً، ومنهما تشعب أربعة طرقات باتجاه الخارج. وكانت تعلو القصر قبة خضراء يبلغ ارتفاعها زهاء 165 قدماً ويعتليها خيال على صهوة فرسه.

ومع تمدّد بغداد تدريجياً إلى ما وراء سورها الأصلي باتجاه الضفة الشرقية لنهر دجلة، جرى وصل شطريّ المدينة بجسر من القوارب، وسُمّي الشطر الشرقي منها بالرصافة.

بلغت بغداد أوجها من حيث الازدهار التجاري والتأثير الثقافي في القرنين الثامن والتاسع للميلاد. ففي ظل خلافة المهدي وهارون الرشيد، وقفت بغداد عند ملتقى طرق التجارة ما بين الشرق والغرب، فكانت تربط آسيا بأوروبا وبالعكس. وبسبب من صروحها العمرانية المهيبة وحداثتها الفخاء، طارت شهرتها بوصفها أغنى وأجمل مدينة في العالم.

في النصف الثاني من القرن التاسع، كانت سلطة الخليفة العبّاسي قد ضعفت من جراء المشاحنات والمنازعات الداخلية التي كانت تصل أحياناً إلى حد الاحتراق الداخلي. وعندما غزا المغول بغداد في القرن الثالث عشر، قُتل الخليفة ومعه الآلاف من أبناء ريعته. ويومها دُمّرت أحياء عن بكرة أبيها بعدما انتهت وأُضمرت فيها النيران. ولحق تخريب واسع بشبكة الري التي كانت تعتمد عليها المدينة وبساتينها، الأمر



الذي عجل بصورة دراماتيكية في انحطاط المدينة ومن ثم اضمحلالها. وحين صارت بغداد جزءاً من الأمبراطورية العثمانية عام 1534، كانت قد عرفت طمع الإهمال وخمول الذكر رديحاً طويلاً من الزمن. أُجريت على بغداد تحسينات، وإن على نطاق متواضع، في مستهل القرن العشرين، مع بناء المدارس والمستشفيات فيها. وحملت إليها الطفرة النفطية التي شهدتها سنوات السبعينيات من القرن العشرين الغنى المتزايد، وبفضله شرعت المدينة تتطور على نطاق مُذهل، ولاسيما مع إنشاء مناطق سكنية لأبناء الطبقة الوسطى. فمُدت خطوط جديدة من قساطل المياه ومجاري الصرف الصحي، كما بُنيت فوق الأرض شبكة من الطرقات السريعة، فضلاً عن بناء مطار جديد للعاصمة. ثمة أحد عشر جسراً تربط ما بين شطريّ المدينة، وقد دُمّر العديد منها لاحقاً بفعل القصف الجوي الأميركي في عام 2003. هذا وتُمثّل ساحة التحرير حالياً، القائمة على الضفة اليسرى للنهر عند أحد طرفي جسر الجمهورية، قلب المدينة الذي تشع منه شوارعها الرئيسية.

وفي ظل حكم صدام حسين الديكتاتوري، أُقيمت مجموعة من النُصب التذكارية الضخمة، ومن أبرزها «قوس النصر»، وهو كناية عن كتلة هائلة من البرونز على شكل ساعدين يمتشقان سيفين قبل إنهما نموذجان عن ساعدي صدام حسين نفسه. وهناك مثل آخر مغاير تماماً لعله ادّعى إلى الإعجاب عن الفن النُصبي الحديث؛ ذلك هو «نصب الشهيد» الذي أُقيم تخليداً لذكرى القتلى في الحرب الإيرانية - العراقية (1980-1988). صمّم النصب إسماعيل فحّاح، وهو كناية عن قبة ضخمة بصلبية الشكل قُدّت تصفيين وأكسيت غطاءً لماعاً بالأجر الخزفي الأزرق التقليدي. وبصرف النظر عن كل هذه النُصب التذكارية، فإن معظم مشاريع التحسينات المركّسة لبغداد قد توقفت لدى اندلاع الحرب مع إيران في بداية الثمانينيات من القرن العشرين، ثم حرب الخليج التي تلت غزو العراق للكويت والعقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق إثر ذلك. لكن الاستثناء الأبرز الوحيد في هذه القصة من الانحطاط المتجدّد، كان القصور الرئاسية، وهي حقيقة الأمر كناية عن مجمعات شاسعة من المباني تحيط بها الأسوار العالية، وتضمّ مقرات بأذخة



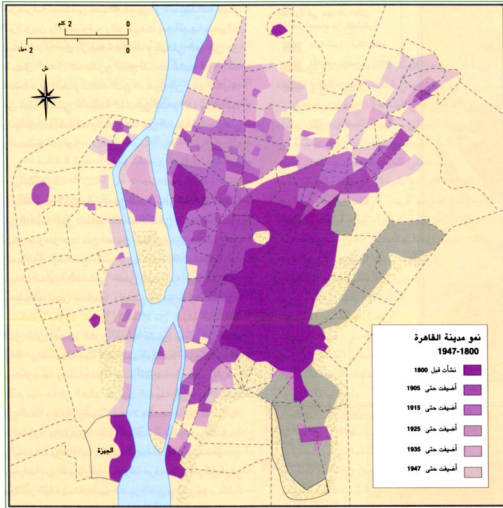
الزخرفة لسكنى صدام حسين أو لاستضافة كبار الزائرين والضيوف، وقد أقيمت بجانبها بحيرات اصطناعية. قبل الإطاحة بالنظام البعثي العراقي عن طريق العمل العسكري الذي أقدمت عليه الولايات المتحدة في العام 2003، كان الدخول إلى هذه المقرات من قبل مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة سبباً رئيسياً للخلاف والجدل ما بين النظام العراقي والمنظمة الدولية.

### القاهرة:

استمدت القاهرة، وتعني الظاهرة أو الغلابة، اسمها من المدينة التي أنشأها القائد الأموي جوهر الصقلي. كان جوهر هذا من أصول صقلية، وربما كان من الصقالبة، وقد فتح مصر في العام 969، بالنيابة عن سيده، الخليفة الفاطمي المعز لدين الله. وشأنه شأن معظم الفاتحين السابقين، أقطع جوهر مدينة عسكرية منفصلة لجنوده تقع إلى الشمال من مدينة القسطنطين التي كان أسسها العرب عندما فتحوا مصر في العام 642. وتضم المدينة الفاطمية، فضلاً عن قصورها ومدارسها ومساجدها، وما أكثرها، الجامع الأزهر، أقدم جامعة في العالم. خرجت المدينة إلى حيز الوجود في العام 970، وفيما بعد تعهدها أمراء المماليك بالعمارة والتزيين، فبنوا مئات المساجد والأضرحة والخانات والتكايا والبيمارستانات (المستشفيات)، وسواها من المباني العامة. وقد عرف طرازهم الزخرفي المتميز كيف يستفيد من الحجر الجيري الموجود بكثرة في جبل المقطم كما في أهرامات الجيزة، ولذلك عمدوا في بعض الحالات إلى استخدام الغطاء الخارجي لتلك الأهرامات. وبعد استيلاء صلاح الدين الأيوبي على السلطة إثر سقوط الحكم الفاطمي، شيد القلعة المهيبة لسانحية الجنوب، حيث بنى محمد علي، الحاكم الأوتوقراطي إنشا المصلى في القرن التاسع عشر، المسجد الكبير على الطراز العثماني الذي لا يزال يُشرف على المدينة القديمة إلى يومنا هذا.

كان أول استيطان لهذه البقعة العظيمة الشأن من الضفة الشرقية لمجرى النيل قبالة الأهرامات، بابلون أو منف (مغيس، مصر القديمة حالياً)، حيث أقام الفرعون الفرسي حصناً في العام 525 قبل الميلاد لحراسة مخرج مهم على نهر النيل. وتمتد المدينة شمالاً بإطراف الذي استمر حتى القرن العشرين بإنشاء ضاحية هليوبوليس الصحراوية، حكمه الاتجاه العام لهبوب





الذيل، واستقرار منسوب النهر عند ضفتيه، فضلاً عن وجود جزيرتين كبيرتين هما الروضة والجزيرة، هو ما أتاح للمدينة أن تتوسع وتتمدّد عبر النهر نحو الجزيرة وأمبابية. وهذا ما جعل القاهرة الحديثة (بسكانها البالغ تعدادهم 18-20 مليون نسمة)، واحدة من أضخم مدن العالم على الإطلاق.

#### طشقند:

إلى حين انهيار الاتحاد السوفيتي في عام 1991، كانت طشقند ذات المليونين ونصف المليون نسمة تقريباً، رابع أكبر مدينة سوفياتية بعد موسكو ولينينغراد وكيفيف. لقد دُمّرت المدينة بمعظمها من جراء زلزال عنيف ضربها عام 1966، فتهدّم 95 ألف

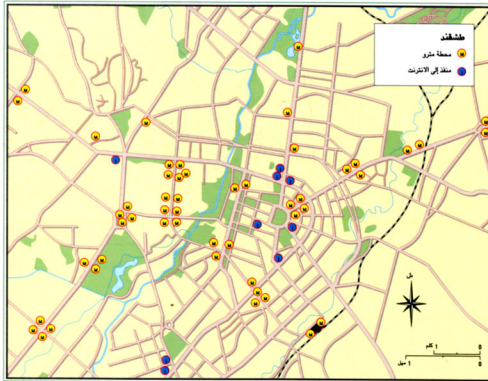
الريح الشمالية بحيث تأخذ معها الروائح الكريهة وأدخنة النفايات المحروقة جنوباً. قبل القرن التاسع عشر، كان ثمة ما يحول دون تمدّد المدينة غرباً، وهو السهل الفيضي (النجاح عن ترسبات الطمي من النهر). لكن أمراء المماليك والولاة العثمانيين بنوا قصوراً بديعة لأنفسهم تحفّ بها الحدائق وتظلّلها أشجار النخيل الوارفة، فيما بقي السواد الأعظم من الشعب يعيش في دروب وأزقة أشبه بالمناخة داخل أسوار القاهرة القروسطية. أما المدينة ذات النسق الأوروبي بجاداتها العريضة وميادينها الرحبة، فلم ترَ النور إلا في الستينيات من القرن التاسع عشر، وذلك في محاكاة واعية لباريس المعاد تخطيطها على يد البارون هاوسمان. والحال، أن تحسّن نظام التحكم بفيضانات

إلا أنها استعادت شيئاً من ازدهارها وألقها السابق في عهد تيمورلنك وخلفائه. وبالنظر إلى الصراع المحتدم عليها بين الحكام المتعاقبين، الأوزبك والقازاق والفرس والمغول والأيرت والكالمايك، لم تعرف المدينة قط طعم الاستقلال. في القرن الثامن عشر، قُسِّمَت المدينة إلى أربعة أحياء، متخصصة أو حتى متعادية في بعض الأحيان، إنما تنقسم معاً سوقاً واحدة. استولى عليها الروس في العام 1865، ولم يصل خط سكة حديد ما وراء بحر قزوين إلى طشقند إلا في عام 1898، بعدما كان عدد سكانها قد ارتفع ثلاثة أضعاف تقريباً، من 56 ألفاً إلى 156 ألف نسمة. شهدت الحقبة السوفيتية عملية تصنيع مكثفة وتوسعاً في الأحياء السكنية ذات المتنزّهات والحدائق الوفيّرة. أما المساجد والمدارس وغيرها من المباني الدينية، فأما هُدمت أو حُوِّلَت إلى مصانع ومخازن أو مطابع. ومنذ الاستقلال والمدينة بأجمعها تعاود التأكيد مجدداً على طابعها الإسلامي، وذلك بتشديد المساجد ذات القباب الساطعة، جنباً إلى جنب المجمّعات التجارية الكبرى والأروقة المقنطرة التي تغص بالسالك الآتية من جنوب شرقي آسيا.

منزل، وأصبح قرابة 300 ألف من سكّانها بلا مأوى. وقد أعيد بناء طشقند كمدينة سوفيتية نموذجية، ذات جادات عريضة وقضاعات عمومية رحبة تزدان بالنوافير الرشاشة، وتتخللها صفوف من المباني العامة والمعارات السكنية المبنية بالخرسانة في هندسة عصرية عالمية، وإن احتفظت بموتيفات أوزبكية تقليدية كالعمارات المقنطرة والأروقة ذات الشرفات المكشوفة والأشغال الفيسفاسائية والكسوات الخشبية. تمتاز المدينة بمتنزّهاتها الفسيحة وشبكة مترو الأنفاق الحديثة تحتها. عندما صارت أوزبكستان دولة مستقلة في العام 1992، قيل بأن الروس، الذين كانوا يشكلون حوالى نصف عدد السكان، أخذوا يغادرونها بمعدل 700 فرد أسبوعياً. إلا أن اللغة الروسية لا تزال تتردد على السنة نصف مواطني طشقند على الأقل.

قبل إعادة بناء طشقند، كانت هناك مدينتان متميزتان فيها: المدينة الإسلامية القديمة، والمدينة الروسية الحديثة، تفصل بينهما ترعة مائية. وقد قُبِضَ لبعض الدروب والأرقة الشبيهة بالمتاع في طشقند القديمة ذات البيوت التقليدية بأفنيّتها المظلمة بدوالي

الكرمة البهيجية، أن تجو من الزلزال المدمر، وطشقند هو الاسم الأخير من عدة أسماء أعطيت للمدينة القديمة، التي كانت في الأصل مستوطنة نجعية للبدو الرُّحَّلَ والتَّجَّار على ضفة نهر شوشيك، أحد فروع سيورداريا، لما هزم العرب جيشاً صينيّاً في معركة طلاس عام 751. كانت المستوطنة تُعرف باسم شاش، وعُرب الاسم لاحقاً إلى «الشاش». وقد أُظنَّ الكُتَّاب العرب في وصفها باعتبارها بقعة مزدهرة تكثر فيها الكروم وتنتج بالأسواق والحرفيين العاكفين على أشغالهم بكل ممة ونشاط. ولغظة «طشقند» التي تعني باللغة التوركية المحلية «المدينة الحجرية»، ظهرت أول ما ظهرت على نقود معدنية صكّت في الحقبة المغولية. ولئن استُبيحت المدينة وانتهت على أيدي المغول،



## وقعُ النفط في القرن العشرين

ذات عمارات شاهقة، ومجمّعات تجارية برّاقة، وطُرُقَات سريعة من سِتّة مجازات، وأحدث أنظمة الاتصالات وأكثرها تطوراً، وغيرها وغيرها من آخر منجزات المدينة الحديثة. لناخذ المملكة العربية السعودية مثلاً، وكانت فيما مضى إحدى أفقر دول العالم وأقلّها تطوراً؛ لقد أتاح لها اكتشاف النفط في أراضيها أن تؤمّن لسكّانها نظاماً رائعاً للرعاية الصحية والتعليم العام.

ومن جهة أخرى، وساهم ذلك في زيادة عدم استقرار المنطقة من جراء ترسّع أقدام الأنظمة الأوليغارشية القبلية، التي مكّنها إمساكها بمقدرات النفط من التسيّد على البلاد بواسطة صيغة مركّبة من المحسوبية والقمع.

ولعلّ المثل الصارخ على الأثر المُدمر لسياسة الاعتماد الكلي على النفط هو العراق. فقد غطّته شبكة من العلاقات القرابية يُشرف عليها صدام حسين شخصياً، لم تترك ناحية من نواحي المجتمع إلّا وامتدت إليها إثر تأميم النفط في العام 1972. لقد تحكّمت تلك الطغمة بتوزيع أذونات الأراضي المصادرة من ملاك الأرض من العهد السابق أو من الخصوم السياسيين، فأقامت مشاريع تجارية وأعمالاً شتّى، بما فيها

كان وقعُ النفط والغاز الطبيعي بمثابة نعمة متفاوتة على المجتمعات الإسلامية في غرب آسيا، ولاسيما في منطقة الخليج التي تضم العراق؛ تلك المنطقة التي تحوي ما بين 60 و65 بالمئة من الاحتياطي العالمي المكتشف من النفط. فمن جهة، أتاح ذلك للبلدان المنتجة للنفط أن تبني مدناً عصرية تخلق الألباب،



محطة لتكرير النفط في المملكة العربية السعودية. إن 95 بالمئة تقريباً من نفط العالم تُنتج حوالى 5 بالمئة من مجمل أباره النفطية، ويقع ثلثا تلك الأبار في غرب آسيا، حيث تُعدّ المملكة العربية السعودية أكبر منتج للنفط في العالم.



## الموارد المائية

ناصر، ممسكاً بزمام النهر بإحكام من خلال تخزينه مياه الفيضان في ما يُعد حالياً أضخم خزان اصطناعي للمياه في العالم، يرى بعض الخبراء أنه ستكون للسد العالي عواقب وخيمة بعيدة المدى على البيئة فالسد يحول دون وصول العناصر المغذية التي تحملها مياه النهر من المناطق الاستوائية، مما يزيد في درجة ملوحة التربة ويقلص الثروة السمكية في شرق البحر المتوسط والسدود التي أقامتها تركيا على نهر الفرات، لم تكن بأي حال أقل إشارة للجدل والمشاكل. فسد كيبان (1975) وسد كراكايا (1987)، وكلٌ منهما معدٌ لاختزان حوالي 30 مليون كيلومتر مكعب من المياه بغية توليد الطاقة الكهربائية وتنظيم جريان مياه النهر، قد مولا جزئياً بقروض من البنك الدولي. غير أن البنك نفسه رفض الإسام في بناء سد أتاتورك الأضخم حجماً، البالغة سعته التخزينية زهاء 46 مليون كيلومتر مكعب، لأن سورية والعراق اللتين يعبر مجرى النهر السفلي أراضييهما، امتنعتا عن الموافقة على المشروع. لقد خففت السدود التركية ومشاريع الري المرتبطة بها من تدفق نهر الفرات بمقدار النصف تقريباً، من 30 مليون متر مكعب إلى ما دون 16 مليون متر مكعب في السنة، ودفعاً عن موقفها، تدعى تركيا أن متوسط استخدام البلدين من مياه النهر لم يتعد قط 15 مليون متر مكعب سنوياً، وبالتالي ليس ثمة من ضرر يصيب أيهما منهما. كذلك تعكف تركيا على تطوير نهر دجلة من خلال سلسلة من المشاريع التي قد تفضي إلى انخفاض حجم التدفق المائي، إنما مع تحسن في مستوى الاعتمادية. فالعراق هو المستفيد الأكبر من نهر دجلة، وأي نقص يحصل في تدفق مياه الفرات نتيجة الأشغال الهندسية التركية قد يتقلب نفعاً له من خلال تطويره مياه دجلة. وربما لا تتجلى قضية إدارة المياه المشحونة بكل عوامل التفجير كأوضح ما يكون للعلمان مثلما تتجلى في الجدول الدائر حول اقتسام مياه نهر الأردن، النقطة المفضلية في النزاع العربي - الإسرائيلي. فمعاهدة السلام المبرمة بين إسرائيل والأردن في تشرين الأول/أكتوبر 1994، تتضمن بنداً ينص على تزويد الأردن وعلى مراحل بكمية 200 مليون متر مكعب من المياه سنوياً، على أن يؤمّن جزء من هذه الكمية من الموارد المائية الإسرائيلية الحالية، والجزء المتبقى من مشاريع التطوير المشتركة. وخلال المفاوضات

لطالما كان للماء، وفرته أو ندرته، أعمق الأثر في تلك المناطق التي شكّل قلب العالم الإسلامي. ففي مصر الغابرة، أثمرت عدة قرون من الخبرة الإنسانية في التحكم بفيضان النيل السنوي وتصريفه عبر منظومة معقدة من ري الحياض، تلك الهندسة المدرجة فائقة الدقة للأهرامات. وفي بلاد ما بين النهرين، كما في مصر، كانت الدولة بكل بُناها البيروقراطية اللازمة لممارسة السلطة والسيطرة، هبة النهرين بالذات. وفي الجزيرة العربية، احتلت حقولة الأرض وقيمة المياه مكانهما كمفردتين أساسيتين في لغة الإسلام. ففي القرآن، المطر النادر والثمين، الذي يجعل الصحراء تزهر ما بين ليلة وضحاها، إن هو إلا آية من آيات الله، واستعارة مجازية تُستخدم للبعث والنشور: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾ (سورة فصلت، آية 39)، والمعنى الجذر للفظ «الشريعة» هو السيل أو المجرى إلى حيث الإرواء، مصدر البقاء والنقاء. وهناك معجم عربي من القرن الثامن عشر يُشبه الشريعة بماء السلسيل «الذي يروي ظمأ الإنسان ويُطهره من خلال الصوم والصلاة والصح والزوج. لقد كانت إدارة الماء مفتاحاً أساسياً للنجاح أو الفشل بالنسبة للحكومات الإسلامية في الماضي. ففي منطقة أعالي الفرات، حرص الخلفاء العباسيون على ترميم وتوسيع قنوات المياه الجوفية التي بناها الساسانيون، مما أتاح لهم إضافة مساحات جديدة قابلة للزراعة. وبالعكس، فإن إهمال منظومة الري في العصور اللاحقة عجل بتدهور أوضاع تلك الدولة اقتصادياً وسياسياً.

هذا وتعد إدارة المياه عاملاً مفصلياً في تطور مصر الحديثة. فتحت حكم أسرة محمد علي، بُنيت أولى السدود وخرّانات المياه للسيطرة والتحكم بفيضان النيل، مما وسّع رقعة الأرض الزراعية وسمح باستخدام المنبسب الفيضي الواقع ما بين القاهرة والجزيرة لإقامة مدينة جديدة على الطراز الأوروبي تتخللها الميادين والجادات العريضة. وجمال عبد الناصر، الزعيم القومي الكاريزمي الذي أطاح بالملكية في عام 1952، عجل بحدوث أزمة السويس عام 1956 عندما أقدم على تأميم قناة السويس بعدما رفضت الولايات المتحدة تمويل السد العالي في أسوان. والسد الذي بُني بمساعدة سوفيتية، يرض اليوم عند بحيرة



## تجارة السلاح

أيضاً، في «وحدات الغوريكا النيبالية» لدى بريطانيا، و«الفيلق الأجنبي» لدى فرنسا على سبيل المثال لا الحصر. وعلى النقيض، ثمة دول إسلامية استحدثت لنفسها وحدات عسكرية من النخبة تقترب اقتراباً وثيقاً بحكامها، كما هي الحال، مثلاً، مع الحرس الثوري الإيراني (باسدارن انقلاب)، أو السلاح الجوي الملكي الأردني. إلا أن هذه، هي الأخرى، لا تعدو كونها ممارسة ثقافية هجينة.

وأنواع منظومات السلاح متعددة، فهي تشمل المدرعات، والطائرات، والسفن الحربية، والصواريخ، وفي بعض الحالات القليلة الأسلحة الكيميائية والنووية. وجميع أنواع الأسلحة هذه نشأت وتطوّرت

العناصر الأساسية للقوات المسلحة الحديثة ثلاثة، هي: أنواع السلاح المستعمل؛ مصادر التزوّد بالسلاح؛ وتنظيم الأناس المطلوب منهم استخدام ذلك السلاح. والقوات المسلّحة للدول ذات الأغلبية السكانية المسلمة لا تملك في العادة إلا خصائص قليلة تميّزها عن سواها وتطبعها بالطابع الإسلامي.

فهذه الدول كافة تملك قوات مسلحة منظمّة قوامها موظفون ومستخدمون بدوام كامل، وهي مرتبة وفق هيكلية عسكرية تبلورت في أوروبا خلال القرن الثامن عشر إنما جرى تكيفها بما يتماشى وطبيعة العقاد المعاصر، بما في ذلك الطائرات. فالمصطلح العسكري «سكادرون»، الذي كان يُستخدم تاريخياً للدلالة على



«شاهين -1»، صاروخ باكستاني أرض - أرض، يستطيع حمل أي نوع من أنواع الرؤوس الحربية، بما فيها النووية، إلى مسافة 434 ميلاً (حوالي 700 كيلومتر). التقطت هذه الصورة في تشرين الأول/أكتوبر 2003، في وقت بدت فيه محادثات السلام الجارية مع الهند حول المنطقة المتنازع عليها من كشمير وكأنها على وشك الانتهاء.

مجموعة صغيرة من السفن (عمارة أسطول)، أو على شرنمة من الفرسان (سرية خيالة)، بات يطبق على الطائرات (سرب طائرات). وحتى البرزات العسكرية، فإنها تجدها هي الأخرى ذات تصاميم أوروبية طاغية. إن القوات المسلحة لجميع الدول مشربة بالثقافات التي أوجدتها، والقوات المسلحة في الدول الإسلامية ليست استثناءً عن هذه القاعدة. لكن التقاليد الإسلامية يمكن تلمسها في رزي الوحدات وأعلامها أو شعاراتها. فبعض الدول، ولا سيما الدول الصغيرة في الخليج مثلاً، تستفيد من خدمات المرتزقة على نطاق واسع. لكن هذه الممارسة القديمة العهد والهجينة ثقافياً يمكن العثور عليها في غير الدول الإسلامية

الدول الإسلامية، من المغرب إلى إندونيسيا، تدور بمعظمها حالياً في فلك الولايات المتحدة. وتبعاً لذلك، تميل تلك الدول إلى تدريب وتنظيم قواتها المسلحة على النمط الأمريكي. وهذا النموذج يحلّ بأطوار محل نظيره البريطاني أو الفرنسي أو الروسي السابق، إلا في حالتي سورية وليبيا، حيث أسلحة وتنظيمات الحقيبة السوفييتية لا تزال ملموسة إلى حد بعيد. ربما تكون إيران استثناءً لجهة تطويرها مركزاً مستقلاً لها على الصعيد العسكري. إلا أن هذا المركز ما برح ضعيفاً وفي أولى مراحل نموه. ثمة من بين أعضاء الحكومة الإيرانية من يعلن أن الأسلحة النووية تتنافى ومبادئ الإسلام. صحيح أنك تلمس مشاعر وآراء مماثلة يعبر عنها في البلدان المسيحية، إلا أنه نادراً ما تجدوها داخل الحكومة.

إلى ما هي عليه الآن من قبل الدول الصناعية إبّان الحرب العالمية الثانية. والدول الإسلامية بعامةً تدرج في عداد البلدان النامية، إذ لا تملك أي منها قاعدة صناعية متقدمة، مما يعني أنها مضطرة إلى استيراد منظومات أسلحتها الرئيسية كافة من الخارج. والاستثناء هنا نوعان: الأول، إن البنادق والمسدسات وذخائرها وسواها من الأسلحة الصغيرة يتم صنعها بكميات وفيرة؛ والثاني، إن بضع دول مما لها حلفاء أقوياء، مثل باكستان وتركيا ومصر، تحظى بقدر من المساعدة الخارجية في تطوير صناعة خاصة بها لإنتاج الأسلحة. ويعتقد أن باكستان قد حصلت على مساعدة تقنية من الصين في تطوير برنامجها النووي. وعلى شاكلة القسم الأكبر من دول العالم، نجد



## إضاءة سريعة: جنوب شرقي آسيا 1950 - 2000

الشرقية، وكذلك في جنوب جُزُر سيلانيزي. وفي تشرين الأول/أكتوبر 2002، انفجرت قنابل (يُزعم أن أعضاء من منظمة «القاعدة» هم الذين زرعوها) في حانة ليلية على جزيرة بالي، مما أسفر عن مقتل 200 شخص وجرح 300 آخرين.

نالت ماليزيا استقلالها في العام 1957 وشكلت اتحاداً يضم الملايو وسنغافورة وصباح وساراواك. وقد انسحبت سنغافورة من الاتحاد في العام 1966 واعتنقت سياسة للحكم متعدد الأعراق والديانات: فيما يُعتبر الإسلام، على النقيض من ذلك، دين الدولة الرسمي في ماليزيا. منذ ما قبل تأسيسها، وحالات

شهدت أواخر الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين ظهور تشكيلة متنوعة من الدول في جنوب شرقي آسيا. تتألف المنطقة، في الوقت الحاضر، من جمهورية إندونيسيا واتحاد ماليزيا وسلطنة بروناي، حيث المسلمون أكثرية؛ ومن جمهوريات سنغافورة والفلبين وميانمار (الجمهورية الاشتراكية للاتحاد البورمي)، ومملكة تايلاند، وجمهورية لاو الديمقراطية الشعبية (لاوس)، وجمهورية كامبوتشيا الشعبية (كامبوديا)، وجمهورية فييتنام الاشتراكية، حيث المسلمون أقلية.

تميز انخراط المسلمين في تكوين وتطوير عدد من هذه الدول على مدى السنوات الخمسين الماضية

فتيات صغيرات في آتشيه بإندونيسيا يتعلمن القرآن. كانت آتشيه، تاريخياً، مركزاً للمقاومة الإسلامية ضد الحكم الاستعماري الهولندي، وهي اليوم المقاطعة الإندونيسية الوحيدة التي أعادت العمل بالشريعة الإسلامية كأساس للقانون العام.



بالتعدد والتنوع. وقد تخللته، جزئياً، سلسلة من الالتجاعات التي شملت مسلمين من شتى التوجهات والطلعات.

فتكوين جمهورية إندونيسيا مثلاً في الفترة 1949 - 1950، اقترن بانتفاضات (1948 و 1953) قام بها عدد كبير من المسلمين في غرب جاوه وجنوب جُزُر سيلانيزي (سلبيس) وآتشيه (شمال سومطرة). لأن زعماءهم لم يرق لهم القرار المتخذ بتقييد دور الإسلام في الجمهورية الوليدة. وفي السنوات الأخيرة كذلك، شهدت إندونيسيا ولا تزال سلسلة من النزاعات المحلية والإقليمية والدولية التي للمسلمين ضلع فيها. فما بين عامي 1999 و 2000، اندلع صراع بين المسلمين والمسيحيين في جزر الملوك (ملوكو) الإندونيسية



الانفصال عن دولة الفلبين، وإلى إقامة وطن مستقل للمسلمين الفلبينيين. كما سعت حكومات فيلبينية متعاقبة إلى التوصل إلى تسويات مع المسلمين في المنطقة. والمسلمون في تايلاند يتركزون بالدرجة الأولى في ساتون، شمال غربي البلاد، وفي الأقاليم الجنوبية: باتاني وويلا وناريثوت، المحاذية لماليزيا. وقد بلغت مقاومة المسلمين للدولة التايلاندية، المتخذة شكل نضالات مسلحة ودعوات انفصالية، ذروتها في عقد التسعينيات من القرن العشرين. أما المسلمون في ميانمار (بورما)، فهم يقطنون غالباً في منطقة أراكان على حدود البلاد مع بنغلادش، وما انفكوا منذ خمسينيات القرن المنصرم في نزاع متواصل مع السلطات هناك حول وضعهم القانوني.

التوتر دائمة الحدوث بين سكان ماليزيا الصينيين والملاويين، حتى إن إحداها انفجرت على شكل أعمال شغب عرقية في عام 1969. وحيث إن الملاويين مسلمون ويشكلون الغالبية العظمى من سكان البلاد، فإن مثل هذه النزاعات بين فئات المجتمع المختلفة لا بد من أن تأخذ بعداً دينياً. غير أن ماليزيا تشهد كذلك توتراً داخل المجتمع الإسلامي نفسه يستمر معه المسلمون في مناقشة طبيعة دور الإسلام ومداه في شؤون الحكم.

وفي الفلبينيين، يتواجد المسلمون (أو «المورو» كما يُسمون في كثير من الأحيان) أكثر ما يتواجدون على جزيرة مندناو وأرخبيل سولو. وقد رأينا المسلمين هناك يدعون في أوائل السبعينيات من القرن العشرين إلى



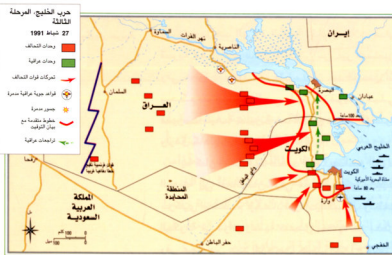
## إضاءة سرية: العراق 1917 - 2003

السكان هم من الأكراد، ويتواجدون أساساً في شمال البلاد. خلال السنوات الأخيرة من الحكم العثماني، انبثقت حركة تدعو إلى الاستقلال بين ضباط الجيش وأعيان المدن، أجتاحت مشاعر قومية عربية حيّاشة. وحين مُنحت بريطانيا، التي كانت احتلت بغداد عام 1917 ونصبت حكومة عسكرية في البصرة، تفويضاً بالانتداب على العراق في مؤتمر سان ريمو عام 1920، واجهت سلسلة من الثورات شارك فيها موظفون سابقون في الإدارة العثمانية وملأ عقاريون وزعماء عشائر ورجال دين سُنّة وشيعة، وكذلك ضباط عسكريون. ردّ الإنجليز على ذلك بإقامة ملكية دستورية على رأسها فيصل بن الحسين، أحد أبناء شريف مكة، الذي كان الفرنسيون قد أخرجوه عنوة من دمشق. وقد انتهى الانتداب البريطاني في عام 1932، حين قبل العراق عضواً في عصبة الأمم، لكن بريطانيا احتفظت بقواعد جوية لها في الشَّعْبَة والحَبْانية، ويحصة حاكمة في شركة نفط العراق التي باشرت بتصدير النفط في عام 1934. ولئن أُدخلت النخبة العراقية في الحكومة، إلا أنها ظلت منقسمة على نفسها تختارها مختلف المصالح القنوية والعشائرية، في حين عملت الاضطرابات في فلسطين الناجمة عن الهجرة اليهودية على إلهاب الحس القومي والمشاعر المناوئة للإنجليز. وقد أدّى انقلاب عسكري موّلت للمحور قامت به مجموعة من الضباط القوميين عُرفت بـ«المربع الذهبي»، إلى احتلال البريطانيين بغداد والبصرة للمرة الثانية في عام 1941.

وتسببت أزمة السويس عام 1956، وانضمام العراق إلى «حلف بغداد» الذي يضم تركيا وإيران وباكستان، والموالي للغرب والهادف إلى احتواء النفوذ السوفييتي، بحوادث توترات شديدة ما لبثت أن انتهت بقيام ثورة تمكنت بدعم شيوعي من الإطاحة بالنظام الملكي في عام 1958. غير أن الحكم العسكري الجديد نفسه استُبدل في عام 1963 (ومرة أخرى في عام 1968) بضباط ينتمون إلى حزب البعث العلماني التوجه. وفي ظل صدام حسين التكريتي (نائب رئيس الجمهورية الفريق أحمد حسن البكر، ورجل النظام القوي قبل زمن طويل من تبوؤه سدة الرئاسة في عام 1979)، سُفرت عشيرة البو نصير من تكريت جهاز حزب البعث على

شأن معظم الدول العربية، أصبح العراق دولة مستقلة بعد انقراض عقد الأمبراطورية العثمانية عند نهاية الحرب العالمية الأولى. وقد واجه منذ البداية مشاكل جمة في بلورة شعور موحد بالهوية القومية. صحيح أنه كان تحت حكم العثمانيين المتمسكين بالمذهب السنّي، إلا أن أغلبية السكان العرب (حوالي 60 بالمئة) هم من الشيعة الذين تربطهم وشائج دينية وثقافية قوية بإيران المجاورة، حيث المذهب الشيعي هو عقيدة الدولة الرسمية منذ القرن السادس عشر. وزهاء ربع





المونال المعمول به في بلدان أوروبا الشرقية لبناء مراكز قوى مهولة أساسها توليفة مركبة من المصوبية والإكراه. وقد أثبت نظام الحكم هذا أنه منبع وصامد على نحو لافت للنظر. وعمل ما في وسعه لخلق شعور بالهوية الوطنية العراقية. أساسه التراث العربي - الإسلامي والتراث «الرافدي» ما قبل الإسلامي، مع توظيفه للتقنيات الأثرية والفولكلور والشعر والفنون على أنواعها لتعزيز حسّ الفريدة والتمايز العراقيين. وجرى التنكيل بالأكراد على نحو وحشي، فدمرت نحو من ألف قرية وأزهقت آلاف المدنيين بالغازات السامة. هذا بينما وقف الشيعة، على وجه العموم، إلى جانب الحكومة في حربها الكارثية مع إيران (1980-1988)، وإن كانت هناك معارضة لا يستهان بها من جانب حزب الدعوة الذي أسسه رجل الدين المغدور، آية الله محمد باقر الصدر في ستينيات القرن العشرين. وفي أعقاب قيام قوات تحالف دولي بطرد العراقيين من الكويت في عام 1991، اندلعت انتفاضة شيعية في عدد من المدن الجنوبية، من بينها البصرة والنجف وكربلاء، لكنها سرعان ما أخذت دونما رحمة بالرغم من وجود القوات الأميركية في المنطقة. وفي حملتها لاستئصال شأفة المعارضة بكل صورها، أقدمت الحكومة العراقية على تجفيف المستنقعات الجنوبية (الأهوار) التي يقطنها الشيعة؛ في حين وجد الأكراد في المظلة الجبوية للقوات المتحالفة حماية فعالة لهم. وخلافاً لكل التوقعات، لم تعمل العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق بعد احتلاله الكويت سوى على تشديد قبضة النظام الحاكم على المجتمع العراقي، وأغنت أكثر فأكثر الشبكات التي يسيطر عليها صدام حسين وابناءه من خلال احتكارهم صادرات النفط غير الشرعية وبرنامج الأمم المتحدة «النفط مقابل الغذاء». وقد اكتمل سقوط النظام إثر الهجوم الأنجلو - أمريكي على العراق في آذار/مارس 2003، بالقبض على صدام حسين في كانون الأول/ديسمبر من نفس العام. إلا أنه من غير الواضح بعد ما إذا كان الأميركيون سينجحون في تحقيق هدفهم المعلن، ألا وهو إقامة نظام حكم ديمقراطي يحظى بالقبول لدى جميع فئات الشعب العراقي.

## إضاءة سرية: أفغانستان 1840 - 2002



أفغان يحمل قذيفة إلى خط الجبهة. سوف يتلقى هؤلاء المقاتلون في وقت لاحق صواريخ «ستينغر» أرض - جو. وهذا السلاح على خفة وزنه وقابليته للحمل، يحتوي على أجهزة إلكترونية بالغة التعقيد لتتبع الهدف. وقد تزود المقاتلون سراً بهذا الصاروخ عن طريق دائرة الاستخبارات الباكستانية. وكان له أثر مدمر على الاحتلال السوفييتي، وأتاح لرجال قبائل غير مدربين أن يستولوا طائرات هليكوبتر حربية.

1919)، مُنِجَ مبدأ الاحتراف في الجيش، كما أدخل التعليم الحديث إلى البلاد. وقام ابن حبيب الله وخلفه أمان الله (1919-1929) بدفع عجلة التحديث أشواطاً إلى الأمام باقتراحه تغييرات تشريعية كبيرة، بما في ذلك تحريم العبودية. وشرع يسمح بتعليم النساء، وعدل من وضعيتهن القانونية بأن منحهن حقوقاً متساوية في الزواج والطلاق والميراث، كذلك اعتمد اللباس الغربي في البلاط. فأثارت تلك الإصلاحات حفيظة بعض العلماء وزعماء القبائل المحافظين المنتمين إلى الطريقة النقشبندية، فناروا على أمان الله وأجبروه على ترك البلاد إلى المنفى في عام 1929.

وآل الأمر بعد أمان الله إلى القائد العسكري البشتوني نادر شاه (ح 1929-1933)، فأعاد خَلْفَهُ ظاهرشاه (ح 1933-1973) العمل بالحاكم الشرعية، وكافأ قبائل البشتون التي كان يعول عليها بإدناق المناصب الحكومية على زعمائها، وغض الطرف عن ممارسة التمييز المفرط ضد أبناء البلاد من غير البشتون في توزيع الثروة. وفي الوقت عينه، استؤنف برنامج التحديث إنما بشكل معدل، اضطلعت الدولة فيه بالدور الرئيسي في التنمية الاقتصادية. وبفعل الضغوط الاستراتيجية الناجمة عن مفاعيل الحرب الباردة والنزعة القومية البشتونية للنظام التي ولدت ثورات حادة مع الدولة الجارة: باكستان، اقترب طرفٌ نافذٌ في النخبة البشتونية من موسكو. وآلت هذه العملية إلى عزل ظاهر شاه على يد ابن عمه، رئيس الوزراء الأسبق محمد داود، بدعم من بعض الدول المجاورة. ألغى داود الملكية، وأعلن نفسه رئيساً لجمهورية أفغانستان. ردّ السوفييت بتدبير انقلاب عسكري قاده حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني، الشيوعي، وأدت هذه الخطوة إلى تدخل سوفييتي مباشر في عام 1979 لمساندة جنّاح «برشام» (غير البشتوني) في حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني بزعامة بابر كرامال. والجهاد الذي تبع ذلك، ونال دعم بعض الدول العربية، إضافة إلى باكستان

أفغانستان بلاد جبلية تكثر فيها الأودية السحيقة والوادي والتجود القاحلة: وهي لم تُشكّل في أي وقت مضى كياناً سياسياً واحداً وإن دخلت أجزاء منها ضمن دولة البشتون التي أسسها أحمد شاه دوراني (ح 1747-1772). سكّان البلاد في غاية التعدّد والتنوع، يُمثّل البشتون، وهم أكبر مجموعة عرقية - لغوية فيهم، حوالي 47 بالمئة. وتتركّز هذه المجموعة السكّانية في الحزام الجنوبي من المناطق المحاذية للحدود مع باكستان. أما الطاجيك، وهم ثاني أكبر مجموعة سكّانية من حيث الحجم (حوالي 35 بالمئة)، فيعيشون أساساً في شمال البلاد، إلى جانب الأوزبك والتركمان والقرغيز (8 بالمئة)، فيما يمثّل الهزاره، وهم من الشيعة الإمامية، نحواً من 7 بالمئة من السكّان.

ونتيجة الصراع بين الإخوة، تفككت أوصال الدولة الدورانية في القرن التاسع عشر، وقد فتح ذلك الباب واسعاً أمام التدخل الروسي والبريطاني. فاهتمام بريطانيا بحماية إمبراطوريتها من التحدّيات الروسية، حفّزها على اجتياح أفغانستان مرتين: الأولى في الفترة 1839-1842، والثانية في الفترة 1879-1880. ونظراً لحاجتها إلى حكومة مركزية قوية لتثبيت وجود أفغانستان دولة عازلة في وجه الروس، نصّبت بريطانيا «الأمير الحديدي» عبد الرحمن خان (ح 1880-1901)، فوطّد هذا الأخير سلطانه على البلاد بشنّ حرباً ضد الهزاره الشيعة وقام بحملات هداية قسرية لأهالي كفرنستان الأصليين من غير المسلمين. وفي خطوة لم يسبق لها مثيل، أعلن عبد الرحمن أنه يحكم بموجب حق إلهي وليس بتفويض قبلي. فمُورست سياسة تمييزية ضد كل من هو غير البشتون وأرقق كاهلهم بالضرائب الجائرة.

أيّا كان الأمر، فقد أدخلت أيضاً عناصر الدولة الحديثة إلى أفغانستان، وفي مقدمتها تكوين جيش مركزي استُخدم لإخماد تمردات القبائل، ونُظمت الحكومة في دوائر رسمية منفصل بعضها عن بعض. وفي عهد ابن عبد الرحمن، حبيب الله (ح 1909-1929)



## الجزيرة العربية والخليج 1839 - 1950

وثويني، بإصدارهم مرسوماً يقضي بأن تعوّض زنجبار التي ورثها ماجد، على مسقط التي ورثها ثويني، لفقدان هذه الأخيرة العائدات من جراء تقسيم السلطة بينهما. والذي حُصّ بريطانيا على التدخل في منطقة الخليج إلى الشمال من مسقط، الحاجة إلى مكافحة القرصنة المستفحلة فضلاً عن شيوخ الاسترقاق هناك. وهكذا، وقّعت سلسلة من المعاهدات ما بين عامي 1835 و 1853 وافق بموجبها شيوخ القبائل العربية المشتغلة في البحر، التي كانت تعيش على الغنائم المنتزعة من السفن العربية وحتى البريطانية، على عقد هدنة تنهي كل أعمال القرصنة، والموافقة في الوقت عينه على حظر تجارة العبيد، وترك أمر الإشراف على مدى التقيد بالموافيق للبحرية الهندية البريطانية. وقد حُصّي نظام التهاند هذا صناعة صيد اللؤلؤ في الخليج، كما عاد بالغائدة على الملاحة العربية التي طالما عانت أكثر من غيرها من انعدام الأمن والطمأنينة بسبب القرصنة، مما كان يحمل التجار المحليين على نقل بضائعهم بواسطة السفن البريطانية الأفضل تسليحاً والأمن حماية. ودويلات الساحل المتصالح (دولة الإمارات العربية المتحدة حالياً) ظلت بحكم المحميات البريطانية حتى عام 1971، ترفضها بريطانيا بالضباط وتُخرف على سياستها الخارجية.

وسّعت بريطانيا نطاق نفوذها ليشمل الكويت عام 1896، حيث أقامت محمية غير رسمية لحماية وكيلها، الشيخ مبارك الصباح، من الاحتلال التركي المباشر. وبصفتها قوة رئيسية كبرى في المنطقة، راحت بريطانيا تتدخل في العديد من النزاعات المحلية وتُدخل تعديلات على الحدود المتنازع عليها، وتحاول ضمان استمرارية الوراثة. وأبرز حالة تستحق الذكر في هذا الصدد، النزاع الذي نشب بين أبو طلي وعُمان والمملكة العربية السعودية على واحة البريمي. وقد فُض النزاع بقيام قوات الساحل المتصالح العُمانية بقيادة بريطانيا بإخراج السعودية من الواحة في عام 1955. كما أن مطالبة العراق بالكويت (التي تعود إلى أيام العثمانيين حين اعترف الشيخ رسماً بالسيادة العثمانية على بلاده) قاومتها بريطانيا بأن أرسلت جنودها إلى الكويت لضمان استقلالها في عام 1961.

التاريخ الحديث للجزيرة العربية والخليج عبارة عن نسج معقد من التفاعلات بين القوى المحلية على الأرض من جهة، والقوى الإقليمية والدولية من جهة أخرى. وقد تصاعفت الرهانات تضاعفاً هائلاً بوجود النفط واعتماد الاقتصادات الغربية، بالإضافة إلى الاقتصاد الياباني، على الإمدادات المنتظمة التي يُمكن تأمينها منه. وإلى حين اكتشاف النفط في المنطقة، كانت في الأغلب الأعم منطقة فقيرة (فيما خلا مركزيّ صيد اللؤلؤ في الكويت والبحرين وميناء مسقط التجاري)، ولا أهمية كبيرة لها بالنسبة للعالم الخارجي. بيد أن بريطانيا كانت في حاجة إلى حماية إمبراطوريتها الهندية من خصوم أو منافسين محتملين، بمن فيهم روسيا القيصرية والسلطنة العثمانية وإيران، لذلك أقدمت على احتلال عدن في عام 1839، التي سرعان ما أصبحت محطة حيوية للتزود بالفحم (وفيما بعد مستودعاً لإعادة التزود بالوقود) في الطريق إلى الهند.

وهذا التطور الذي عرفته عدن، دشّن عملية ضخمة قام بها البريطانيون طوال الثلاثينيات من القرن العشرين لتهدئة كل المنطقة الساحلية في جنوب الجزيرة العربية ولا سيما القطاعات القريبة من موانئها، بما فيها مرتفعات لمح والمدن - الدويلات المتناحرة في وادي حضرموت، مستخدمين في ذلك قاذفات القنابل التابعة ل سلاح الجو الملكي كرادع أخير. وقد صُمّت محمية جنوب الجزيرة العربية (سُميت لاحقاً «اليمن الجنوبي» قبل أن تتوحد مع اليمن في عام 1991) نحواً من ثلاث وعشرين سلطنة وإمارة وكيانات قليلة تحت السيطرة التامة والشاملة لبريطانيا، حيث السلاطين يهيمنون على المدن، وحيث طبقة «السّباد» التي تزعم تحذرها من سلطة الرسول، تحتكر ملكية الأرض وتقوم بدور الوسيط بين عشائر الداخل. وإلى مسافة أبعد شرقاً، تمكّنت أسرة البوسعيد العُمانية في عهد زعيمها سيد سعيد بن سلطان (1807-1856) من خلق دولة مترامية الأطراف في المحيط الهندي أخذت تغتني وتزداد ثراءً بفضل تجارة العبيد وتصدير العاج والتوابل من المناطق الخاضعة للسلطان في زنجبار. وبموجب سلسلة من الموائيق المبرمة ما بين 1838 و 1856، نزل سيد سعيد عند طلب الإنجليز بالحد من النخاسة في البلاد، موفراً المزيد من النزاعات للتدخل البريطاني. فُلّدي وفاته في العام 1856، سوى البريطانيون نزاعاً نشب بين ابنه: ماجد



## صعود الدولة السعودية

بحيث انتقلت السلطة في تسعينيات القرن التاسع عشر إلى أسرة آل الرشيد الموالية للعثمانيين. ومن خلال إحيائه دولة أسلافه إثر غارة قام بها على معقل آل الرشيد في الرياض عام 1902، اتبع سليل محمد آل سعود، المغفور له عبد العزيز بن سعود، النموذج الكلاسيكي نفسه الذي يُضافر بين القوة العسكرية للقبائل والقوة المعنوية للإحياء الديني. نظم محاربو ابن سعود، المعروفون بـ«الإخوان»، ضمن مستوطنات زراعية سُميت «الهجرات». وقد استلهمت هذه الأخيرة من المجتمع الذي بناه النبي محمد عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة في العام 622، وقد أخضع فيها البدو لتدريب عسكري وتثقيف ديني صارم. ولما كانت مستوطنات «الهجرات» تلك متوزعة في نقاط استراتيجية على امتداد الهضبة النجدية، فقد كان في استطاع تعبئة الإخوان وحشدهم على جناح السرعة مما وقرع على ابن سعود أعباء الإنفاق على جيش مستديم.

وقد أعادت الدول الأوروبية تحريك الدولة السعودية باتجاه الخارج بأن أحكمت الطوق على الجزيرة العربية من خلال السيطرة على محيطها.



مراحل اتساع الدولة السعودية  
1926-1902

أراضي تحت سيطرة ابن سعود حوالي 1912

أراضي تم تحريرها بحلول 1920

أراضي تم تحريرها بحلول 1926

جبهات وبعثات عسكرية كبرى

صهيح

أراضي تحت سيطرة الإخوان

أراضي تحت النفوذ البريطاني

أراضي تحت النفوذ الفرنسي

أراضي تحت النفوذ التركي

أراضي تحت السيطرة الإيطالية

لعلك تجد في قيام المملكة العربية السعودية في القرن العشرين ترجيعاً للعديد من السمات التي وسمت دعوة النبي محمد عليه الصلاة والسلام. يعود تأسيس الدولة السعودية الأولى إلى القرن الثامن عشر، حين قامت على تحالف ما بين مُصلح ديني من المذهب الحنبلي، هو محمد بن عبد الوهاب، وبين محمد آل سعود، حاكم مدينة عنيزة بالقصيم. إلا أن نفوذ محمد آل سعود تقلص كثيراً من جراء التدخل المصري في عام 1818،

المغفور له بإذن الله الملك عبد العزيز بن سعود (يبدو في الصورة جالسا في الصف الأمامي إلى اليسار). وقد طوّر ابن سعود حركة «الإخوان» بتجنيد أفرادها من القبائل البدوية. وبهذه القوة الملتزمة، استطاع بناء الدولة التي صارت تُعرف منذ عام 1932 بـ«المملكة العربية السعودية».



## إضاءة سريضة: إسرائيل - فلسطين

تكمّن جذور النزاع العربي - الإسرائيلي في حينين اليهود الدهري للعودة إلى «أرض إسرائيل»، الأرض التي وعد الله بها النبي إبراهيم. وقد بُنيت الصهيونية الحديثة على هذا الاعتقاد الموروث، إذ رأت أن الخلاص من الاضطهاد يكون في امتلاك أرض يمكن إقامة دولة يهودية ذات سيادة عليها. أقيمت أول مستوطنة يهودية عام 1878 في بتاح تيكفا. وأثناء الحرب العالمية الأولى، أعطى البريطانيون تعهدات متناقضة للعرب واليهود: فوعدوا شريف مكة بدولة مستقلة، وبناء عليه قاد ابنه فيصل وعبد الله الثورة العربية ضد الأتراك العثمانيين: وفي نفس الوقت، قبلوا بإقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وهو المشروع الذي حظي بتأييد متزايد من الجاليات اليهودية في أوروبا، ولا سيما بعد وصول النازيين إلى سدة الحكم في ألمانيا. وإثر انتفاضة قام بها عرب فلسطين ابتداء من عام 1936، وضعت خطة لتقسيم فلسطين إلى دولتين: عربية ويهودية، إلا أن الخطة عُلّقت لدى اندلاع الأعمال العدائية بين الطرفين عام 1939. وبعد أن أضاف الحلفاء في الحرب العالمية الثانية النقب عن قطائع الإبادة الجماعية التي اقترحتها النازيون بحق اليهود، تزايدت الضغوط للسماح بهجرة يهودية واسعة النطاق إلى فلسطين، وسرعان ما أصبحت تلك الضغوط جارفة بتعذر الوقوف في وجهها. في عام 1947، صدرت خطة تقسيم فلسطين عن منظمة الأمم المتحدة التي تنص على قيام دولتين: عربية ويهودية، «متشابهتين معاً في عناقق غير ودي لكانهما حيّتان متصارعتان»، على حد وصف أحد المسؤولين. قُبِلَ زعماء اليهود بالخطة لكن العرب رفضوها. في 14 أيار/مايو 1948، انسحب البريطانيون من فلسطين، وفي اليوم التالي اعترفت الدول الكبرى باستقلال دولة إسرائيل. استطاعت الدولة الجديدة أن تنجو من هجمات متزامنة إنما غير منسقة، شنّها عليها جيوش الدول العربية المجاورة، مما عاد عليها بمزيد من الأراضي فوق ما خُصص لها بموجب خطة الأمم المتحدة. بسط شرقي الأردن - الأردن لاحقاً - سيطرته على جزء من فلسطين، بما فيه القدس الشرقية التي تضم أماكن ومزارات مقدسة لدى اليهود والمسيحيين والمسلمين جميعاً. وجاءت هجمات شنها مقاتلون يهود غير نظاميين، كالمذبحة التي طالب أهلها قرية دير ياسين الفلسطينية عام 1948، لتحتل آلاف الفلسطينيين على الفرار من مدُنهم وقراهم، مما خلق مشكلة لاجئين سوف تعمل باستمرار على صبّ الزيت على النار وتتمسب بنشوب الحروب تباعاً في الأعوام 1956، 1967، 1973 و 1982.



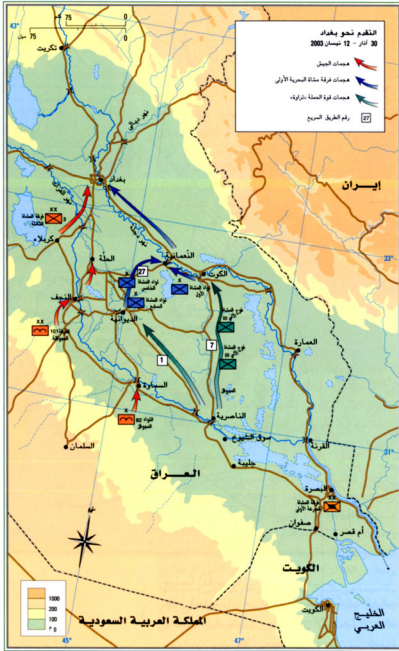
كانت منظمة التحرير الفلسطينية، بزعامة ياسر عرفات، قد اعترفت بحق إسرائيل في الوجود عام 1988، وظفرت بحكم ذاتي محدود للفلسطينيين في غزة وأريحا وأجزاء أخرى من الضفة الغربية بموجب اتفاق أوسلو لعام 1993، فإن منظمته حماس والجهاد الإسلامي وسواهما من المنظمات الإسلامية، قد أعلنت رفضها للعقيلة السلمية. والحال، أن استمرار الاستيطان اليهودي، والهجمات الإرهابية على المدنيين بما فيها التفجيرات الانتحارية، والإجراءات التي تتخذها إسرائيل من قبيل بناء جدار فصل على شاكلة جدار برلين بين إسرائيل والضفة الغربية، وعمليات «القتل المستهدف» التي تطال قادة فلسطينيين، إن كل ذلك جعل احتمالات التوصل إلى سلام بين إسرائيل والفلسطينيين أكثر صعوبة.

أدت الحرب العربية - الإسرائيلية الثالثة في حزيران/يونيو 1967 إلى تمكين إسرائيل من السيطرة على شبه جزيرة سيناء، وقطاع غزة، والضفة الغربية ومرتفعات الجولان السورية. وقد عمدت إسرائيل في وقت لاحق إلى ضم القدس الشرقية العربية إليها، وزرعت المستوطنات اليهودية في جميع المناطق المحتلة. النجاحات العسكرية المحدودة التي أحرزها المصريون في الحرب العربية - الإسرائيلية الرابعة في تشرين الأول/أكتوبر 1973، شجعت الرئيس المصري أنور السادات على زيارة القدس في عام 1977. وقد دشنت هذه الزيارة عملية سياسية توجت بتوقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل في كامب ديفيد عام 1979، تبعتها اتفاقية فك الاشتباك مع سورية. ومعاهدة سلام بين إسرائيل والأردن في عام 1994. غير أن المسألة الفلسطينية بقيت من دون حل. وإذا





ونطاق مشاركة الجيش العراقي النظامي فيها في وجه مصاعب هائلة غير واضحين تماماً. وبرغم نجاح الأميركيين في القبض على صدام حسين في كانون الأول/ديسمبر 2003، إلا أن قوات التحالف ما برحت تتعرض لهجمات متفرقة تندرج في خانة حرب العصابات.



للأسلحة الكيميائية، إلا أن المجتمع الدولي القزم الصمت حيال الموضوع. وما فتئت هذه القضية بالذات تؤثر في مواقف الإيرانيين حيال ما يرون فيه ازدواجية معايير غربية فيما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل.

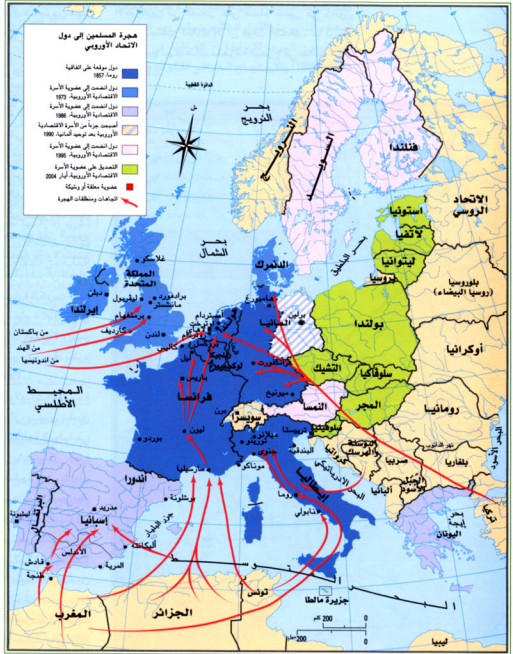
وبالنسبة للاجتياح العراقي للكويت في آب/أغسطس 1990، لعل باعثة كان وضع العراق المالي السيء وقراءة خاطئة لردة الفعل الدولية المحتملة. لم يكن الاجتياح عدواناً على دولة عضو في هيئة الأمم المتحدة (وعضو في جامعة الدول العربية) فحسب، بل كان انتهاكاً صارخاً للقانون الدولي أيضاً. وإذا ما ترك من دون رادع، فقد يدع العراق يُسيطر على حصّة من احتياطي النفط العالمي أكبر بكثير مما يملك أصلاً. من منظور عراقي، يجوز التحجج بأن الحدود والدول التي اصطفتها القوى الاستعمارية ولا تتمتع بأي أساس تاريخي لا تستحق الاحترام غير أن العراق كان سبق وأن اعترف رسمياً بسيادة الكويت على أراضيها ضمن حدودها الحالية في عام 1963. وعلى أية حال، قام تحالف تدعمه الولايات المتحدة ويضم وحدات عسكرية ضخمة من مصر وسورية، بطرد العراق من الكويت في مطلع عام 1991.

وفي السعّام 2003، شنت الولايات المتحدة وبريطانيا هجوماً عسكرياً على العراق، بدعوى تطبيق قرارات الأمم المتحدة التي أخفقت المنظمة الدولية في تطبيقها، وكذلك بذريعة أن العراق بات يُشكّل خطراً إقليمياً لا بل ودولياً لما يملكه من أسلحة دمار شامل، بما فيها الأسلحة النووية والبيولوجية والكيميائية. اعتبر العالم الهجوم على العراق انتهاكاً لأحد المبادئ الأساسية للأمم المتحدة، الذي ينص على عدم شرعية الحرب العدوانية. ولم تقف إلى جانب الولايات المتحدة في ذلك لا المكسيك ولا كندا، برغم اعتماد كلا البلدين اقتصادياً عليها.

لم يُعثر على أي سلاح جاهز للعمل لدى القوات المسلحة العراقية، كما لم يُعثر حتى نهاية عام 2003 على أي برنامج لتصنيع أسلحة الدمار الشامل في العراق. وقد اكتملت المرحلة الأولى من الحرب، بأن زحفت القوات المدعّمة الأميركية على بغداد، وكبرى المدن العراقية الأخرى، واحتلتها في غضون بضعة أسابيع. وتبقى الطبيعة الحقيقية للمعارك التي دارت

## المسلمون في أوروبا الضريبة

وتونس، وكذلك من بلدان غرب إفريقيا شرعوا بعد ذلك بالتوافد على فرنسا بأعداد متزايدة وترسيخ أقدامهم فيها. في البداية، كان المهاجرون في معظمهم من الذكور الذين يبعثون بتحويلات نقدية إلى عوائلهم في الوطن. إنما أخذت كفتي الجنسين تتعادلان بوصول عائلات بكامل أفرادها إلى هناك اعتباراً من ثمانينيات القرن العشرين. هذا ولئن كانت هناك جاليات مسلمة لا يُستهان بها في مدن مرسيليا وليون وليل، إنما تبقى باريس مدينة التوطن بامتياز بالنسبة للمهاجرين المسلمين. أقيم مسجد باريس الكبير في عام 1926، لكن الأحياء الإسلامية الرئيسية من المدينة لم تغد أهلة بالسكان إلا في الفترة التالية للخمسينيات من القرن العشرين. ولا يزال المسلمون في فرنسا محل استقطاب بلدان المنشأ التي وفدوا منها، ولعل كثرة المساجد التي يبنيونها تمثل وجه التفتوح والاختلاف هذا. والجماعات الصوفية بنوع خاص، ناشطة في باريس ولا سيما تلك العائدة إلى طُرق إفريقية شمالية كالطريقة الدرقاوية والطريقة العلوية. وتجذب هذه الجماعات حتى بعض الفرنسيين ممن دخلوا مؤخرًا في الإسلام. ألمانيا (هامبورغ، ميونيخ، فرانكفورت).



فرنسا (باريس):

يغلب على الهجرة الإسلامية إلى ألمانيا العرق التركي: ففي سنوات الخمسينيات من القرن العشرين، شجعت ألمانيا بصورة فعّالة هجرة العمال الأتراك إليها. ومعظم فرص العمل المعروضة، كانت لغير المهرة أو

حتى الستينيات من القرن العشرين، كانت الغالبية العظمى من المهاجرين من البلدان الإسلامية إلى فرنسا من الجزائريين. إلا أن مسلمين آخرين من المغرب



هذا المسجد القائم في حدائق قلعة شفتزبرغ بألمانيا، والذي يرجع بناؤه إلى حوالي العام 1760. يمزج في طرازه المعماري الموثنفات الإسلامية بالمؤثرات الباروكية الأوروبية.

من هويته الشخصية. والشَّابات المسلمات إنما يتخذن الحجاب حالياً باعتبارها وسيلة لتوكيد هويتهن الخاصة بناءً على السبر الذاتي وليس بقبول المسلمات والممارسات الدينية للأجيال السابقة. ومثلما هي الحال في السياقات الأوروبية الأخرى، تؤدي الصوفية في بريطانيا دوراً مهماً كحركة دينية. ولا سيما في اجتذاب المهتدين الجدد إلى الإسلام.

**هولندا (أمستردام، روتردام، لاهاي، أوترخت):**

في هولندا جالية إسلامية متنوعة المذاهب والمشارب، وهي تتألف من أتراك، وأفارقة من شمال القارة، وملوخيين من جزر الهند الشرقية الهولندية سابقاً. ومع ترسُّع أقدام الجاليات الإسلامية في هولندا، طرأت زيادة على عدد المساجد التي تبني هناك منذ عقد الثمانينيات من القرن العشرين. والعديد من المساجد ترتبط ببلدان المنشأ. ولا سيما تلك التي تعود إلى الأتراك لأن أمتتها تؤدِّمها الدولة التركية نفسها. تأخذ الدولة الهولندية على عاتقها تعليم اللغات الوطنية لأبناء المهاجرين في المدارس؛ لكن مثلما هي الحال في سائر أنحاء أوروبا، التعليم الديني مهمّة تضطلع بها المساجد حصراً.

**إيطاليا (روما، ميلانو، تورينو):**

في إيطاليا جالية إسلامية متنوعة الأعراق، إنما يغلب على تكوينها المغاربة والتوانسة، وترفعها مؤخراً أعداد متزايدة من يوغسلافيا السابقة. في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، حرصت الجالية المغربية بالخصوص على بناء المساجد والمرافق اللازمة لسدِّ الاحتياجات الدينية والتعليمية.

**إسبانيا:**

إن إسبانيا، بتاريخها الإسلامي الطلبد، لترتدي أهمية كبيرة كبذل أوروبي يشهد حالياً نوعاً من الإحياء الإسلامي ولا سيما في أقاليمه الجنوبية. إن الغالبية العظمى من المهاجرين المسلمين إلى إسبانيا هم من دول شمال إفريقيا، وسواهم الأعظم من المغرب. وهناك جاليات من إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى ومن الشرق الأوسط أيضاً. إن بناء المساجد صار على قدم وساق في إسبانيا، وكذلك تأمين مرافق ومستلزمات التعليم الديني الإسلامي. يتسم الموقف الإسباني من الإسلام بالعتاطف والود على وجه العموم، ومة حركة ذات شأن لاعتناق الإسبان الدين الإسلامي ولا سيما في بلاد الأندلس. ولعل التوكيد على استقلالية المنطقة والتحول إلى الإسلام يندرجان هنا في إطار الاكتشاف المتجدد لهوية جرى كبنها روحاً طويلاً من الزمن.

لأشياء المهرة. لكن فترة السبعينيات شهدت موجة عارمة من العمال الأتراك الوافدين على ألمانيا، أفضت إلى نشوء جاليات إسلامية ذات تركّزات استثنائية. ففي تلك الفترة بالذات، التحقت عائلات بأكملها بالمهاجرين الأصليين، ومنح معظم العمال وضعية «العمال الصيف»، التي تشدّد على المفهوم الرسمي بأن التوطّن مؤقت ليس إلا. وخلال الثمانينيات من نفس القرن، شرعت الجاليات الإسلامية في ألمانيا بتأمين ما يلزمها من مرافق دينية واجتماعية، وذلك بتشديد المساجد وتكوين الجمعيات الدينية التي ترتبط العديد منها بجماعات مقراتها الرئيسية في تركيا. وعلى نحو مماثل، تنشط الطرق الصوفية كالنقشبندية بشكل لافت؛ ومن خلال هذه الجماعات تحديداً، يلعب المتأسلمون الجدد دوراً خطيراً داخل الجاليات الإسلامية.

**بريطانيا (لندن، غلاسكو، مانشستر، برمنغهام، برادفورد):**

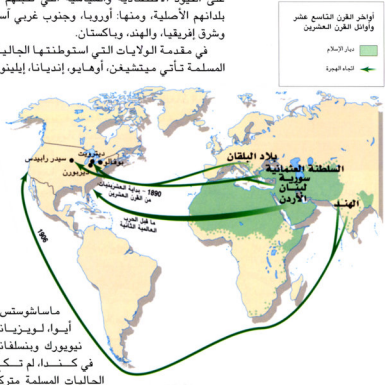
بدأت هجرة المسلمين إلى المملكة المتحدة في منتصف القرن التاسع عشر باستقرار بعض البحارة اليمنيين في موانئ كارديف، وساوث شيلدن، وليفرول، ولندن، وأخيراً في برمنغهام. إلا أن معظم الهجرة الإسلامية إلى بريطانيا جاءت من جنوب آسيا (باكستان وبنغلادش)، حيث وصل في إبان الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن العشرين عدد غفير من المهاجرين الاقتصاديين لشغل وظائف بناءً على استدعاءات مسبقة. وأدى وصول عائلات بأكلها خلال الستينيات إلى قيام شتى المرافق الضرورية لتقديم الخدمات الدينية والثقافية على غرار ما حصل في معظم جاليات المهاجرين المسلمين في أوروبا. وقد اجتذبت لندن، بالأخص، جاليات إسلامية متنوعة؛ وهذا ما جعل المنظور الثقافي والديني فيها أكثر ليبرالية منه في بقية الجاليات المسلمة في المملكة المتحدة. هنا تختلط أعداد ليست بالقليلة من العرب والباكستانيين والبنغلادشيين، باللاجئين النازحين حديثاً إليها، فضلاً عن الطلاب المسلمين الوافدين إليها من وراء البحار. بينما تميّز برادفورد باحتضانها جالية أكثر تجانساً من أصل باكستاني، وهذا ما انعكس تنوعاً واختلافاً أقلّ في النظرة الدينية. برمنغهام، من جهة أخرى، وإن كانت موئلاً لجالية يطغى عليها الأصل الباكستاني، إلا أن المسلمين فيها أكثر تنوعاً بكثير، وهم يضمون عدداً ليس بالقليل من المتأسلمين من أصول إفريقية - كاريبية. إن الشباب المسلم في بريطانيا أخذ، وعلى نحو متزايد، باكتشاف الإسلام من جديد كجزء

## المسلمون في أمريكا الشمالية

ذوي الأصول الإفريقية، أي الأفرو - أميركيين، استأنفوا وما زالوا بأهمية كبيرة على وجه الخصوص. إن «أمة الإسلام» حركة انفصالية ناشطة بين الأفرو - أميركيين، لكن أكثرية المسلمين لا يعدونها من الإسلام في شيء. غير أنها تظل قوة يُعتد بها بالرغم من أن نسبة متزايدة من المسلمين الأفرو - أميركيين باتت تنحاز إلى المعتقدات والعبادات الماثورة عن التيار الرئيسي للإسلام السني منذ عام 1976، حين تولى واريث دين محمد، ابن إلهيا محمد مؤسس «أمة الإسلام»، زعامة قسم من تلك الحركة. يمثل المسلمون الأفرو - أميركيون نسبة لا يستهان بها من أبناء الجالية المسلمة في الولايات المتحدة، والقبال على اعتناق الدين الإسلامي كبير يتنوع خاص بين نزلاء السجون من السود، وذلك رداً على التمييز العنصري والمعاملة الوحشية المأسسة التي يلقونها، وهو يحول إلى حد بعيد على الأصول الإسلامية لأسلاف العديد من المواطنين الأفرو - أميركيين. المتأسلمون من البيض في أمريكا ليسوا على القدر ذاته من الأهمية العددية، إلا أنهم مع ذلك دعامه ركنية للدين الإسلامي ولهم صوت مسموع، وكثيراً ما يرتبطون، شأن نظراتهم في أوروبا، بالحركات الصوفية. لقد ألّ التأسيس الأولي للإسلام في أمريكا الشمالية إلى فترة من الذوبان في المجتمع، صنّفت معها قضية الهوية الدينية ضمن قضايا الاندماج الثقافي العام، فيما بقي المسلمون الأفرو - أميركيون خارج هذه السيرة. لكن مع قدوم الطلاب المسلمين من وراء البحار، والمهاجرين الأحدث عهدا المتصفين بالثنتين كالبكستانيين على سبيل المثال، طرأ ارتفاع على نبرة التوكيد على الهوية الدينية في أمريكا. هناك على وجه العموم طيف واسع من العبادات وأشكال الممارسة الدينية بين الجاليات المسلمة في أمريكا الشمالية، ولئن كانت العديد من الجمعيات الإسلامية والمساجد تقوم على أساس عرقي، إلا أن هناك أيضاً منظمات إسلامية أبوابها مشرعة لمختلف الأعراق دون استثناء.

لنأخذ «اتحاد الطلبة المسلمين»، الذي أسسه في عام 1963 الطلاب المسلمون في جامعة إيلينوي بمدينة أوربانا مثلاً، فهو يضطلع بدور بالغ الشأن في التشديد على الهوية الإسلامية كتنقيض للتعاين بالهوية العرقية. وهناك منظمات مظلية أخرى في الولايات المتحدة، ومجلس الجاليات الإسلامية في كندا على السواء، كان اعتناق الإسلام عاملاً في بروز المجتمع الإسلامي هناك. فالمتأسلمون الأميركيون من

تعود نشأة السكّان المسلمين في الولايات المتحدة إلى حقبة مبكرة زمنياً فتمتد شاهد على أن المسلمين الأوائل وصلوا إلى هناك برفقة المستكشفين الإسبان في القرن السادس عشر. لكن فاتحة الجاليات الإسلامية التي يُعتد بها إنما نجمت عن هجرة من سورية ولبنان إبان الستينيات من القرن التاسع عشر ما لبثت أن استتبع مزيداً من المهاجرين في العقود اللاحقة. وشهدت الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية توافد سيل دافق من المهاجرين على أمريكا رداً على القيود الاقتصادية والسياسية التي تكبلهم في بلدانهم الأصلية، ومنها: أوروبا، وجنوب غربي آسيا، وشرق إفريقيا، والهند، وباكستان. في مقدمة الولايات التي استوطنتها الجاليات المسلمة تأتي ميتشيغن، أوهايو، إنديانا، إيلينوي،



ماساشوستس، أيوا، لويزيانا، نيويورك وبنسلفانيا. في كندا، لم تكن الجاليات المسلمة متركزة إلى هذا الحد في أماكن معينة، بل كانت أكثر حركية من الوجهة الجغرافية. كما أن بلدان المنشأ اختلفت، هي الأخرى، عنها بالنسبة إلى الولايات المتحدة، إذ جاءت الغالبية العظمى من المهاجرين المسلمين إلى كندا من بلدان عربية، وشمال إفريقية، ومن جنوب الصحراء الكبرى الإفريقية، ومن جنوب شرقي أوروبا، وتركيا، وإيران، وأفغانستان، والشرق الأقصى وشرق إفريقيا. وبعضهم وفد إليها من أقطار تابعة للكومنولث البريطاني. وفي حالتي الولايات المتحدة وكندا على السواء، كان اعتناق الإسلام عاملاً في بروز المجتمع الإسلامي هناك. فالمتأسلمون الأميركيون من



## المساجد وأماكن العبادة في أمريكا الشمالية

حدوث تحول نحو إقامة مساجد أقل اصطفاً بالصيغة العرقية لناحية الذين يؤمنونها للصلاة. وقد أنشئ «مجلس المساجد» في الولايات المتحدة لتسهيل أمر توفير أماكن العبادة اللازمة للجانبات الإسلامية هناك.

ويتبين من تقرير نُشر في العام 2001، أن الذين يؤمن المساجد، بحسب الانتماءات العرقية، هم أبناء جنوب آسيا بنسبة 33 بالمئة، والأفرو-أميركيون بنسبة 30 بالمئة، والعرب بنسبة 25 بالمئة. وما فتئ أئمة المساجد يُستقدمون من بلدان كمصر وتركيا وباكستان، لأن أئمة أعداداً متزايدة من الأئمة يجري إعادهم داخل الولايات المتحدة بالنظر لتوفر المزيد من الوسائل الضرورية لتدريب الأئمة. بعض الأئمة يُملكون كذلك من الخارج، لكنهم في معظمهم يتقاضون أجورهم من الجانيات المحليّة. وقد أنشئ مجلس للأئمة في عام 1972. والمساجد، على وجه الإجمال، تدار بواسطة مجالس استشارية محلية.

تنهضي الإشارة هنا إلى أن المساجد والمباني الأخرى التي يستخدمها المسلمون في أمريكا الشمالية، بما في ذلك «خسنييات» الشيعة الاثني عشرية، و«جُمُعَة خانات» الإسماعيليين، ومعابد «أمة الإسلام»، تؤدي في واقع الأمر سلسلة متنوّعة من الوظائف إلى جانب كونها أماكن للصلاة والعبادة. فهي تستعمل لأغراض تربوية شتى، كمدارس لنهاية الأسبوع، وصفوف للأطفال، وقاعات للمحاضرات، وكذلك لتنظيم دورات لتعليم الراشدين. وهي تخدم أيضاً بمثابة مكتبات عامة، وحوانيت لبيع الكتب، ومطابع صغيرة لنشر المواد الإسلامية، فضلاً عن استضافتها المناسبات الاجتماعية كحفلات الأعراس ومراسم التأبين. هذا عدا عن اضطلاعها بدور حاسم كنقطة اتصال بغيرالمسلمين كي يتعرفوا على الإسلام ويلتقوا بالمسلمين - وهذه لعمرى مسألة في غاية الأهمية خصوصاً في أعقاب هجمات نيويورك وواشنطن عام 2001. وهكذا مع تطور الجانيات الإسلامية باطراد في أمريكا الشمالية، تغدو المساجد ومراكز التجمّع الإسلامية الأخرى مفاصل حيّة لإطلاق المبادرات.

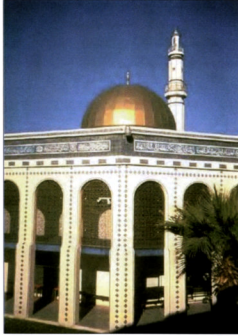


بعد أن استتب المقام للجانيات الإسلامية في الولايات المتحدة، شهد العقد الثاني من القرن العشرين أول ظهور للجوامع والمساجد على أراضيها، تلبية لاحتياجات المسلمين الدينية والاجتماعية، ومثلما جرى في أوروبا، استُخدمت البيوت في أول الأمر كمصليات، وتبع ذلك تحويل بيوت قائمة إلى مساجد، بينما جاء إنشاء المساجد المشيئة خصيصاً لهذا الغرض في مرحلة لاحقة. وقد أُقيمت معظم المساجد أصلاً لخدمة جانيات محدّدة عرقياً: كما لم تكن دينية بالمعنى الحصري، إذ كانت المباني تستعمل لأغراض عبادية واجتماعية على حد سواء. وفي أحيان كثيرة، كان يُصار إلى استئجار قاعات عامة أو صالات خاصة لمناسبات أضخم، كصلاة العيد مثلاً، كي تستوعب عدداً غفيراً من المؤمنين: وهذا ما كان يحصل في تورنتو ومونتريال وادمونتون في كندا مثلاً. وأول مسجد للأفرو-أميركيين، وكان تابعاً لـ«أمة الإسلام»، أُقيم في حي هارلم بنيويورك عام 1950.

لكن حتى الستينيات من القرن العشرين، لم يكن يوجد ما يكفي من المساجد والجوامع لاستيعاب أبناء الجالية الإسلامية المتنامية باطراد، التي وجدت نفسها مضطرة إلى استخدام مصليات وفسحات خاصة لأداء فرائضها الدينية. على كل، هناك الآن ما يربو على ألف مسجد مسجّل رسمياً في الولايات المتحدة. لحلّ واحدًا من أضخم المساجد التي أُقيمت في الولايات المتحدة، هو المركز الإسلامي في ديترويت الذي ارتفع بنيانه ما بين عامي 1962 و1968. وقد تكفل ببنائها أبناء الجالية الإسلامية في المدينة بحكم كونهم جماعة المصلين الذين سيراتادونه. ثم جاءت التبرعات والمنح المالية من الحكومات المصرية والسعودية والإيرانية والبنانية لتكشف عن

مسجد المقرّ الرئيسي للجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية بالقرب من مدينة إنديانا بوليس في ولاية إنديانا. المبني من تصميم المهندسين المعماريين غولزار حيدر ومختار خليل، واكتمل بناؤه عام 1981. إنه يُقدّم صورة عصريّة وتقديمية للإسلام، الدين الذي يعتنقه ما يربو عن ثمانية ملايين من الأميركيين والكنديين. يحتوي المبني فضلاً عن قاعة فسحة للصلاة، على مكتبة ومكاتب إدارية.

المركز الثقافي الإسلامي في تامبه  
ولاية أريزونا (بني عام 1984).



لكن التردد على أماكن العبادة يجب ألا يُفهم بالضرورة على أنه تطور يكتنف الجالية الإسلامية في أمريكا بأوسع مظاهره. ففي دراسة ميدانية أجريت عام 1987، اتضح أن ما بين 10 و 20 بالمئة فقط من المسلمين في أمريكا يؤمنون المساجد بانتظام، في مقابل 40 بالمئة من المسيحيين يواظبون على الصلاة في الكنائس. وفي الوقت الذي قد يُعبد فيه بعض المسلمين من الجيل الصاعد تأكيد هويتهم الإسلامية بالانغماس في ممارسة الشعائر الدينية، نجد أن الأغلبية العظمى من المهاجرين الجدد الوافدين من جنوب آسيا ووسطها أكثر ميلاً إلى الاندماج في التيار السائد للمجتمع الأمريكي.



## الفنون الإسلامية

عرفت الأقطار الإسلامية تقاليد نابضة بالحياة والنشاط في مضمار الفنون، التي ازدهرت فيها أياً ازدهار. لكن خلافاً للتقاليد الفنية للشعوب الأخرى،



كان الخزف الصيني على الدوام موضع إعجاب وتتميز في العالم الإسلامي، ويمكن تبيين تأثيره بجلاء في هذا الإبريق السلجوقي.

الموضوعات والسياقات الدينية كافة؛ والسبب يعود ربما إلى الخشية إياها من الوقوع في الوثنية التي أُلِمت بالديانات الأخرى في باكر الأئمة. أما في السياقات الأخرى، ولا سيما في الموضوعات الشخصية أو البلاطية، فقد رأينا تقليداً حياً من الفن التصويري ينمو ويزدهر. وحسبنا شاهد على ذلك، جدران القصور التي كثيراً ما كانت تزدان بالمشاهد المضمنة صوراً بشرية. أما في المساجد، فقد كانت الزخرفة غير التصويرية التي أساسها التزيين بالأشكال الهندسية والنباتية، وكذلك بالكتابة النقشية، هي الطاغية أكثر من سواها. وإذا كان فن تصوير الأشخاص بجميع صوره، فناً غير ذي صبغة دينية تعريضاً في ديار الإسلام، فإن العكس ليس بالضرورة صحيحاً. ذلك أن الفن غير التصويري كان جد ملائم ومحل احترام كبير في كل السياقات والموضوعات، علمانية كانت أم دينية. كانت الأقمشة بمثابة الدعامة الأساسية للحياة الاقتصادية في القرون الوسطى الإسلامية. فكانت تُصنع من الصوف، والكتان، والحريز، والقطن؛ وتتراوح تشكيلاتها من الأثواب الرقيقة كالأورغندي والموصلين (الأول مشتق اسمه من مدينة أورغندي في آسيا الوسطى، والثاني من مدينة الموصل في العراق)، إلى البطانيات المتينة واللِّباد والأقمشة التي يصنع منها البدو الرُّحْل خيمهم. ولم تكن الأقمشة تستخدم لإكساء الأفراد فحسب، بل كانت تدخل في صلب تحديد الغضاءات وتأنيثها في تلك البلاد الجافة الفقيرة بالأخشاب، حيث يجلس الناس عادةً على السجاجيد ويتكئون على الوسائد. كانت الأقمشة في مُجملها من الصُّف العادي، غير المزخرف؛ لكن السادة المورسين، من الخلفاء نزولاً إلى التجار، كانوا يشتهون الأقمشة الغريبة، ذات الألوان الزاهية والنقشات المنقطة. ولذلك كان يُصار إلى إضفاء البهجة على الخيوط الخام بواسطة الأصباغ الفرحة المصنوعة من مواد شتّى، التي كانوا هم أنفسهم يتاجرون بها على نطاق واسع. لقد استطاع الحرفيون والصناع المهرة أن يستنبطوا مجموعة مؤهلة من التقنيات، تبدأ بالتطريز والتسجيف (الكنفا) وتنتهي بالحياكة على النُّول والتلوين بالأصباغ، وكل ذلك من أجل أن تأتي أقمشتهم غاية في الجمال.

وتجيب الكلمة في الإسلام يعني أن تكون الكتب والكتابة موضع تقدير بالغ في كل مكان. وقد أدّى

فإن الفنون التي تفوق سواها من حيث الأهمية في الحضارة الإسلامية، كانت تعدُّ «زخرفية»، «ثانوية» أو «محمولة» في الحضارات الأخرى، من ذلك: الأقمشة، والخط، وفنون الكتابة، والسيراميك، والمشغولات المعدنية، والأبنية الزجاجية وما إليها. وهذه بمعظمها كانت تستلزم لصنعها تحويل مواد وضيعة كالألوف النباتية أو الحيوانية، والرمال، والطين، أو الفلزات المعدنية، إلى أعمال فنية جليلة تتميز بالألوان الزاهية والتصاميم المعقدة. مهما يكن من أمر، فإن الكثير من أكثر هذه الأعمال رفعة ورهافة، كانت في نهاية المطاف قطعاً ذات قيمة متفحفة، من قبيل دلاء الاستحمام وصينيّات الطعام المعدة للاستعمال في الحياة اليومية.

كثيراً ما نسمع أن الإسلام يُحرّم تصوير الأشخاص في فنونه، لكن الحقيقة ليست كذلك تماماً. ينبغي القول بالأحرى إن الإسلام لا يُحذّر التصوير في

وبالمثل، يمكن تلمس المؤثرات الأوروبية في تصوير الشخصيات من خلال هذا الرسم للسلطان سليم الثالث.

الذهبية والغضبية، لذا عمد الحرفيون المسلمون إلى صنع الأدوات والأوعية اللازمة للاستعمال اليومي من خلانط النحاس، كالحناس الأصفر والبرونز، وبلغوا شاهاً بعيداً في هذا المضمار. وكان الكثير من هذه



الصفينيات، والأحواض، والزبديات، والدلاء، والأكواب، والمباخر، والمصابيح، والشعدانات وما إليها، تُرْصَع بالمعادن الثمينة لجعل أسطحها أكثر إشراقاً ومرآها أبهج للعين. والمشغولات المعدنية المعدة للأغراض الدينية ما كانت تختلف كثيراً عن تلك المستعملة في المنازل إلا من حيث زخرفتها، التي كانت أقرب إلى الزخرفة الخطية والهندسية والنباتية منها إلى الزخرفة التصويرية.

تعلّم تقنية صنع الورق من بلاد آسيا الوسطى في القرن الثامن، إلى حدوث طفرة هائلة في تأليف الكتب، والتدريس بالكتب، وإنتاج الكتب، ناهيك عن الفنون المصاحبة لها والمقتربة بها، كالخط والزخرفة والتذهيب والتجليد، وأخيراً التزيين بالرسم. ولعلّ أخطر المخطوطات وأتقنها، هي تلك النسخ من القرآن التي كانت ترقن في البداية على الرق، ولاحقاً على الورق. وهي تحفل في الغالب بزخرفة غير تصويرية ولا تدخلها الرسوم مطلقاً. لكن الكتب التي تتخللها تصاوير، ولا سيما تلك المصنفة في خاتمة الأدب الملحمي أو الشعر الغنائي الفارسي، فقد باتت من الصنف الرائع في عالم الثقافة الإيرانية، وذلك بدءاً بالقرن الرابع عشر حين أقام الحكام النساطقيين بالفارسية في إيران وتركيا والهند محفلات لهذه الغاية وأنتجوا فيها بعضاً من أعظم وأروع الكتب التي عرفها العالم على الإطلاق.

وثمة العديد من الفنون الأخرى المقتربة بديار الإسلام كانت تتوسل النار لتحويل المعادن المستخرجة من الأرض. فقد ورث المسلمون تقاليد صناعة الفخار الموهلة في القدم عن الشرق الأدنى، لكنهم أضافوا إليها وطورها من خلال استنباطهم قوالب خزفية جديدة، وتقنيات الصقل والتزجيج، وتشكيله غنية من الأشكال الزخرفية. وقد اجتمعت بعض من هذه المقومات المميزة، كالرسم بالطلاء الفوقوي اللصّاع المتكبر في عراق القرن التاسع، والعجينة الصلصالية المكتشفة في مصر وإيران القرن الثاني عشر، والرسم بالطلاء التحتي المطوّر في إيران القرن الثاني عشر أيضاً، لتنفجر نشاطاً خزفياً خلافاً منقطع النظير في بريطانيا حتى القرن الثامن عشر. صحيح أن غالبية الصنوعات كانت عبارة عن أنية فخارية غير مطلية، معدة لتخزين ونقل المياه والأطعمة من يوم ليوم، إلا أنّ الإقبال الشديد على اقتناء وتقليد الأطباق، والزبديات، والأباريق، والزجاجات، والأكواب الفاخرة المصنوعة في الأقطار الإسلامية، شكّل ظاهرة مثيرة بكل معنى الكلمة من الصين إلى إسبانيا. أما صناعة الزجاج بطريقة النفخ، وهي تقنية ابتُدعت في سورية قبل العصر الإسلامي، فبقيت خاصةً ينفرد بها المشرق دون غيره. فكان صناع الزجاج والزجاجون ينتجون المصابيح المنبهة والمطلية بالمينا بالألوان في تضاء بها المساجد والمدارس التي رُفعت لنشر كلمة الله.

يُقال إن النبي محمد قد نهى عن استعمال الأنية





## أبرز المواقع المعمارية الإسلامية

حلية معمارية من النقش النافر، موجودة في قصر بناء السامون، أقوى ملوك الطوائف، في طليطلة



إن وجود المسلمين في أية بقعة من العالم إنما يُستدلّ عليه بمبانٍ من أنماط مميزة، يأتي في طليعتها المسجد الجامع، أو مسجد الجمعة، وإذا كان من الجائز أن يتخذ المسجد أي شكل كان، تبعاً للمواد المتوافرة محلياً وتقاليد البناء المتعارف عليها، فإن المبنى يجب أن يكون دائماً مواجهاً للقبلة، أي في اتجاه الكعبة، ورحباً بما فيه الكفاية لاستيعاب المؤمنين. تشيّد المساجد، على العموم، من الطوب أو الحجارة، وتُسقف عادة بالعقود أو القباب. فطالما كان الخشب نادراً، وبالتالي غالياً جداً، كي يُستعمل في التسقيف في المناطق الجافة إلى حد بعيد، وإن كان قد استُعمل على نطاق واسع في المناطق كثيفة الأحرش كبالد الأناضول وجنوب شرقي آسيا. وفي أماكن أخرى، أُنشئت الأبنية المماثلة من الخشب خصيصاً لتأثيث المساجد، فكانت تُصنع منها المنابر ومناضد القراءة، التي غالباً ما تكون مطعّمة بأخشاب أخرى، بالعاج أو بعرق اللؤلؤ. كانت المساجد تُزيّن على نحو متقن بواسطة البلاط اللامع والنقوش المجصّصة، وتُكسى أرضيتها بالسجاد المزأبر أو العادي. وقطع السجاد المستعملة في المساجد هي من النوع الموشى بتصاميم نباتية، هندسية وكتاتيبية. ذلك أن تصوير الأشخاص كان مستبعداً من السياقات الدينية، ولا تجدد إلا في الأماكن والوضيعات غير الدينية. عملياً، كل المساجد لها «محراب» في الجدار لاستقبال القبلة، والعديد منها تعلوها منئذنة أو أكثر يرفع منها الأذان لإقامة الصلاة. ولما كانت المساجد في الجملة

تُبنى من أفضل المواد المتوافرة طراً، ويُسهّر على صيانتها بانتظام عبر القرون، فهي عادة ما تكون في طليعة العمارات المحفوظ عليها في أية بقعة من البقاع.

ينزع الحكّام، في أغلب الأحوال، إلى بناء قصور منيفة وباذخة لأنفسهم، يرمزون بها إلى ما يتمتعون به من جاه وسلطة. إلا أن هذه القصور لم يُكتب لها البقاء مثلما كُتب للمساجد لأن تصميمها وإنشائها كانا يتسمان بقدر أكبر من التجريبية. أضف إلى ذلك أن الوارثين كثيراً ما يعزفون عن صيانة الإنجازات الباهرة لخصومهم. لقد تركّزت التفتيشات الأثرية في الديار الإسلامية على القصور المهجورة أو المهملة، مثل خربة المفجر، المنتجع الأموي بالقرب من أريحا: وسامراء، العاصمة العباسية في القرن التاسع في العراق. قلّة من القصور الإسلامية فقط بقيت لها أن تبقى على وجه الأرض، نذكر منها: «قصر الحمراء» في غرناطة، و«توبكايي سراي» في استنبول، و«الحصن الأحمر» في دلهي. إن القصور الإسلامية عادة ما تكون مزوّقة ومبهجة، لكنها مبنية بطريقة رديئة، تُعطى فيها الأولوية للمظهر والإبراز على الشكل والإنشاء. وخلافاً لما هي الحال في قصر فرساي أو الأرميتاج، تأخذ القصور الإسلامية بصورة نمطية شكل مبانٍ ملحقة بها أجنحة صغيرة متخلّفة حول أفنية داخلية وحدائق غنّاء.

بالرغم مما يُقال من أن النبي محمد قد استاء وتجهّم لدى رؤيته أضرحة تذكارية تُقام فوق قبور الموتى، إلا أن بناء الأضرحة أضحت مع ذلك شكلاً رئيسياً لرعاية العمارة في العديد من ديار الإسلام. فكانت تُبنى الأضرحة فوق مدافن رجال التقوى والصالح بالخصوص، فضلاً عن قبور الأمراء التوّافين إلى حفظ ذكراهم في عالم يُلغى الغموض. إن معظم الأضرحة كناية عن مبانٍ مقببة، وهي إما مربعة الشكل أو مُثَمّنة الأضلاع أو دائرية؛ وتتوارق ما بين أضرحة الأولياء البسيطة في شمال إفريقيا إلى صرح «تاج محل» المهيّب في الهند، والكثير منها مُزوّد بمحراب يُحدّد اتجاه القبلة إذا ما أراد زوّار المقام أن يؤدّوا الصلاة على روحه. ولبعضها مبانٍ ملاصقة كي

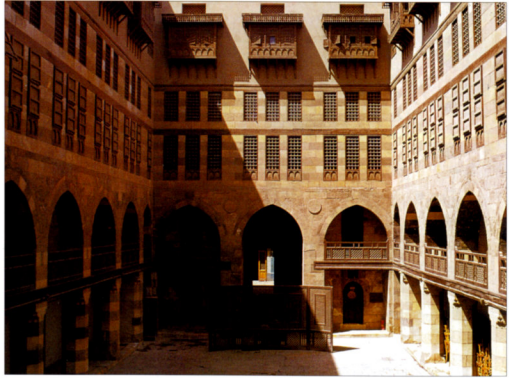
كنائس أوروبية، واستُخدم بعضها لدفن عظام القديسين المسيحيين.

إن المكتشفات الأثرية لتشهد على مدى اتساع شبكة الطرق التجارية التي كانت تتقاطع في ديار الإسلام طويلاً وعرضاً، رابطة الصين والهند وإفريقيا الاستوائية بأوروبا. ويفضل تدجين الجمل قبل ظهور الإسلام، صارت التجارة تتم في معظمها بطريق البر، مع إنشاء خانات يبعد الواحد منها عن الآخر مسافة

تتسع للزوار المنتظرين أو للقيام ببعض الخدمات العامة المتراوحة بين تدريس القرآن وإعداد الطعام للفقراء. وبهذه الطريقة، كان يتسنى للسادة استخدام مؤسسة خيرية ما لتسويق إقامة ضريح.

يُدفن المسلمون في التراب مباشرة، ملفوفين بكفن أبيض بسيط ليس إلا. وهكذا، فإن أدوات الدفن التي عادةً ما يُعول عليها علماء الآثار لفهم التقاليد الثقافية الأخرى، لا وجود لها في ديار الإسلام. غير أن

فناء داخلي لخان قانسوه الغوري في القاهرة.



15 ميلاً لإيواء المسافرين ودوابهم وكذلك بضائعهم. وجزء من التجارة كان يتم بطريق البحر، فيسلك خطوطاً موازية لسواحل المتوسط أو يتتبع مجاري الرياح الموسمية حول المحيط الهندي. وقد أتاح التقدم المحرر مؤخراً في مجال التنقيب الأثري تحت سطح البحر، استكشاف مواقع السفن الغارقة، كذلك السفينة العائدة إلى القرن الحادي عشر التي تم العثور عليها في سرجي ليماني قبالة الشواطئ التركية. وكانت الغلة من ذلك الموقع كمية ضخمة من كسرة الزجاج المعدة لإعادة التدوير.

الجفاف النسبي الذي يُميز القسم الأكبر من مناطق العالم الإسلامي، ولا سيما مصر وآسيا الوسطى، ساعد على حفظ المواد العضوية الهشة التي لولاه لكانت اضمحلت في التراب. وأهم هذه المواد، الأقمشة التي كانت تلعب دوراً محورياً في الاقتصاد الإسلامي في القرون الوسطى، والكثير من هذه الخرق في حالة بالية وغير جذابة بالمرّة حتى إنها نادراً ما تعرض في المتاحف. ومن المفارقة بمكان، أن أفضل أصناف الأقمشة من بلاد المسلمين، والكثير منها مزركش بابتهاالات وتبريكات عربية، كانت قد حُفظت في





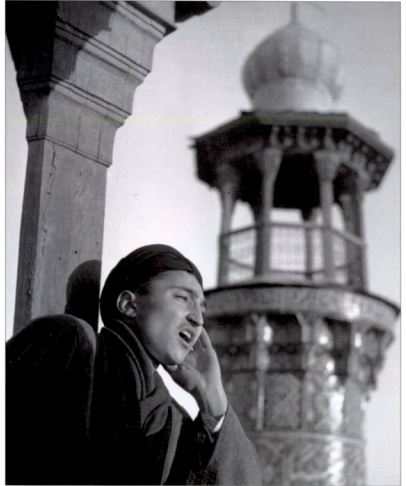
## توزع المسلمين في العالم (عام 2000)

الحجم السكاني، فهو باكستان التي تعدّ 134 مليون نسمة، تليها الهند (121 مليوناً)، وبنغلادش (114 مليوناً)، ومصر (61 مليوناً)، ونيجييريا (61 مليوناً). ومن بين البلدان الإسلامية الستة الأولى التي تضم أكثر من نصف عدد مسلمي العالم، وحدها مصر تنطق بالعربية، وأضحت جزءاً من العالم الإسلامي في زمن تقارب ونشأة الإسلام. وفي واحد من هذه البلدان الستة، الهند، يعيش المسلمون كأقلية. صحيح أنها أقلية ضخمة، لكنها لا تزال قابلة للعطب. من الوجهة الديمغرافية، يجوز القول إن الإسلام «القديم» الذي أبصر النور في مجرى الفتوحات الإسلامية، قد لحق به بل وتحطاه الإسلام «الفتي» في المناطق الاستوائية إجمالاً.

ومن الناحية الطائفية والمذهبية، فإن حوالي 85 بالمائة من مسلمي العالم ينتمون إلى التيار الرئيسي للدين الإسلامي، أعني المذهب السنّي؛ وهم يندرجون من حيث العرق وإن ليس دائماً بالممارسة إلى أحد المذاهب السنّية الأربعة: المذهب الحنفي، وكان المذهب الرسمي للإمبراطورية العثمانية، ويسود في الممتلكات العثمانية السابقة، بما فيها بلاد الأناضول والبلقان، وكذلك في بلاد ما وراء القوقاز وأفغانستان، وباكستان، والهند، وجمهريات آسيا الوسطى والصين؛ والمذهب المالكي، الذي يطغى في المغرب وبلدان غرب إفريقيا؛ والمذهب الشافعي، الذي يُعمل به في مصر وفلسطين والأردن، ومناطق اليمن الساحلية، وربعين قطاعات من مسلمي كل من باكستان والهند وإندونيسيا؛ وأخيراً المذهب الحنبلي، وهو المذهب الساري في المملكة العربية السعودية. على أية حال، لقد تعايشت مذاهب فقهية مختلفة زمنياً طويلاً في بعض المناطق، وثمة قدر كبير من التداخل والتشابه فيما بينها في بلدان كمصر، حيث سمحت الحداثة والفقهية بـ«تلفيق» أحكام شرعية من شتى المذاهب.

يُمثل المسلمون من غير السنّة حوالي 15 بالمائة من مجموع المسلمين في العالم. فالفوارج الذين انتشروا عن الجسم الرئيسي للإسلام في عام 660، مُثّلون من خلال نسخة معدّلة عنهم تعرف بـ«الإباضية»، في

هناك ما يُقارب المليار ومئتي ألف مسلم في العالم اليوم، أي ما يُناهز خمس تعداد البشرية. والغالبية العظمى منهم يقيمون في الحزام الأوسط من المناطق الممتدة من إندونيسيا شرقاً إلى ساحل شمال إفريقيا على الأطلسي غرباً. وعلى ضوء تمدّد الإسلام التاريخي نحو الأقاليم الاستوائية في جنوب وجنوب شرقي آسيا، حيث طريقة الزراعة التكثيفية تسمح بدرجة تركز



سكّانية عالية، فإن البلد المسلم الأكبر حجماً من حيث عدد السكان (182 مليوناً) هو إندونيسيا. وهذا البلد بعيدٌ جداً عن المذنب أو الرّجُم الذي ولد فيه الإسلام؛ أعني جنوب غربي آسيا. أما البلد الثاني من حيث

استقلالية رجال الدين الذين طالما احتكروا تأويل ونشر وتطبيق أحكام الشريعة في الماضي. وفي الوقت عينه، أصاب الوهن سلطتهم الدينية، القائمة على الحق الحصري في الوصول إلى النصوص المقدسة، بفضل التوسُّع في التعليم الثانوي وانتشار معرفة القراءة والكتابة. فالعديد من الحركات الإسلامية يقودها ويدعمها أناسٌ تلقوا تعليماً تقنياً حديثاً، وحصلوا تعليمهم الديني رأساً من النصوص الأولية والثانوية، وهي القرآن والحديث وكتابات المفكرين والعقهاء المحدثين، وليس بواسطة الدراسة الفقهية التقليدية.

قد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى أن الاتجاه نحو ما يمكن تسميته بعلمنة السلطة الدينية في الإسلام أو جعلها ديمقراطية، قد فُضِيَ إلى صيغ أكثر تشدداً وسلفية، كذلك التي تروج لها منظمات من قبيل «رابطة العالم الإسلامي» التي مقرها في المملكة العربية السعودية. غير أنه بالرغم من كل هجمات الإصلاحيين وما يجوز سُمها بـ«الأميرالية الدينية» المنبثقة من مناطق إنتاج النفط، الغنية مالياً إنما المحافظة ثقافياً، فقد أثبتت تقاليد الصوفية المتشعبة بالغيبيات أنها على درجة عالية من الرجوعية والقدرة على التكيف. ففي إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، وفي العديد من مناطق آسيا، ومنها الجمهوريات السوفييتية السابقة، نجد صيغاً من الإسلام طلع بها زعماء كاريزميون ترمسوا في مجالات تهذيب النفس والتحكُّم بالفرائز والأهواء (وهي مجالات تُكْمَلُ وإن كانت لا تحلُّ بالضرورة محل الفرائض الدينية المعتادة من صلاة وصيام وزكاة وحج). لا تني تسجُّل تقدماً وتبني على مآثورات جرى تشاقلها زمنياً طويلاً إما بالتواتر الشفهي أو من خلال العلاقات الشخصية. إن التَّنَوُّع الشديد الذي يسم المعتقدات والعبادات الإسلامية، كما هي ثابرة أو «مجمدة» في النصوص، ما هو إلا وجع من معجميتها الرمزية الغنية ونخيرتها الوافرة من المعاني، وإن تأخذ الأشكال العتيقة من السلطة الدينية طريقها إلى الانحلال وينكشف جزءها أكثر فأكثر عن مواجهة تحديات الحداثة، تخرج إلى حيز الوجود أشكال بديلة من السلطة الروحية والقوى الاجتماعية سواء بسواء.

عُمان، وزنجبار، وتاهرت في الداخل الجزائري، أما الشيعة، فيتركزون في إيران، وجنوب العراق، والكويت، والبحرين، بالإضافة إلى أقليّات ليست بالصغيرة منهم في كل من أفغانستان (3,8 ملايين أو 15 بالمئة من السكان)، الهند (30 مليوناً أو 3 بالمئة)، لبنان (1,2 مليون أو 34 بالمئة)، باكستان (28 مليوناً أو 20 بالمئة)، سورية (مليونان أو 12 بالمئة)، تركيا (3 ملايين أو 20 بالمئة)، الإمارات العربية المتحدة (حوالي نصف مليون أو 16 بالمئة)، واليمن (7 ملايين أو 40 بالمئة). والسود الأعظم من الشيعة – حوالي 85 بالمئة – ينتمون إلى الشيعة الإمامية أو الاثني عشرية. ومعظم الشيعة الإمامية يتقيدون بواحد أو بأخر من كبار الزعماء الدينيين، أو «آيات الله العظمى» الذين يُعرفون بـ«المراجع» (مراجع التقليد أو الاجتهاد)، ويتخذون صفة المفسرين المؤهلين للشرع الإسلامي. والطائفتان الشيعيتان الأخريان هما: الزيدية في اليمن، والإسماعيلية أو الشيعة السبعية ممثلة بمذهبين ما برحا قائمين إلى يومنا هذا. ويعود هذان المذهبان في منشئهما إلى الخلافة الفاطمية: المستعلية، ويُعرف أتباعها في جنوب آسيا وشرق إفريقيا بـ«البهرة»، وهم يتبعون الداعي المطلق للإمام/ال خليفة الفاطمي المستعلي بالله (ت 1101)؛ والنزارية، ويتبع أصحابها زعيمهم الروحي: الأغا خان، وهو نبيل من ذرية فارسية تتحدر من محمد بن إسماعيل الذي يُعتبر بمثابة إمامهم الحي. وقد عاش النزاریون ضمن جاليات صغيرة في سورية وإيران وآسيا الداخلية وشمال غربي الهند إلى حين هجرتهم إلى إفريقيا والغرب ابتداءً من القرن التاسع عشر.

إن العديد من المسلمين الملتزمين سواء أكانوا من السُنَّة أم من الشيعة، يتقيدون بأحكام واحد من المذاهب الفقهية أئمة الفكر. لكن الحاصل أنه في العديد من البلدان ذات الأغلبية المسلمة، جرى إدماج عناصر من الشرع الإسلامي، ولا سيما القوانين المتعلقة بالأحوال الشخصية، كالزواج والطلاق والميراث، في صلب النظام القانوني للدولة. ففي معظم البلدان الإسلامية، أقدمت الدولة الحديثة، بدءاً بالإصلاحات، أو «التنظيمات» العثمانية التي وضعت المؤسسات الإسلامية تحت سيطرة الدولة بالتدرج، على اجتراف

رفع الأذان لدعوة المؤمنين إلى الصلاة: صوتٌ يتردد صدى عبر العالم الإسلامي التَّنَوُّع





## السينما الإسلامية

العام في حانة لاحتساء البيرة في ميدان غلطة بإسطنبول. وفي إيران، بدأ أوهراس أوغانيان، الإيراني من أصل أرمني، ببناء دور السينما للعموم في عام 1905، وأنشأ أول مدرسة لتعليم السينما في عام 1929، وأنتج أول فيلم روائي إيراني في عام 1930. كانت معظم أنحاء إفريقيا وآسيا عرضة للتصوير السينمائي كجزء من التجربة الاستعمارية التي كانت تعيشها. فكان أن شكل العالم العربي بدرجة كبيرة ستارة خلفية مثيرة للأفلام الغربية. وهكذا، فتن الجمهور الفرنسي بشمال إفريقيا، واجتذبت فلسطين اهتماماً واسعاً بحكم كونها الأراضي المقدسة، وأسرت مصر فضول الناس لتاريخها الغابر. وإذا كانت صناعة السينما الاستعمارية قد أنتجت قرابة 200 فيلم في شمال إفريقيا، فإن ستة منها فقط شارك فيها ممثلون عرب.

وأدى إدخال الصوت باللغات العامية إلى إعطاء إنتاج الأفلام المحلية دفعة قوية. فالسينما المصرية، على سبيل المثال، اجتذبت المستثمرين والمشاهدين المحليين على السواء عندما أشركت موسيقيين ومغنيين مصريين شعبيين من أمثال المطربة أم كلثوم في أفلامها. هذا ولم تكتفِ السينما المصرية بأن صارت قوة موجهة في البلدان العربية الأخرى، بل تركت كذلك بصماتها واضحة على الفن السينمائي في بلدان بعيدة جداً عنها كالأفلام الناطقة بالفرنسية في إيران ما قبل الثورة الإسلامية. غير أن صناعة السينما الوطنية لم يتسن لها أن تحرز تطوراً في معظم البلدان العربية الأخرى بسبب القيود المالية والضغط الاستعماري. وأغلب هذه البلدان لم تعرف صناعة السينما إلا بعد نيلها الاستقلال (لبنان وسوريا في الأربعينيات من القرن العشرين، وبلدان شمال إفريقيا في الخمسينيات ومطلع الستينيات من القرن نفسه).

إبان الحقبة الاستعمارية، كثيراً ما كانت الأفلام المستوردة إلى الأقطار العربية وسيلة من جملة الوسائل لخدمة أغراض قوى الاستعمار. حتى اليابانيون لجأوا إلى استخدام صناعة السينما الإندونيسية الوليدة لدعم مجهودهم الحربي إبان احتلالهم إندونيسيا في الفترة 1942-1945. وفي الوقت عينه، أسهمت السينما في تقويض اللغة الإندونيسية لتغزو اللغة القومية للبلاد. في العام

دخلت صناعة السينما المجتمعات الإسلامية بعد زمن وجيز من ظهورها في الغرب، وقد عرضت في بادئ الأمر على جمهور منتخب من المشاهدين. فلم تفض بضعة أشهر على الظهور الأول للسينما في أوروبا عام 1896، حتى كانت أفلام الأخوين لوميير تعرض على الشاشات في العالم العربي لجمهور من النخبة في غالبية. ففي مصر، على سبيل المثال، كانت العروض السينمائية تُقدّم في مبنى بورصة طوسون بالإسكندرية، وفي المغرب داخل القصر الملكي بفاس. أما في تركيا، فالعروض كانت تتم في بلاط السلطان، أي في قصر بلدن بإسطنبول. وفي عام 1900، سافر العاهل الإيراني مظفر الدين شاه إلى فرنسا خصيصاً لمشاهدة «السينما توغرافيا» و«الغانوس السحري».



وفي السنة عينها، صوّر ميرزا إبراهيم خان، مصوّر الملك الخاص، فيلمه «حفل الأزهار» في بلجيكا، مخرجاً بذلك أول فيلم إيراني في تاريخ السينما. أصبحت صناعة السينما المحلية في تلك الأقطار النور بفضل جهود الأجانب أو أفراد من الأقليات فيها. ونسوق مثلاً على ذلك، سيغموند وينبرغ، الروماني من أصل بولندي، الذي شرع يعرض الأفلام على الجمهور

حصل هبوط مفاجيء في عدد الأفلام المنتجة في تركيا، إلا أنه عاد وارتفع مجدداً مع نهاية ذلك العقد. تحرص معظم الدول في المنطقة على إحكام قبضتها على صناعة السينما لما لها، في عرقها، من أهمية فائقة كوسيلة تغيير وأداة احتجاج. ففي تركيا، مثلاً، تعمل مثل هذه الرقابة الصارمة على مستويين: على مستوى السيناريو، وكذلك على مستوى الفيلم المنجز. وثمة عملية مشابهة تحدث في إندونيسيا، حيث تتم الرقابة قبل تصوير المشاهد وأثناء عملية التوليف. وفي السينما الإيرانية، لا تخرج الأفلام بنسختها النهائية إلى شاشات العرض إلا بعد أن تنال ترخيصاً رسمياً من الدولة. وفي حالات قليلة يكون هذا الترخيص مطلوباً حتى في مرحلة كتابة النص. وفي معظم الدول العربية، يتعين على المشاريع السينمائية أن تستحصل مسبقاً على إذن رسمي بالتصوير، وذلك قبل نيل الترخيص الأخرى من وزارة الإعلام أو سواها من السلطات الرقابية بغية ضمان جدارتها التجارية.

وحرى بنا أن نذكر هنا «بوليود»، أي صناعة السينما الهندية التي تتخذ من مومباي (بومباي) قاعدة لها، ليس فقط لأنها كانت موضع تقليد ومحاكاة واسعة في كثير من البلدان الإسلامية، ولا سيما في عقودها الأولى، بل وبالنظر كذلك إلى الوجود المهم للمسلمين فيها ككتبة سيناريو ومتجنيين وموسيقيين وممثلين... الخ. وهناك أيضاً صنف من الأفلام السينمائية الهندية يُدعى «شاهنشاه» (ملك الملوك)، وهو يعود زمنياً إلى فيلم «بوكار» (1939) الذي تدور قصته حول الأمباطور المغولي جيهانكير. إنه أول «فيلم اجتماعي إسلامي» جدير بالتشويه. ولئن استمرت شخصية هذا الأخير بالظهور في أفلام من الإنتاج الحديث، إلا أن الحضور المسلم فيها أخذ يرتدي طابعاً أقل ملوكية، مركزاً في الأكثر على مشاكل الطبقة المتوسطة الإسلامية في شمال الهند... إلى أن اضمحل هذا الصنف السينمائي تدريجاً بعد سبعينيات القرن العشرين.

نشير، في الختام، إلى أنه وبعد غياب ملحوظ عن عالم السينما (أقل من أربعين فيلماً ما بين طويل وقصير)، عادت أفغانستان إلى مسرح السينما العالمية بفيلم: «أسامة» في العام 2003، وهو من إنتاج أفغاني - ياباني - إيرلندي مشترك. ولكونه أول فيلم سينمائي أفغاني ما بعد طالبان، فقد عُرض في مختلف مهرجانات السينما العالمية، بما فيها مهرجانا كان ولندن.

العربي، اتخذ الإنتاج السينمائي منحى قومياً واشتراكياً متعاضداً بعد الاستقلال، حيث دأبت كل من سورية والجزائر وتونس تتوسل الفن السينمائي للإعلاء من شأن هويتها القومية على الشاشة. وفي إيران، دشّن فيلم «البقرة» لداريوش مهرجوي، الفائز بإحدى الجوائز السينمائية، وكذلك فيلم «قبصر» لمسعود كيميئي، وكلاهما أنتجا في العام 1969، بداية ما يُعرف بـ«الموجة الجديدة» في السينما الفنية الإيرانية، التي راحت الأفلام الإيرانية بعدها تنال إظراً عالمياً متزايداً. وحوالي الفترة ذاتها، وبالتحديد في عام 1970، شكّل فيلم بلماز غوناي «الأم»، الحائز هو الآخر على إحدى الجوائز السينمائية، نقطة انعطاف في السينما التركية ودشّن مرحلة «الموجة الجديدة» من الأفلام التركية.

في الفترة 1978-1982، واجه السينمائيون في إيران مستقبلاً غامضاً نتيجة لعدم الاستقرار المالي وقلة اهتمام الحكومة بالسينما خلال المرحلة الانتقالية، ناهيك عن أمور أخرى غيرها. وفيما عدا بعض الاستثناءات القليلة، لم يُصر إلى إنتاج أية أفلام من النوعية الجيدة في تلك الفترة. قبل الثورة، كان علماء الدين في معظمهم يرفضون السينما أو يتجاهلونها. لكن الإسلاميين، بعد الثورة، أدركوا ما لها من قوة مؤثرة وقرروا وضعها تحت إشرافهم وتوجيههم. وهكذا، صار تبثّ السينما عند خميني بمثابة سلاح أيديولوجي يُحارب به التفكك المائل للغرب والإمبريالية لنظام حكم بهلوي. وفي عام 1989 (عام وفاة خميني)، ظهرت أفلام، ومنها فيلماً «باشو» و«الغريب الصغير»، لتكسب السينما الإيرانية من جديد إعجاباً وتقديراً على نطاق العالم. والسينما الإيرانية بإفساحها المجال هكذا أمام خطاب لا يني ينمو ويتطور داخل المجتمع، إنما تكرست أداة خطيرة الشأن في عملية التغيير نفسها.

شهدت الثمانينيات من القرن العشرين بدء انسحاب الدول العربية من مضمار الإنتاج السينمائي، فقد وقعت صناعة السينما الجزائرية في الإفلاس، فيما واجهت تطوراتها المصرية أزمة اقتصادية خانقة. وجاء التلفزيون وإنتاج شرائط الفيديو بالجملة ليزيد من تدهور صناعة السينما في المنطقة كافة. فكان أن توجهت الأفلام نحو الإنتاج المشترك مع الغرب؛ وهذه هي الحال في بلدان شمال إفريقيا وسورية، ولاسيما في لبنان. وعند بداية الثمانينيات من القرن الماضي،

الصورة إلى اليمين: المخرجة السينمائية الإيرانية سميرة مخطليف تقف أمام عдسات المصوريين بعد نيلها جائزة عن فيلمها «الخامسة بعد الظهر»، وذلك خلال الحفل الاختتامى لمهرجان «كان» السينمائي السادس والخمسين في أيار / مايو 2003. هي ابنة المخرج المحبوب محسن مخطليف، أخرجت فيلمها الأول «التفاحة» (1998) في عمر الثامنة عشرة. كذلك فإن فيلمها «اللوح الأسود» (2000) عن اللاجئين الأكراد على الحدود العراقية الإيرانية قد نال أيضاً جائزة في مهرجان «كان».

## استخدام الإنترنت

الوصول إلى أحكام مراجع التقليد الأحياء، من أمثال آية الله العظمى السيستاني، المرجع الأكبر للشيعة في العراق. فصفحات موقعه على الإنترنت تغطي مسائل وهموماً معاصرة، كبطاقات الائتمان، والتأمين، وحقوق الملكية، وتشريع الجثة، والتبرع بالأعضاء، فضلاً عن طلب المشورة حول الواجبات والغرائض الدينية. ولبعض الطرُق الصوفية مواقع على الشبكة تحكي بالتفصيل عن خطوط النسب الروحية لمشايخها، ونصوص الأوراد والأذكار المستخدمة في طقوسها. لكن، طالما أن الكثرة الكثيرة من الممارسات

قبل قدوم العصر الرقمي، كانت المسائل الإسلامية المثارة للنقاش أو المطروحة للحل تُعالج في كثير من الأحيان محلياً، من قبل علماء الدين، مفسري العقيدة الدينية المعترف بهم، القائمين بدور الوكلاء الرئيسيين للسلطات الدينية. وكان لانتشار معرفة القراءة والكتابة والتعليم الثانوي في الشطر السُني من العالم الإسلامي، أثره المجترف لوزن وأهمية هؤلاء العلماء قبل وقت طويل من ظهور شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت). مع ذلك، فالإنترنت تسهم في تسريع وتيرة هذه العملية بتسهيلها أمر اضطلاع الأفراد أنفسهم بالاجتهاد، استناداً إلى مصدريين أساسيين هما: القرآن والحديث. فيما مضى كانت المرجعية المعرفية حكراً على الفقهاء المؤهلين دون غيرهم، لكن جاء هذا التطور المذهل ليسبب البساط من تحت أقدام الهرمية التقليدية للمعرفة.

إن المسلمين المبحرين على الشبكة غير مضطرين بعد اليوم إلى استشارة المعاجم المفهرسة للقرآن أو مراجع الفقه الرزينة للتوصل إلى اجتهادات أو أحكام، بل حسبهم ببساطة أن ينفذوا إلى مواقع معينة على الشبكة، فيستعرضوا فيها بالمسح الإلكتروني الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية بمجرد النقر على كلمات مفتاحية بعينها. أو إذا شاؤوا، بإمكانهم إرسال أسئلتهم بالبريد الإلكتروني إلى مئات المواقع على الشبكة التي تقدم الإرشادات الاجتماعية والمسلية والدينية، وفي بعض الحالات، التوجيهات السياسية أيضاً. والكثير من المواقع ذات التمويل الجيد في المملكة العربية السعودية أو دول الخليج، غالباً ما تكون أجوبتها أميل إلى المحافظة، وقد لا تكون دائماً حساسة لظروف السائل الاجتماعي أو الاقتصادية. لنأخذ الأجوبة على أسئلة الشباب اللواتي يعيشن في أمريكا الشمالية بصد ما ينبغي عمله بشأن المعاملة السيئة التي يلقينها من آبائهن، مثلاً. إنها قد لا تخرج عن تكرار التشديد على وجوب طاعة الآباء وواجبات الأبناء والبنات تجاههم، لا بل وتقدمها حتى على حقوقهم كمواطنين.

بالنسبة للشيعة الاثني عشرية، وهي التي يقوم رجال الدين فيها وليس النصوص مقام المدبر الرئيسي للسلطة الدينية، تؤمن شبكة الإنترنت سهولة



كان يُطبَّق نظام طالبان البائد في أفغانستان باسم تعاليم الإسلام «الحقّة».

رغم الانتشار السريع لخدمات الإنترنت في طول العالم الإسلامي وعرضه، تبقى النتائج البعيدة المدى لهذا الانتشار غامضة نوعاً ما. فمن جهة، ثمة خطاب إسلامي «كوفي» أخذ بالبروز وبما يتجاوز حدود التقاليد والأعراف المحلية، بما فيها تلك السائدة ممثلة بمؤسسات عريقة كالأزهر في القاهرة. ومن جهة أخرى، لا يستطيع الخطاب الأخذ بالبروز هذا أن يتهرب من معالجة موضوع التنوّع والمخالفة، طالما أن الأقليات والجماعات المخالفة قادرة على تحدي رأي التيار الرئيسي في تلك الثقافات، حيث تكون التعددية الدينية والسياسية عرضةً للكبت في أغلب الحالات.

الصوفية تبقى مغلفة في وجه الدخلاء من غير المنتمين إليها، فإن الطرق الأكثر تقليدية هي من يسهر على إدارة مواقع لها على الشبكة.

كذلك، الإسلام السياسي حاضر بقضيه على الإنترنت، بحيث يمكن للمرء الوصول بسهولة وسرعة إلى معظم الأحزاب السياسية الإسلامية من خلال مواقعها العديدة. كما أن قوى المعارضة موجودة هي الأخرى على الشبكة، وإن كان الوصول إلى مواقع الجماعات المحظورة دونة قيود وتقييدات في بعض الحالات من جانب أجهزة الرقابة الحكومية. وثمة جماعات للنساء المسلّحات تنشط في «الفضاء السيبرنتيكي» ضد الممارسات الأبوية من النوع الذي



## جدول زمني بأهم الأحداث الإسلامية

622 – 570	محمد في مكة	«اختفاء» محمد المهدي، الإمام الثاني عشر للشيعة، أو «الإمام المنتظر».
632–622	محمد في المدينة.	«الغيبة» الصغرى، أو الاحتجاب الذي يمثل خلاله إمام الشيعة الاثني عشرية بأربعة وكلاء.
634–632	خلافة أبي بكر الصديق. انتصار المسلمين في حروب الردة. توحيد الجزيرة العربية.	وفاة أبي يزيد البسطامي، أول المتصوفة «السكراني».
644–634	خلافة عمر بن الخطاب. فتح معظم أراضي الهلال الخصيب. مصر والقسم الأكبر من بلاد فارس. التوسع باتجاه شمال إفريقيا.	تأسيس أول دولة فاطمية للإسماعيليين في إفريقيا (تونس حالياً).
644–656	خلافة عثمان بن عفان. تواصل الفتوحات شمالاً وشرقاً وغرباً. جمع القرآن وتوحيد النص.	إعدام الحلاج بتهمة الزندقة، و«الشهيد». ينظر المتصوفة المتأخرين.
656–661	الفتنة الأولى إبان خلافة علي بن أبي طالب.	الأمير الأموي عبد الرحمن الثالث يُنشئ خلافة أموية في قرطبة بإسبانيا.
660–712	إخفاق العرب في الاستيلاء على القسطنطينية.	الافتتاح الفاطمي (الإسماعيلي) في مصر.
661	مقتل علي. إقامة الخلافة الأموية على يد معاوية في دمشق.	الافتناء عشرة الاتصال بإمامهم.
680	الفتنة الثانية. ثوريت معاوية الحكم لابنه يزيد يثير تمرد الحسين بن علي. استشهاد الحسين وأتباعه في كربلاء بالعراق.	البوهبيون الشيعة يستولون على بغداد ويعزلون الخليفة العباسي رهينة فعليه لديهم.
685–705	عبد الحليفة عبد الملك بن مروان. باني قبة الصخرة في القدس.	الخلافة الفاطمية (الإسماعيلية) في مصر.
687–691	الخوارج يسيطرون على معظم أرجاء الجزيرة العربية.	محمود الغزنوي (من غزنة، أفغانستان حالياً) يغزو شمال الهند.
711	العرب يتقدمون داخل إسبانيا.	الأتراك السلاجقة، المنطلقون من أواسط إيران والزاحفون غرباً، يعيدون العقيدة السنية التقليدية إلى قلب العالم الإسلامي.
712–713	العرب يفتحون بلاد ما وراء النهر (بخارى وسمرقند).	المرابطون، الوافدون من إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، يصنّون تقدم المسيحيين في إسبانيا.
728	موت الحسن البصري، المعلم الصوفي الأول.	السلاجقة يهزمون الروم (البيزنطيين) في معركة ملاذكرد.
732	موقعة باتوييه. شارل مارتيل يوقف تقدّم العرب داخل فرنسا.	فاتحين بذلك برّ الأناضول أمام الاستيطان التركي.
744–750	الفتنة الثالثة. السلالة الأموية تسقط على أيدي العباسيين (749) بسبب الضعف الذي سألها من جراء الانشقاقات والمنازعات الداخلية.	الإسماعيليون الزناريون ينتفضون في وجه الخلفاء السنية. السلاجقة يتخذون من بغداد عاصمة لهم.
756	قيام الحكم الأموي في إسبانيا.	الصليبيون يحتلون أجزاء من سورية وفلسطين.
765	وفاة جعفر الصادق، سادس أئمة الشيعة. انقسام الشيعة إلى إسماعيليين، واثنى عشرية، وزيديين.	الصليبيون ينتزعون القدس من المسلمين.
767	وفاة أبي حنيفة (م 699)، مؤسس المذهب الحنفي في الفقه.	وفاة ألفرالي (م 1058)، المتصوف والمتكلم السني.
786–809	عبد هارون الرشيد، الخليفة النموذجي لعصر الإسلام الذهبي.	وفاة ابن تومرت، مؤسس السلالة الموحدية في إسبانيا.
795	وفاة مالك بن أنس (م 713)، مؤسس المذهب المالكي.	صلاح الدين الأيوبي يطرد الصليبيين من القدس.
801	وفاة رابعة العدوية (البصرية)، المتصوفة والشاعرة.	وفاة ابن رشد (م 1126)، الفيلسوف الأندلسي.
813–833	خلافة المأمون. صعود المعتزلة (العقلانيين) وال مدرسة الاعتزالية في علم العقائد (أو علم الكلام).	قيام سلطنة دلهي في الهند.
820	وفاة الشافعي (م 767)، مؤسس المذهب الشافعي في الشرع الإسلامي.	غارات المغول في بلاد ما وراء النهر وشرق إيران تعيث دماراً وخراباً في المدن.
847–861	خلافة المتوكل، الذي انقلب على المعتزلة.	الموحدون يتخلون عن إسبانيا، وانحسار الوجود الإسلامي هناك ليقتصر على مملكة غرناطة الصغيرة (1232–1492) فقط.
861–945	تذكأ أوصال الدولة العباسية مع استقلال الولايات تبعاً إلى أن فقدت سلطة الخلافة السيطرة تامة على أراضيها.	موت جنكيزخان.
870	وفاة البخاري (م 810)، المحدث (جامع الأحاديث النبوية).	وفاة ابن عربي (م 1165)، شيخ النيوصوفية الإسلامية.
873	وفاة سُلم، المحدث.	سقوط قلعة الموت، آخر معقل إسماعيلي جنوبي بحر قزوين.
		خراب بغداد على أيدي المغول.
		المماليك، خلفاء الأيوبيين في مصر، يهزمون المغول، الذين

1805-1848	محمد علي يُباشِر عملية التحديث في مصر.	لم يعرفوا طعم الانكسار حتى الآن، في معركة عين جالوت بفلسطين.
1815-1817	ثورة الصرب على العثمانيين.	ن 1300
1818	بريطانيا تصبِح القوة صاحبة السلطة المطلقة في الهند.	بزوغ السُلالة العثمانية (العثماني) في بيلينيا، على حدود
1820	محمد علي يشرع في إخضاع السودان.	بمِنطقة في غرب الأناضول.
1821-1830	حرب الاستقلال اليونانية.	العثمانيون يحتلون بورصة، أول عاصمة حقيقية لهم.
1830	بدء الاحتلال الفرنسي للجزائر.	العثمانيون يحتلون أدريانوبل (أدرنة حالياً) في البلقان.
	إنشاء الخرطوم كموقع بريطاني - مصري متقدم في أعالي النيل.	ن 1378
	القوى الأوروبية تُسارع إلى نجدة الأمبراطورية العثمانية في وجه اجتياح محمد علي لأراضيها.	صعود نجم تيمورلنك، التركي العامل في خدمة المغول في بلاد ما وراء النهر، ليفتزو القسم الأكبر من آسيا الوسطى والغربية.
1832-1848	قشل «التمرد» الهندي يؤدي إلى إلغاء «شركة الهند الشرقية»، ويُسَهِّل السبيل لدمج الهند في صُلْب الأمبراطورية البريطانية.	1389
ن 1839-1861	الروس يهزمون الإمام شامل في القوقاز، ويتبعون ذلك بضم الشيشان وداغستان إلى ممتلكاتهم.	العثمانيون يهزمون الصرب في كوسوفو بأواسط صربيا، بدعم من الألبان والبلغار والبشناق والمجريين.
1859	تأسس أكاديمية ديوباند في شمال الهند من قبل فئة من المصلحين الذين يُحاذرون الاتصال بالبريطانيين.	1405
1867	اكتمال الضم الروسي لكازاخستان.	1453
1868	إمارة بخاري تُصبح محمية روسية.	محمد الفاتح (ح 1451-1481) يستولي على القسطنطينية ويخضع الأمبراطورية البيزنطية.
1869	افتتاح قناة السويس.	1498
1875	انهيار خزانة الدولة المصرية. السويس تُباع للبريطانيين.	فاسكو داغاما يدور حول رأس الرجاء الصالح، مُنْهِيًا بذلك احتكار المسلمين للتجارة في المحيط الهندي.
1876	إعلان أول دستور عثماني بعد وقوع ثورة في القصر.	1501
1876-1909	السلطان عبد الحميد يُغلق الدستور، ويجري إصلاحات في مجالات التعليم والنقل والاتصالات من خلال الحكم الاستبدادي.	صعود الدولة الصفوية في إيران. الشيعة الاثنا عشرية تُصبح العقيدة الرسمية للدولة.
1881	إعلان تونس محمية فرنسية.	1517
1882	احتلال بريطانيا لمصر.	1526
1885	مقتل الجنرال غوردون (الملقب بـ«الصيني») في الخرطوم أثناء الثورة المهدية ضد الحكم المصري المدعوم من بريطانيا.	معركة بانيوت (الهند) تتيح للأمير التيموري، بابر، أن يؤسس الأمبراطورية المغولية (المغلية) في الهند.
1889	محمد عبده، تلميذ الأفغاني ومريد، يعود إلى مصر ويُقر التعاون مع البريطانيين.	ومعركة موهاكس تجعل من الكاثوليك المجريين تابعين للأمبراطورية العثمانية.
	طلاب الأكاديمية العسكرية في استنبول، يُشكّلون أول تنظيم ثوري «لتركيك الفتاة» باسم «جمعية الاتحاد والترقي».	1529
	وفاة السيد جمال الدين الأفغاني (م 1838)، المُصلح والداعية للوحدة الإسلامية الجامعة.	1552
1898	الحركة المهدية في السودان تُمنى بالهزيمة على يد قوة إنجليزية - مصرية مشتركة بقيادة الجنرال كيتشنر في موقعة أم درمان.	عبد الأميرطور المغولي الثالث، أكبر، الذي رعى التقارب الثقافي والديني بين الهندوس والمسلمين.
	وفاة السير السَيِّد أحمد خان (م 1817)، الشخصية الإصلاحية والتحديثية، ومؤسس جامعة عليكرة في الهند (1875).	1605-1556
1905	وفاة محمد عبده (م 1849)، مؤسس الحركة الإصلاحية السلفية الحديثة.	1682-1699
1906	تأسيس «الرابطة الإسلامية» في الهند.	1718
1906-1908	وقوع ثورة دستورية في إيران.	الصلح في باسروفيتز يُكرِّس ما فقده العثمانيون من مناطق لصالح آل هابسبورغ.
		1739
		العاهل الإيراني نادر شاه، يستيحي دلهي ويضع نهايةً لسلطة المغول في الهند.
		1757
		الهايون ينتزعون الإحساء في شرق الجزيرة العربية. انتصار بريطانيا في معركة بلاسي يفتح الهند أمام التوسع البريطاني.
		1762
		وفاة شاه وليّ الله، المُصلح الصوفي الهندي من الطريقة السيرهندية.
		1774
		معاهدة كوتشوك كينارجي. العثمانيون يفقدون شبه جزيرة القرم عقب هزيمتهم أمام روسيا. الاعتراف بالقياصرة الروس حُماةً للمسيحيين الأرثوذكس في البلاد العثمانية.
		1779
		قيام السُلالة القاجارية في إيران.
		1789-1807
		الإصلاحات العثمانية الأولى على النهج الغربي في عهد السلطان سليم الثالث.
		1798
		نابليون بونابرت يبتز في بر مصر ويهزم المماليك في معركة الأهرامات: غزوة تولد اهتماماً بالثقافة الأوروبية.

- 1908 ثورة «تركيا الفتاة»، تُجرى السلطان العثماني على إعادة العمل بالدستور والتنازل البرلمان مجدداً.
- 1909 اعتماد جمهوريتين منفصلتين للشاخبين، أحدهما مسلم والآخر هندوسي، في الهند.
- 1911-1913 إيطاليا تنزع طرابلس الغرب من العثمانيين.
- 1912 إعلان المغرب محمية فرنسية.
- 1914-1918 هزيمة الأمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى.
- إعلان مصر رسمياً محمية بريطانية.
- 1916-1918 اندلاع الثورة العربية المدعومة من بريطانيا ضد الحكم التركي بقيادة حسين، شريف مكة، وابنه الأمير فيصل، والكولونيل الإنجليزي ت. إ. لورانس.
- 1917 وعد بلفور يفتح الباب أمام الاستيطان المتزايد لليهود أوروبا في فلسطين.
- 1917-1920 الثورة الروسية والحرب الأهلية في روسيا تفضيان إلى وقوع نزاعات سوفيتية - إسلامية في آسيا الوسطى.
- المسلمون في كازاخستان وأذربيجان والقوقاز يناضلون في سبيل الاستقلال الوطني.
- القوات الروسية تطيح بجمهورية تركستان المستقلة (1918) وتتسبب باندلاع الثورة البسماتشيتية.
- إدراج بخاري وخيوه ضمن الجمهوريات السوفيتية.
- انتساب بعض «التجديدين» المسلمين البارزين إلى عضوية الحزب الشيوعي.
- 1918 مؤتمر سان ريمو، عصبة الأمم تُكلف دولاً بالانتداب على الولايات التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية، فتنتدب بريطانيا على فلسطين وشرقي الأردن والعراق، وفرنسا على سورية ولبنان.
- الفرنسيون يطردون الأمير فيصل بن الحسين من دمشق، والإنجليز ينصبونه ملكاً على العراق. وأخوه الأصغر، عبد الله بن الحسين، ينصب ملكاً على شرقي الأردن. الزعيم المصري سعد زغلول يترأس الوفد المطالب باستقلال مصر.
- إبعاده عن البلاد يُشعل فتيل «ثورة» وطنية.
- إلغاء السيادة العثمانية على مصر، فيما تحتفظ بريطانيا بحق الإشراف على شؤون الدفاع والسياسة الخارجية والسودان وقناة السويس.
- 1919-1922 حرب الاستقلال التركية. مصطفى كمال (أتاتورك) يجمع شمل القوى الوطنية التركية لإنزال الهزيمة بالغزاة اليونانيين، وصّد عمليات الإنزال الأوروبية على بر الأناضول.
- معاهدة لوزان تضمن وحدة وسلامة الأراضي التركية.
- 1924 آسيا الوسطى السوفيتية يُعاد ترتيبها تحت أسماء: جمهوريات أوزبكستان، وتركمانستان، وكازاخستان، وقيرغيزيا الاشتراكية.
- إلغاء الخلافة العثمانية. المحاكم الشرعية التركية تُستبدل بمحاكم مدنية.
- حركة «خلافت» الهندية تنحو باللاملة على البريطانيين لإلغاء الخلافة.
- ابن سعود ينجح الحجاز، فيطرد الشريف حسين من الجزيرة العربية ويضع حجر الأساس لمملكة وعابية محدثة.
- 1926 تكبير الكيان اللبناني وفصله عن سورية تحت رعاية فرنسا وحمايتها.
- 1928 حسن البنا، المدرّس المصري، يؤسّس تنظيم «الإخوان المسلمين».
- 1932 العراق ينال استقلاله ويُقبل على عضوية عصبة الأمم.
- 1936 الفلسطينيون يثورون على الحكم البريطاني في فلسطين، وضد ازدياد الهجرة اليهودية من جراء وصول النازيين إلى السلطة في ألمانيا.
- محمد علي جناح يؤتّى قيادة «الرابطة الإسلامية»، مُنهباً بذلك دعم المسلمين لحزب المؤتمر.
- دستور سوفيتي جديد يُنظم آسيا الوسطى في ست جمهوريات اشتراكية سوفيتية (أوزبكستان، أذربيجان، كازاخستان، تركمانستان، طاجيكستان، قيرغيزيا، وشمالي جمهوريات اشتراكية سوفيتية ذات حكم ذاتي (تاتارستان، باشكيريا، داغستان... وغيرها من أقاليم القوقاز الواقعة تحت السيطرة الشيوعية).
- 1938 وفاة محمد إقبال، الشاعر/الفيلسوف، الأب الفعلي لدولة باكستان.
- 1940-1947 الرابطة الإسلامية تتبنى فكرة قيام دولة إسلامية منفصلة للمسلمين الهنود.
- 1941 البريطانيون يُخدعون ترمداً مالياً للمحور قام به ضباط من الجيش العراقي.
- 1942 البريطانيون يجبرون الملك فاروق على استبدال رئيس وزرائه الموالى للمحور بأخر أسهل انقياداً لهم وأكثر تعاطفاً مع قضية الحلفاء.
- 1943 بدء حملة الإرهاب الصهيوني ضد البريطانيين في فلسطين.
- 1945 تأسيس جامعة الدول العربية.
- 1946 الاعتراف باستقلال كل من شرقي الأردن، ولبنان، وسورية. أعمال شغب واسعة النطاق تندلع بين الهندوس والمسلمين في الهند.
- 1947 استقلال الهند. تكوين دولة باكستان من المناطق ذات الغالبية المسلمة فيما عدا كشمير.
- 1948 انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين. هزيمة نكراء تحل بالجيش العربي إثر الإعلان عن قيام دولة إسرائيل. نزوح الفلسطينيين عن ديارهم يخلق مشكلة لاجئين خطيرة.
- الأمير عبد الله، عاهل شرقي الأردن، يضم القدس الشرقية (بما فيها البلدة القديمة) والضفة الغربية إلى دولته.
- رئيس الوزراء المصري، محمود النقراشي، يتعرض للاغتيال.
- 1949 اغتيال حسن البنا على أيدي عملاء أجهزة الأمن ردّاً على مقتل النقراشي.
- 1952 الإطاحة بالملكية في مصر بانقلاب قادة ضباط قوميين عرب يزعمهم جمال عبد الناصر ويحظون بدعم حركة الإخوان المسلمين.

1956	عبد الناصر يؤم قناتة السويس: خطوة استدعت تدخلًا عسكرياً من إنجلترا وفرنسا، في تواطؤ سري مع إسرائيل.
1958	قلب النظام الملكي الموالي لبريطانيا في العراق، بانقلاب دؤي قاده الزعيم عبد الكريم قاسم.
1963	الإطاحة بعبد الكريم قاسم في انقلاب عسكري قام به الضباط البعثيون بقيادة عبد السلام عارف.
1965	تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية.
1966	إعدام سيد قطب، الكاتب والأيدولوجي ذي النزعة الكفاحية الجامحة في تنظيم الإخوان المسلمين بمصر مصرع الرئيس العراقي عبد السلام عارف في حادث طائرة.
1967	حرب الأيام الستة (في حزيران/يونيو) تنتهي بسيطرة إسرائيل عسكرياً على شبه جزيرة سيناء بأكملها، والضفة الغربية بما فيها البلدة القديمة من مدينة القدس، وممرات غولان السورية.
1968	ياسر عرفات (أبو عمار)، قائد منظمة فتح، أكبر المنظمات الفلسطينية، يُنتخب رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية.
1969	سقوط الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف (شقيق عبد السلام عارف وخلفه في الحكم) على يد الفريق أحمد حسن البكر، لكن السلطة الحقيقية في قبضة صدام حسين التكريتي.
1970	الإطاحة بالنظام الملكي للأسرة السنوسية الموالية لبريطانيا في ليبيا، وذلك بانقلاب عسكري على النمط الناصري، بقيادة العقيد معمر القذافي، البالغ من العمر 27 سنة.
1972	تأسيس منظمة المؤتمر الإسلامي لتعزيز التضامن الإسلامي وتشجيع التعاون السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي بين البلدان الإسلامية.
1973	حافظ الأسد، قائد سلاح الجو السوري، ينتزع مقاليد السلطة في سوريا على رأس حزب البعث.
1974	حرب أهلية في الأردن بين الجيش الأردني والفدائيين الفلسطينيين (ومن هنا منظمة «أيلول الأسود»).
1975	أنور السادات يتولى رئاسة الجمهورية في مصر عقب وفاة جمال عبد الناصر.
1976	بنغلادش، باكستان الشرقية سابقاً، تفوز باستقلالها بمعاندة الجيش الهندي.
1977	حرب أكتوبر/تشرين الأول (حرب رمضان/حرب يوم كيبور)، مصر تقيم رأس جسر على الضفة الشرقية لقناة السويس، في أول نجاح كبير تحرزه الجيوش العربية ضد إسرائيل.
1978	منظمة البلدان المصدرة للبترول (أوبك) التي تنزعها إيران والمملكة العربية السعودية، تفرض زيادة قدرها أربعة أضعاف على أسعار النفط الخام، مما خلق لديها فائضاً هائلاً من «البترول دولار» للاستثمار في تصنيع اقتصاداتها ولمساندة الحركات الإسلامية في العالم، وأدى ذلك إلى حدوث ركود اقتصادي عالمي.
1979	اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية، لأسباب تعود جزئياً إلى
1979-1978	وجود اللاجئين الفلسطينيين المقاتلين والعمليات الانتقامية الإسرائيلية ضدهم.
1979	بدء التفاوض بين مصر وإسرائيل.
1979	ضياء الحق، القائد العسكري الباكستاني، يغتصب السلطة ويفرض الأحكام العرفية. إعدام الرئيس السابق ذو الفقار علي بوتو، وضياء الحق يشرع بتنفيذ برنامجه الخاص بأسلمة البلاد.
1979	وفاة علي شريعتي (م 1933)، المفكر والفيلسوف الإسلامي، في مدينة ساوثمبتون ببريطانيا.
1979-1978	استعمال الاضطرابات في إيران ضد ديكتاتورية الشاه محمد رضا بهلوي.
1979	آية الله الخميني يعود من منفاه في أوروبا ليقوم الجمهورية الإسلامية في إيران. أخذ 52 دبلوماسياً أميركياً رهائن واحتجازه لمدة 444 يوماً. اتفاقية كامب ديفيد للسلام بين مصر وإسرائيل تدشن العملية السلمية بين العرب والإسرائيليين.
1979	وفاة أبو الأعلى المودودي (م 1909)، المفكر والمنظر الهندي - الباكستاني، ومؤسس «جماعتي الإسلامي» (الجماعة الإسلامية).
1979	الرئيس الباكستاني، ضياء الحق، يشرع بتطبيق «الحدود» أي العقوبات المخصوص عليها في القرآن لصنوف معينة من السرقة والزنا وشرب الخمر.
1979	الغزو السوفييتي لأفغانستان، دعماً للنظام الشيوعي المعلن. التدخل والغلبة الغربي للمجاهدين يخلق كادراً جيد الإعداد من المناضلين الإسلاميين.
1980-1988	الحرب الإيرانية - العراقية، الناجمة عن الاستفزازات العراقية لإيران، تتحول إلى أطول نزاع دولي مستديم في القرن العشرين، مؤقعة ما لا يقل عن نصف مليون ضحية على الجانب الإيراني فقط، فضلاً عن خراب اقتصادي هائل. متطرفون إسلاميون يقتالون الرئيس المصري أنور السادات.
1981	إسرائيل تجتاح لبنان وتطرد منظمة التحرير الفلسطينية إلى تونس.
1982	بداية الانتفاضة الفلسطينية الجماهيرية تغتصم ضد الاحتلال الإسرائيلي، والأطفال، رُماة الحجارة، يشكلون رأس الحربة في تلك الانتفاضة.
1987	الشيخ أحمد ياسين، رئيس المركز الإسلامي في غزة وعضو تنظيم الإخوان المسلمين الفلسطينيين، يؤسس «حركة المقاومة الإسلامية» (حماس).
1988	آية الله الخميني، المرشد الديني لإيران، «يتجرع السم» ويقبل بوقف إطلاق النار مع العراق. مقتل الرئيس الباكستاني ضياء الحق في حادث طائرة مريب.
1988	صودر «الآيات الشيطانية» للكاتب البريطاني المسلم سلمان رشدي.
1989	محمد محمود طه، زعيم الإخوان الجمهوريين والمُصلح ذو الميول الصوفية، يُعدم شنقاً بتهمة «الردة» في السودان.
1989	الخميني يُصدر «فتوى» ضد سلمان رشدي، مما يحول دون

- 1998 حدث انفراج بين إيران والغرب برغم وجود برغمتيين في الحكومة الإيرانية.  
وفاة خميني (في حزيران/يونيو)، ليخلفه في منصب المرشد الديني الأعلى آية الله علي الخامني.  
في الجزائر، فوز الجبهة الإسلامية للإنقاذ بـ 55 بالمئة من أصوات المقتربين في الانتخابات البلدية.  
الزعيم العراقي صدام حسين يجاتح الكويت.
- 1999 عملية «عاصفة الصحراء» بقيادة الولايات المتحدة وبمساعدة عسكرية من بريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، والمملكة العربية السعودية، ومصر، وسورية، وباكستان، تنجح في طرد القوات العراقية من الكويت.  
انتفاضة شعبية في مدينتي النجف وكربلاء العراقيتين تقع بوحشية.  
تفكك أوصال لاتحاد السوفييتي، بعد فشل الانقلاب العسكري على غورباتشيف، يؤدي إلى استقلال جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية إما تحت حكم أفراد من الشريحة الطغلية المتنفذة السوفييتية السابقة، التنافس بين القيادة الشيوعية السابقة والمعارضة الإسلامية في طاجيكستان يتمخض عن حرب أهلية مبررة ومكلفة.
- 2000 في الجزائر، الجبهة الإسلامية للإنقاذ تفوز بـ 49 بالمئة من أصوات الناخبين في الجولة الأولى من الانتخابات العامة. الجيش يتدخل للحؤول دون فوز الجبهة في الجولة الثانية، ما أثار حرباً أهلية دامت ثماني سنوات يقال إنها كبدت البلاد مئة ألف قتيل على أقل تقدير.  
1992 متشدّدون إسلاميون يطلقون النار على الكاتب والمفكر الإنساني المصري البارز، فرج فودة، ويردونه قتيلاً في القاهرة.  
إقامة منطقتين يحظر فيهما الطيران في شمال العراق وجنوبه لمنع هجمات القوات العراقية على السكّان الأكراد والشيعي. القوات التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق تتسبب بمصاعب جمّة للفئات الهشة من المواطنين وفي طليعهم الأطفال.
- 1994 اغتيال الشبّ حسني، مطرب «الراي» الشعبي الجزائري في فرنسا. والظاهر جعوط، الروائي والناشر الحائز على عدة جوائز أدبية، يردي قتيلاً خارج منزله في مدينة الجزائر.
- 1995 مقتل أكثر من سبعة آلاف مسلم ومسلمة في مذبحة سربرينتشا بالبويسنة والهرسك، بعدما أخفقت قوات الأمم المتحدة في حماية الجيب المسلم من هجمات صرب البوسنة.
- 1996 حركة طالبان، المعوّل على طلاب المدارس الدينية في أرياف أفغانستان، تستولي على كابول. برنامجها لوضع حد للعنف، ينعكس سلباً على وضع النساء والأقليات في البلاد.
- 1997 مقتل أكثر من 60 سائحاً أوروبياً بالقرب من مدينة الأنصر في مصر على أيدي متطرفين إسلاميين.  
محمد خاتمي، وزير الثقافة السابق، يُنتخب رئيساً للجمهورية في إيران.
- مقاتلو طالبان يُجهزون على ما يتراوح بين ألفين وخمسة آلاف فرد من طائفة الهزارة الشيعية بعد استيلائهم على مزار الشريف.  
«القاعدة» تُهاجم سفارات للولايات المتحدة في شرق إفريقيا.  
عبد العزيز بوتفليقة، وزير الخارجية الجزائري الأسبق، يُنتخب رئيساً للجمهورية بناءً على برنامج للمصالحة الوطنية.  
مظاهرات مؤيدة للديمقراطية في إيران تقمعها الشرطة بإيعاز من القوى المحافظة.  
حملة من القصف الجوي بشنّها حلف شمالي الأطلسي تُجبر الصرب على التخلي عن كوسوفو، وتضع حداً للتطهير العرقي بحق المسلمين الألبان.  
روسياً تقصف الشيشان تحت ذريعة محاربة «الإرهاب الإسلامي».  
2000 (حزيران/يونيو) الروس يحتلون غروزني، عاصمة الشيشان.  
في باكستان، الجنرال برويز مشرف يطيح بحكومة نواز شريف المنتخبة ديمقراطياً.  
2001 (أيلول/سبتمبر) خاطفوا طائرات انتحاريون مرتبطون بـ«القاعدة»، بهاجمون مركز التجارة العالمي في نيويورك ووزارة الدفاع (البنّاغون) في واشنطن، فيزهقون أرواح ثلاثة آلاف شخص تقريباً.  
الولايات المتحدة تقصف أفغانستان وتزيل نظام طالبان من السلطة.  
2002 (تشرين الأول/أكتوبر) مجموعة إرهابية مرتبطة بـ«القاعدة» تقتل أكثر من 200 شخص، معظمهم من الأستراليين، في تفجير ملاء ليلية في بالي بأندونيسيا.  
2003 (آذار/مارس) الولايات المتحدة وبريطانيا تُهاجمان العراق من غير موافقة الأمم المتحدة، متذرعتين بأن صدام حسين يخفي أسلحة دمار شامل. ولم يُعثر على أي أثر لتلك الأسلحة.  
إرهابيون إسلاميون مرتبطون بـ«القاعدة»، يُقدّمون على قتل مدنيين أبرياء في الدار البيضاء، والرياض، واستنبول، ومدن أخرى.  
(كانون الأول/ديسمبر) القبض على صدام حسين بالقرب من مسقط رأسه: تكريت.  
هزيمة الإصلاحيين في الانتخابات البرلمانية الإيرانية بعدما رفض «مجمع تشخيص مصلحة النظام»، الذي يُسيطر عليه رجال الدين، طلبات ترشيح العديد من أنصار التيار الإصلاحي.





ماليز روثقن: من الكتّات البارزين عن الإسلام  
والعالم الإسلامي. من مؤلفاته: «الأصولية: البحث  
عن معنى» (2004): «الإسلام: مدخل وجيز جداً»  
(1999): «غضب الرب: الهجوم الإسلامي على  
أميركا» (2002): «مسألة شيطانية: سلمان رشدي  
وغضبة الإسلام» (1990): «الإسلام في العالم»  
(1984 ، 2000). كتب عدة سيناريوهات لهيئة  
الإذاعة البريطانية، وحاضر في الدراسات  
الإسلامية والتاريخ الثقافي والأديان المقارنة في  
جامعات بريطانية وأميركية، وهو اليوم كاتب  
متفرغ يقسم وقته ما بين لندن والنورماندي.

البروفسور عظيم نانجي: مدير معهد الدراسات  
الإسماعيلية في لندن. عمل سابقاً أستاذاً ورئيس  
دائرة الأديان بجامعة فلوريدا، وشغل مناصب عدة  
في مختلف الجامعات الأميركية والكندية. من بين  
الكتب المنشورة له: «تمثيل الدراسات الإسلامية في  
خرائط» (1997)، و«الروزنامة الإسلامية» (1996).

إشادات بكتب ماليز روثقن:

الإسلام: مدخل وجيز جداً

الغارديان

«ممتاز»

غضب الرب

«عمل يتسم بعمق الرؤية والاطلاع على خفايا  
الأمور»

كولن ثوبرون

«ممتاز... روثقن مراقب رائق ولماح»

وليم دالريمبل

الإسلام في العالم

«استبصار غير عادي، وفكر يحفز على الاستزادة  
من معرفة الإسلام»

جون ل. اسهوزتو

# من غزوات النبي محمد ﷺ إلى معارك المجاهدين نظرة بانورامية على 1500 سنة من تاريخ دين وشعوبه

يجمع هذا الأطلس التاريخي الجديد، الصادر في أوانه تماماً، ما بين الرواية السردية لتاريخ الإسلام ومسار تطوره والعرض الشيق والجذاب لخرائط ورسوم بيانية غنية بالمعلومات والمعطيات. إنه يقدم لنا لوحة أسرة لواحد من أعظم أديان العالم - دين تعتنقه خمس البشرية - في وقت لم يسبق قط أن بلغ الاهتمام بالإسلام هذه الدرجة من الشدة وحب الاستطلاع. أعد الأطلس كاتبان يعدان من المراجع الثقات حول الإسلام، وقد جاء تصنيفه على نحو يجعل منه مدخلاً ومرجعاً للقارئ العام وللطالب على حد سواء.

■ يغطي الأطلس الفترة الزمنية الممتدة من أواخر العصر القديم ما قبل الإسلام إلى يومنا الحاضر.

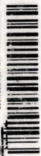
■ يشتمل على تغطية مستقلة لكل منطقة على حدة: الشرق الأوسط، وإفريقيا، وآسيا الوسطى، والهند، وجنوب شرقي آسيا، وأوروبا، وأميركا الشمالية.

■ يضم الأطلس حوالي 100 خريطة ملونة تبين لنا الطبيعة المتحوّلة للحدود والتركّزات السكانية وطرق التجارة الرئيسية، وتتابع صعود وسقوط السلالات الإسلامية الحاكمة والمذاهب الدينية، كما تستجلي كيفية تدرّع الثروات المعدنية والموارد المائية، والأنماط الزراعية، والمواقع الأثرية، والعديد من العناوين الأخرى.

■ يحتوي على عدد كبير من الصور الفوتوغرافية والرسوم البيانية الملونة والعادية.



Bibliotheca Alexandrina



0530936

ISBN 9953-37-377-9



9 789953 373775